

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فرید زفاعی

مدير إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ هـ - ١٩٢٨ م

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فرید زفامی

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٨ - ١٣٤٦ م

فهرست

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث - عصر الأمين والمأمون

صفحة	باب المشور :
١	نصوص كتب الأمين والمأمون - نص كتاب الأمين الى المأمون
٢	نص كتاب الأمين الى أخيه صالح
٥	القول لمحق القرآن (ما كتبه المأمون الى ولاته)
١٧	عهد طاهر بن الحسين
٢٦	رسالة الحميس (ما كتبه المأمون الى أهل حراسان)
٣٨	ما كتبه السيدة زينة الى المأمون - ما كتبه المأمون اليها
٣٩	رسالة أحمد بن يوسف

رسائل سهل بن هارون :

٤٨	وصفه وتاريخ حياته - ما كتبه لحداد
٤٩	حكاية دعلج المراءع الساسر
٥٠	كتبه وطريقته في التأليف
٥٢	من كلام له ، كتابه ثعلبه وعمره
٥٣	ما كتبه الى صديق له أطل من ضعف - رسالته في الحظ
٥٧	ثمن شعره

رسائل عمرو بن مسعدة :

٥٩	وصفه وتاريخ حياته
٦١	من كلام له - ما كتبه الى الحسن بن سهل - ما كتبه الى المأمون
١٣٠	من حكاية

صفحة	
٦٤	ما كتبه الى بعض الرؤساء
٦٥	شئ من شعره
٦٦	حكاية له
٧٠	ما قاله أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي فيه

رسائل الجاحظ :

٧٢	وصفه وتاريخ حياته — رسالته في بنى أمية
٨٠	ما كتبه الى بعض إخوانه في ذم الزمان
٨٢	وصفه لقريش وبنى هاشم
٨٣	ما كتبه في الاعتذار — ما كتبه في الاستعطاف
٨٤	ما كتبه في ذم الحسد — دفاعه عن مؤلفاته
٩٢	ما كتبه في أخذ البرى بذنوب المذنب
٩٨	ما كتبه في أقسام البيان
١٠١	ما كتبه في مدح الكتب
١١٥	ما كتبه في الترغيب في اصطناع الكتب

باب الرسائل :

١٢٨	الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن — كتب رجل الى صديق له
١٣١	فصل لسعيد بن حميد
	فصل في هدية — فصل في سفاقة — فصل لرجل يميمي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٣	فصل في الصفيح لأبي علي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٤	فصل لعقال بن شبة — فصل في الترديع — فصل في الصفيح — جواب في فتح
١٣٥	فصل في الصفيح عن الجفاء — فصل في الاعتذار
١٣٦	الى المأمون من عامل — فصل لابن الكلبي
١٣٧	فصل لابراهيم بن اسماعيل بن داود
١٣٨	فصل لعمر بن مسعدة
١٣٨	فصل لعيسى بن واضح الى الفضل بن ربيع — فصل لجليل بن يزيد
١٣٩	وله في المطر — وله الى بعض إخوانه
١٤٠	فصل لابن أعين كاتب الخيران — فصل لأبن الكلبي — فصل لعلي بن عبيدة الى ابن الكلبي
١٤١	فصل لعامة — فصل لسعيد بن عبد الملك

صفحة

- ١٤٢ فصل لحيل بن يزيد الى بعض اخوانه — وله الى بعض اخوانه أيضا
- ١٤٤ فصل في شكر
- ١٤٥ فصل في صفة الجند
- ١٤٦ ما كتبه جعفر بن محمد الأشعث الى رجل لم يكتبه — ما كتبه الفضل بن يحيى الى رجل يشاوره في أمر حدث — ما كتبه أحمد بن يوسف الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي — توسل ما كتبه طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل — ما كتبه محمد بن الجهم — ما كتبه محمد بن مسعر — ما كتبه ابن وهب في الاعتذار

التحاميد :

- ١٤٨ التحميد الأول — التحميد الثاني صدر تحميد مفرد — صدر تحميد آخر — تحميد مختار لكتاب خزينة بن خازم في فتح الصنارية — تحميد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة
- ١٤٩ تحميد لابراهيم بن العباس في فتح اسماعيل بن اسحاق — التحميد الثاني — تحميد له مبتدأ مقام بين يدى الخليفة
- ١٥٠ تحميد ثان — تحميد ثالث
- ١٥١ تحميد في فتح لابن العباس
- ١٥٣ وله في فتح ابن البعث لما ظفربه
- ١٥٣ وله صدر كتاب الخليس في حميد الله وتحميده
- ١٥٤ تحميد لأحمد بن يوسف في صدر رسالة الخليس التي كانت تقرأ بخراسان
- ١٥٥ تحميد للعباس في مقام له بين يدى المأمون — تحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري
- ١٥٦ تحميد في فتح الى أمير لقامة — صدر تحميد لغسان بن عبد الحميد في خطة موجرة — تحميد لعبد الحميد في فتح
- ١٥٧ تحميد ثالث
- ١٥٨ تحميد لأنس بن أبي شيخ — تحميد لعبد الحميد في فتح يعظم فيه أمر الاسلام
- ١٥٩ تحميد لعبد الحميد أيضا
- ١٦٠ تحميد لقامة — تحميد لريد بن علي — تحميد في الاسلام
- ١٦١ تحميد لأبي عبيد الله
- ١٦٢ صدر رسالة في الخليس لابراهيم بن المهدي
- ١٦٣ تحميد في الاسلام وما امتن به على أهله
- ١٦٤ تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم
- ١٦٥

صفحة

- ١٦٨ تحميد في فتح لسعيد بن حميد
- ١٦٩ تحميد لابن المقفع
- ١٧١ تحميد لفسان بن عيد الجيد — تحميد لأحد بن يوسف في فتح السند
- ١٧٢ تحميد لأبي عيد الله — تحميد لسعيد بن حميد
- ١٧٣ فيما يقرظ به الخليفة
- ١٧٧ تحميد لأبي عيد الله
- ١٨٠ ما يكتب به في المخالفين وقت الهزيمة
- ١٨١ ما يكتب به في صفة الخالعين
- ١٨٤ ما يكتب به في العصاة — ما يكتب به في مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم
- ١٨٧ وصف الأولياء في الكتب
- ١٨٨ ما يقرظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب — سعيد بن حميد

التحاميد في أواخر الكتب :

- ١٨٨ تحميد لسعيد بن نصر — تحميد لإبراهيم بن العباس — تحميد لأبي عيد الله
- ١٩٢ الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن :

تهنئة خليفة بظفر — ما كتبه إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

- ١٩٣ بعد فتح عمورية
- ١٩٤ ما كتبه أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يهنئه بظفر — تهنئة حليفة بحج
- ١٩٥ تهنئة بولاية — تهنئة لسعيد بن حميد إلى بعض أخوانه
- ١٩٧ ما كتبه محمد بن مكرم إلى أحمد بن دينار
- ١٩٨ تهنئة بعزل عامل عن عمله
- ١٩٩ ما كتبه محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر
- ٢٠٠ تهنئة بزيح وبناء بأهل
- ٢٠١ تهنئة بمولود كتبها العباس بن الحسن الطالبي إلى الماءون
- ٢٠٤ ما كتبه ابن المقفع إلى صديق له ولدت له حارية
- ٢٠٥ تهنئة لمحمد بن مكرم إلى نصراني أسلم

باب المنظوم :

- ٢٠٦ أونواس
- ٢٤٩ العنابي

صفحة

٢٥٥ دعبل
٢٦٥ حسين بن الصحاك
٢٧٨ محمد بن عبد الملك الزيات
٢٨٣ ابن البواب
٢٨٦ الخريبي
٢٩٥ عبد الله بن طاهر
٢٩٨ ما قيل في هجاء الأمين وراثته
٣٠٣ هجاء يحيى بن أكرم
٣٠٥ وصف ثورة بغداد وحريقها

مُلْحَقٌ

الكتاب الثالث

باب المنشور

(١) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ - نص كتاب الأمين الى المأمون؛ وهو الكتاب الذي أشرنا اليه في الجزء الأول .
إذا ورد عليك كتاب أخيك - أعاده الله من - فقدك - عند حلول ما لا مرد له
ولا مدفع، مما قد أخلف وتناخ الأئم الحالية ، والقرون الماصية، بما عزاك الله به .
وأعلم أن الله جلّ شأنه ، قد اختار لأمير المؤمنين أفصل الدارين ، وأجرل الحظين ،
فبفضله الله طاهراً زائكاً، قد شكر سعيه، وغفر ذنبه ، إن شاء الله . فقم في أمرك فيام
ذى الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه ، وسلطانه وعامة المسلمين . وإياك أن يغلب
عليك الجزع، فإنه يُحِيط الأجر، وبعقب الوزر؛ وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميناً،
وإنا لله وإنا إليه راجعون . وخذ البيعة على من قبلك، من قوادك وجُسدك، وخاصتك
وعامتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريطة التي جعلها لك
أمير المؤمنين : من نسخها له وإثباتها، فإنك مُقلد من ذاك ، ما قلّك الله وخليفته .
وأعلم من قبلك رأي في صلاحهم ، وسدّ خلّتهم ، والتوسعة عليهم؛ فمن أنكرته عند
بيعته، أو آتمته على طاعته، فاعث الى رأسه مع خره . وإياك وإقالتة، فإن البار أولى

به . وأُكْتُبُ إِلَى عُثْمَانَ ثَمُورَكَ ، وَأُسْرَاءِ أَجْنَادِكَ ، بِمَا طَرَقَكَ مِنَ الْمَصِيبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ الدُّنْيَا لَهُ ثَوَابًا ، حَتَّى قَبِضَهُ إِلَى رُوحِهِ وَرَاحَتِهِ وَجَسَدِهِ ، مَغْبُوطًا مَحْمُودًا ، قَائِدًا لِجَمِيعِ خُلَفَائِهِ إِلَى الْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَمُرَّهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْبَيْعَةَ عَلَى أَجْنَادِهِمْ ، وَخَوَاصِهِمْ وَعَوَامَتِهِمْ ، عَلَى مِثْلِ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ ، مِنْ أَخْذِهَا عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ؛ وَأَوْعِزْ إِلَيْهِمْ فِي ضَبْطِ ثُمُورِهِمْ ، وَالْقُوَّةِ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، إِنِّي مُتَقَدِّدٌ لِحَالَتِهِمْ ، وَلَأُمُّ شَعَثَتِهِمْ ، وَهُوَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا آيَانَ فِي تَقْوِيَةِ أَجْنَادِي وَأَنْصَارِي . وَلَتَكُنْ كُتُبُكَ إِلَيْهِمْ كُتُبًا عَامَةً لَتَقْرَأَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَسْكُنُهُمْ ، وَيَسُطُّ أَمْلَهُمْ . وَأَعْمَلْ بِمَا تَأْمُرُ بِهِ لِمَنْ حَضَرَكَ ، أَوْ نَأَى عَنْكَ مِنْ أَجْنَادِكَ عَلَى حَسَبِ مَا تَرَى وَتُشَاهِدُ . فَإِنْ أَخَاكَ يَعْرِفُ حَسَنَ اخْتِيَارِكَ ، وَصَحَّةَ رَأْيِكَ ، وَبُعْدَ نَظْرِكَ ، وَهُوَ يَسْتَحْفِظُ اللَّهَ لَكَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَتَدَبَّكَ عَضْدَهُ ، وَيَجْعَلَ بِكَ أَمْرَهُ ، إِنَّهُ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ . وَكُتِبَ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِينَ يَدَيَّ وَإِمْلَأْنِي فِي تَوَالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ

٢ — وَهَذَا كِتَابُ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ إِلَى أَخِيهِ صَالِحٍ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتَابِي هَذَا ، عِنْدَ وَقُوعِ مَا قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ ، وَنَقَذَ مِنْ قَضَائِهِ ، فِي خُلَفَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَجَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَقَالَ : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ عَظِيمِ ثَوَابِهِ وَمُرَافَقَةِ أَنْبِيَائِهِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ بِوِلَايَاهِ نَسْأَلُ أَنْ يُحْسِنَ الْخِلَافَةَ عَلَى أُمَّةٍ نَبِيهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَدْ كَانَ لَهُمْ عِصْمَةٌ وَكَيْفَاءُ ، وَبِهِمْ رِءُوفًا رَحِيمًا .

فَشِمَّرْ فِي أَمْرِكَ ، وَإِلَّا بَاكَ أَنْ تُلْقَى بِيَدِكَ ، فَإِنْ أَخَاكَ قَدْ أَخَارَكَ لِمَا آسَتْهُنْضُكَ لَهُ ، وَهُوَ مُنْقَفَدٌ مَوَاقِعَ فَقْدِكَ ، فَخَمْنِي طَنْهُ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ . وَخُذِ الْبَيْعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ، مِنْ وَلَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَوَالِيهِ وَحَاصِلَتِهِ وَعَامَنِهِ لِمُحَمَّدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ اعْبُدِ اللَّهَ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، نَحْمُ لِلْقَاسِمِ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . عَلَى الشَّرِيطَةِ الَّتِي جَعَلَهَا

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهده والمضي على مناهجه .

وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيي في استصلاحهم ، وردّ مظالمهم ، وتفقد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاغب ، أو نعر ناعر ، فأسط به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للتقين . وأضئهم إلى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله ، ومُره بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورباطته ، وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ، فإنه ثقة على ما يلي ، مقبول عند العامة ، وأضئهم إليه جميع جد الشرط ، من الروابط وغيرهم ، إلى من معه من جنده ، ومُره بالجد والتيقظ ، وتقديم الخزم في أمره كله ، ليلاً ونهاره . فإن أهل العداوة واللفاق لهذا السلطان يقتنمون مثل حلول هذه المصيبة ، وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه ممن لا يعرف إلا بالطاعة ، ولا يدين إلا بها ، بمعاقد من الله ، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ، ومُره الخدم بإحضار روابطهم ، من يسد بهم وبأجنادهم مواضع انخل من عسكرك ، فإنهم حد من حدودك ، وصير مُقدمتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، وسأقتك إلى يحيى بن مُعاذ ، فيمن معه من الجنود ، ومرهما بما وبك في كل ليلة .

وألزم الطريق الأعظم . ولا تعدوّ المراحل ، فإن ذلك أرفق بك ، ومرو أسد بن يزيد ، أن يتخير رجلا من أهل بيته أو قواده ، فيصبر إلى مفدته ، ثم يصير أمامه ، لتهيئة المنازل ، أو بعض الطريق ، فإن لم يحضر في عسكرك بعض من سميت ، فاختر لمواضعهم من يتيق بطاعته ، ونصيحته وهيئته ، عند العوام ، فإن ذلك لن يعوزك ، من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

وإياك أن تُفدّ رأيا ، أو تُبرم أمرا ، إلا برأي شيخك ، وبقية آبائك ، الفضل بن الربيع ، وأقر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ،

ولا تُخْرِجَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ، مِنْ ضَمْنِ مَا لِي، إِلَى أَنْ تَقْدَمَ عَلَيَّ . وقد أوصيت بكر بن المَعْتَمِرِ
بِمَا سَيُبَلِّغُكَه، وَأَعْمَلُ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا تَشَاهِدُ وَتَرَى . وإن أمرت لأهل العسكر بِعَطَاءٍ
أَوْ رِزْقٍ فَلْيَكُنِ الْفَضْلُ بِنِ الرَّبِيعِ الْمُتَوَلَّى لِإِعْطَائِهِمْ، عَلَى دَوَاوِينَ يَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ، بِمَحْضَرٍ
مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ بِنِ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفِذْ
إِلَيَّ عِنْدَ وَصُولِ كِتَابِي هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ، وَبَكْرَ بْنَ الْمُعْتَمِرِ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا
مِنَ الْبَرِيدِ؛ وَلَا يَكُنْ لَكَ عُرْجَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ، بِمَوْضِعِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، حَتَّى تَوَجَّهَ إِلَى
بِعْسَكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَائِنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتَدْفِعُ اللَّهُ عَنْكَ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ
حَسَنُ التَّأْيِيدِ بِرَحْمَتِهِ . وَكُتِبَ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِينَ يَدَيَّ وَإِمْلَأْنِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهالك مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عالمه إسحاق بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل .

أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإنَّ حقَّ الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، وموارث النبوة التي أودعهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيته، والتشهير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين، أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريته، والإقسط فيما ولاه الله من رعيته، برحمته وميثقه، وقد عرّف أمير المؤمنين أنَّ الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظره ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا أسنضاء بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واصحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فاطبقوا مجتمعين، وآتفقوا غير متعاجمين، على أنه قدّم أول، لم يخلقه الله، ويحدثه ويختاره، وقد قال الله عز وجل في مُحْكَم كتابه، الذي جعله لما في الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۚ . فكلِّ ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ . وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ . فأخبر أنه قصص لأُمُور أحدثه بعدها، وتلا به مُتَقَدِّمَهَا، وقال : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ دِينٌ خَيْرٌ ۚ . وكلُّ مُحْكَمٍ مُفَصَّلٍ، فله مُحْكَمٌ مُفَصَّلٌ، والله مُحْكَمٌ مُفَصَّلٌ، فهو خالفه ومبتدعه بـ

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونجحتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ؛ فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السنة الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقصف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيئ آرائهم ، تزيئاً بذلك عندهم ، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلاتهم ، فقبلت بتركيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ، ونغل أديهم ، وفساد نياتهم و يقينهم ؛ وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا ، ولما طلبوا في متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ، ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله ، وأعمى أبصارهم ، (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) . فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، ورعوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق في أوليائه ، والهائل على أعدائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يؤتم في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يؤثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ؛ ومن عصى عن رشده وحظه ، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله ، والفصد في شهادته ، أعمى وأضل سبيلاً ، ولعمري أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وأن أولاهم برد شهادته ، في حكم الله ودينه من رد شهادته الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من بحضرتك من القضاة ، وأقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثيه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق

فيا قلده الله، وأستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخُلوص توحيده وبقينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فُرِّمَ بَنَصُّ مَنْ يَحْضُرُهُمْ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى النَّاسِ، وَمَسْأَلَتُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَتَرْكُ إِثْبَاتِ شَهَادَةِ مَنْ لَمْ يُقَرَّ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مُخَدَّثٌ وَلَمْ يَرَهُ، وَالْإِمْتِنَاعُ مِنْ تَوْقِيعِهَا عِنْدَهُ؛ وَأَكْتُبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَأْتِيكَ، عَنْ قُضَاةِ أَهْلِ عَمَلِكَ فِي مَسْأَلَتِهِمْ، وَالْأَمْرُ لَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَشْرِفْ عَلَيْهِمْ، وَتَفَقَّدْ أَثَارَهُمْ، حَتَّى لَا تُتَفَقَّدَ أَحْكَامُ اللَّهِ، إِلَّا بِشَهَادَةِ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي الدِّينِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلتَّوْحِيدِ؛ وَأَكْتُبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكُتِبَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، إلى إسحاق بن إبراهيم، في أشخاص سبعة نفر، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستمل يزد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدُّورقي، فأشخصوا إليه، فامتنعهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحصرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمل ما أجالوا به المأمون فخلّى سبيلهم، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمائه على عبادِهِ، الَّذِينَ أَرْتَضَاهُمْ لِإِقَامَةِ دِينِهِ، وَحَمَلَهُمْ رِعَايَةَ حَافَتِهِ، وَإِعْضَاءَ حُكْمِهِ وَسُنَنِهِ، وَالْإِتِّمَامَ بِعَدْلِهِ فِي بَرِّيَّتِهِ، أَنْ يَجْتَهِدُوا لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَتَصَحَّحُوا لَهُ فِيمَا أَسْتَحْفَظُهُمْ وَقَلَدَهُمْ، وَدَأَّوْا عَلَيْهِ — تَبَارَكَ اسْمُهُ — وَتَعَالَى — بِفَضْلِ الْعِلْمِ الَّذِي أَوْدَعَهُمْ، وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي جَعَلَهَا فِيهِمْ، وَيَهْدُوا إِلَيْهِ مَنْ زَاغَ عَنْهُ، وَيُرِدُّوا مَنْ أَدْبَرَ عَنْ أَمْرِهِ، وَنَهَجُوا لِرَعَايَاهُمْ سَبِيلَ نَجَاتِهِمْ، وَبَقْفُوهُمْ عَلَى حُدُودِ إِيْمَانِهِمْ، وَسَبِيلِ فَوْزِهِمْ وَعَصَمَتِهِمْ، وَيَكْسِفُوا لَهُمْ عَنْ مَغْطِيَاتِ أُمُورِهِمْ، وَمَشْتَبَاهَاتِهَا

عليهم ، بما يدفعون الرب عنهم ، ويعود بالضياء والبيئة على كافتهم ؛ وأت يؤثر ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ، ومتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مُرصدٌ من مساءلتهم عما حملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدموا عنده ؛ وما توفيق أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما ينال المسامون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم ، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفه مجد صلى الله عليه وسلم بأقيا لهم ، وأشتباهه على كثير منهم ، حتى حسن عندهم ، وترين في عقولهم ، ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذي بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته ، التي لا يبلغ أولها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء دونه ، خلقا من خلقه ، وحدثا هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى ، في أدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وتأويل ذلك : إنا خلقناه ، كما قال جل جلاله : ﴿ وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ . فسوى عز وجل ، بين القرآن ، وبين هذه الخلائق ، التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ . فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلا بمخلوق ، وقال انبياءه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٌ ﴾ . وقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ . وأخبر عن قوم ذمهم بكنذهم ، أنهم قالوا : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ . فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا ، وإيمانا ونورا وهدى ومباركا وعرييا

وقصصا، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أوْلا وآخرآ، ودلّ عليه، أنّه محدودٌ مخلوق، وقد عظم هؤلاء
 الجُهْلَةُ بقولهم في القرآن؛ التّلم في دينهم، والخرَج في أمانتهم، وسهلوا السبيل لعدو
 الإسلام، وأُعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا، ووصفوا خلق الله وفعله
 بالصفة التي هي لله وحده وشبّهوه به، والإشابه أولى بخلقهم، وليس يرى أمير المؤمنين،
 لمن قال بهذه المقالة حظًا في الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أنّ يُحِلَّ
 أحدا منهم محلّ الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صِدْق في قول ولا حكاية، ولا تولية
 لشيء من أمر الرعية؛ وإن ظهر قصد بعضهم، وعُرف بالسداد مُستدّ فيهم، فإنّ الفروع
 مردودة الى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومن كان جاهلا بأمر دينه، الذي
 أمره الله به، من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جهلا، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل
 سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين، بما
 كتب به إليك، وانصصهما عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين
 على شيء من أمور المسلمين، إلّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنّه لا نوحيد لمن لم يُقَرَّ
 بأن القرآن مخلوق، فإنّ قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم البهما في آمتحان من يحضّر
 مجالسهما، بالشهادات على الحقوق، ونصّهم عن قولهم في القرآن، فن لم يقل منهم إنّه
 مخلوق، أبطلا شهادته، ولم يقطعا حكما بقوله، وان ثبت عفاؤه بالقصد والسداد في أمره،
 وأفعل ذلك بمن في سائر عمالك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة
 في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، وآكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك
 في ذلك إن شاء الله .

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين ، وأحضر أبا حسان الزبدي ، وبشر بن الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والفضل بن غانم ، والذئبال بن الهيثم ، وسجادة ، والقواريري ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وأبن الهريش ، وأبن عتبة الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العُمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة ، وأبا نصر التمار ، وأبا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المضروب ، وابن الفرخان ، وجماعة منهم النضر بن شميل ، وابن علي بن عاصم ، وأبو العوام البراز ، وابن ثجاج ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، فأدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما نقول في القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقاتلي لأمر المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فخلق ؟ قال : ليس بخلق ، قال : ليس أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك ، وقد آستعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك ، فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : أكتب ما قال .

ثم قال لعل بن أبي مقاتل : ما تقول يا علي ؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع ، فامحنه بالرقعة ، فأنز بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بنى سمعا وأطعنا ، فقال للكاتب : أكتب مقالته .

ثم قال للذيال نحووا من مقالته لعلّ بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسان الزبّادى : ما عندك ؟ قال : سأل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها فأقر بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يُقيم حجّنا وصلاتنا ، وتؤدّي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا اتّممنا ، وإن نهانا أتّهينا ، وإن دعانا أجبنا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمُر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرتنى أنّ أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتنى به ، فإنك الثمقة ، المأمون عليه ، فيما أبلغتنى عنه من شيء ، فإن أبلغتنى عنه بشيء صرّته إليه ، قال : ما أمرنى أن أبلغك شيئا ، قال على بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والموارث ، ولم يحملوا الناس عليها ؛ قال له أبو حسان : ما عندى إلا السمع والطاعة ، فمرنى آتيمر ، قال : ما أمرنى أن آمرك ، وإنما أمرنى أن أمتحنك .

ثم طرد الى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أم مخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى الى ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) وأمسك عن لا يُشَبِّهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ؛ فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سميع من أذن ، بصير من عين ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدري هو كما وصف نفسه ؛ ثم دعا بهم رجلا رجلا كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلّا هؤلاء نفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُبَيْة الأكبر ، وابن البكاء . وعبد المنعم بن إدريس

ابن بنت وهب بن مُنَبِّه ، والمُظَفَّر ابن مُرَجَّجًا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ، ولا يُعرَف بشيء منه إلا أنه دُرس في ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة ، وابن الأحمر ، فاما ابن البكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۖ ﴾ ، والقرآن مُحَدَّث لقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنه مجعول ، فكتب مقالته ، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم أعترض ابن البكاء الأصغر فقال — أصلحك الله — : إن هذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتهما أن يُسمِعانا مقالاتهما لَنَحْكِي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدتهما عندهما بشهادة فستعلم مقالاتهما إن شاء الله ؛ فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت الى المأمون ، فكثت القوم تسعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون . جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم . وهاك هو مانجعله خناما لكلمتنا .



بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليه مُتَصَنِّعَة أهل القبلة ، وملنيسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين ، من آمتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالهم . تذكر إحضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان ينسب الى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعا كتاب أمير المؤمنين ، ومسالك إياهم عن آعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، وإطباقتهم على نفى النسب ، واختلافهم في القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمسالك عن الحديث والفتوى ، في السر والعلانية ، وتقدمك الى السنيدي ، وعباس مولى أمير المؤمنين بما

تَقَدَّمَتْ بِهِ فِيهِمْ إِلَى الْقَاضِيَيْنِ بِمَثَلِ مَا مَثَّلَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَمْتَحَانِ مَنْ يَحْضُرُ
مَجَالِسَهُمَا مِنَ الشُّهُودِ ، وَبَثَّ الْكُتُبَ إِلَى الْقَضَاةِ فِي النُّوَاحِي مِنْ عَمَلِكَ بِالْقُدُومِ عَلَيْكَ ،
لِتَحْمِلَهُمْ وَتَمْتَحِنَهُمْ عَلَى مَا حَدَّه أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَثْبِيْتَكَ فِي آخِرِ الْكُتُبِ أَسْمَاءَ مَنْ حَضَرَ
وَمَقَالَاتِهِمْ ، وَفَهَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا اقْتَضَصْتَ ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَحْمَدُ اللَّهَ كَثِيرًا كَمَا هُوَ أَهْلُهُ ،
وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَصَلِّيَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَرْغَبَ إِلَى اللَّهِ فِي التَّوْفِيقِ
لِطَاعَتِهِ ، وَحَسَنَ الْمَعُونَةِ ، عَلَى صَالِحِ نِيَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ .

وَقَدْ تَدَبَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَتَبْتَ بِهِ مِنْ أَسْمَاءَ مَنْ سَأَلَتْ عَنْ الْقُرْآنِ ، وَمَا رَجَعَ
إِلَيْكَ فِيهِ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ ، وَمَا شَرَحْتَ مِنْ مَقَالَتِهِمْ ؛ فَأَمَّا مَا قَالَ الْمَغْرُورُ بِشَرِّ بْنِ الْوَلِيدِ
فِي نَفْيِ التَّشْبِيهِ ، وَمَا أَمْسَكَ عَنْهُ مِنْ أَنْ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، وَأَدَّعَى مِنْ تَرْكِهِ الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ
وَأَسْتَعْيَاذِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ كَذَّبَ بِشَرِّ فِي ذَلِكَ وَكُفْرًا ، وَقَالَ الزُّورَ وَالْمُنْكَرَ ، وَلَمْ يَكُنْ
بَجَرَى بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا فِي غَيْرِهِ ، عَهْدٌ وَلَا نَظَرٌ أَكْثَرَ مِنْ إِيخْبَارِهِ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْتِقَادِهِ كَلِمَةَ الْإِخْلَاصِ وَالْقَوْلَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، فَادَّعَى بِإِلَيْكَ ،
وَأَعْلَمَهُ مَا أَعْلَمَكَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنْصَصَهُ عَنْ قَوْلِهِ فِي الْقُرْآنِ ، وَاسْتَبَيَّه مِنْهُ ،
فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَرَى أَنْ تَسْتَيْبَ مَنْ قَالَ بِمَقَالَتِهِ إِذْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ الْكُفْرَ الصُّرَاحَ وَالشَّرْكَ
الْمَحْضَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا فَأَشْهَرُ أَمْرِهِ ، وَأَمْسَكَ عَنْهُ ، وَإِنْ أَصْرَعَ عَلَى شَرْكَهِ ،
وَدَفَعَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنَ مَخْلُوقًا بِكُفْرِهِ وَإِلْحَادِهِ ، فَاضْرِبْ عُنُقَهُ ، وَأَبْعَثْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِرَأْسِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ فَامْتَحَنَهُ بِمَثَلِ مَا تَمْتَحِنُ بِهِ بَشَرًا ، فَإِنَّهُ كَانَ
يَقُولُ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ بَلَغْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ بِالْغُفْرِ ، فَإِنْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، فَأَشْهَرُ أَمْرِهِ
وَأَكْشَفُهُ ، وَإِلَّا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ ، وَأَبْعَثْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِرَأْسِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي مُقَاتَلٍ فَقُلْ لَهُ : أَلَسْتَ الْقَائِلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ تَحَالُ وَتَحْرُمُ
وَالْمَكْلَمُ لَهُ بِمَثَلِ مَا كَلَّمْتَهُ بِهِ ، مِمَّا لَمْ يَذْهَبْ عَنْهُ ذِكْرُهُ ؛ وَأَمَّا الذِّيَالُ بْنُ الْهَيْثَمِ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ
كَانَ فِي الطَّعَامِ الَّذِي كَانَ يَسْرِقُهُ فِي الْأَنْبَارِ ، وَفِيَا يَسْتَوِلِي عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مَدِينَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

أبى العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مقتنيا آثار سلفه ، وسالكا مناهجهم ، ومُتَحَذِّيا سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَوَّام ، وقوله إنه لا يُحَسِّن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله ، لا في سنه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحَسِّن الجواب في القرآن فسيُحَسِّنُه ، إذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرَّفَ خَوَى تلك المقالة ، وسبيله فيها ، وأستدلَّ على جهله ، وأفته بها ؛ وأما الفضل بن غانم ، فأعلمه أنه لم يُخَفِّ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما آكتسب من الأموال في أقل من سنة ، وما شَجَرَ بينه وبين المطَّاب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمُستَكْرَأٍ يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما ، وإنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال ، والخائفُ له فيما خالفه فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ، ونقله الى غيره ؛ وأما الزَّيَادِيّ ، فأعلمه أنه كان مُتَّحِلًا لِأَوَّلِ دَعْيٍ كان في الإسلام خُولِفَ فيه حكمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديرا أن يسلك مسلكه فانكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد ، أو يكون مولى لأحد من الناس ، — وذكر أنه إنما نُسِبَ الى زياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبى نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متَّجِرِه ؛ وأما الفضل بن الفرَّخان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذَ الودائع التي أودعها إِيَّاه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تَرَبُّصًا بمن استودعه ، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وإيمانك إِيَّاه ، وهو معتقِدٌ للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغل با كل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أهـر المؤمنين لو لم يستحلَّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم ،

إلا لإبرائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المسال الذي كان استحلّه من مال عليّ بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه؛ وأما سعدويه الواسطيّ فقل له: قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث، والترين به، والحرص على طلب الرئاسة فيه، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها: متى يتمنن فيجلس للحديث؛ وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سميع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، الأول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى، وحكّه لإصلاح سجّادته، وبالودائع التي دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريريّ فقيما تكشف من أحواله، وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وبخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسنيّ مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به، والاستئانة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمريّ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب لجوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلّقه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه، وإنه بعد صبيّ يحتاج إلى تعلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مُسهر، بعد أن نصّه أمير المؤمنين عن محبته في القرآن، فخمّجّم عنها، ولجّج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذميا، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومن لم يرجع عن تركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين، موتقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤدّوهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلمهم الى من يُؤمر بتسليمهم اليه ، لينصّبهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ؛ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجلا به ، تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل نواب الله عليه ، فَأَنفِذْ لِمَا أَتَاكَ من أمر أمير المؤمنين ، وعجّل لإجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عَهْد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عَهِد طاهرُ بن الحسين الى عبدالله آبنه هذا العهدَ ، تنازعه الناسُ وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمونَ ، فدعا به وقرئ عليه ، وقال : ما أبى أبو الطيب شيئاً من الدين والدنيا ، والتدبير والرأى ، وإصلاح المُلْك والرعية ، وحفظ البيعة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه ، وأوصى به ، وتقدم فيه . وأمر أن يُكتبَ بذلك الى جميع العُبال في نواحي الأعمال . ولما كان هذا العهدُ من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منّا في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطر ، وهآكه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخَشِيتِه ومراقبتِه ومزايلِه سَخَطِه ، وحفظ رِعيتِك ، وألَزم ما ألبسك الله في العافية بالذِكر لمعادك ، وما أنت صائر اليه ، وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويُحييك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن آسترعك أمرهم من عباده ، وألزمك العدلَ عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم ، والحقنَ لدمائهم ، والأمنَ أسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومُواخِذُكَ بما فرض عليك من ذلك ، ومَوْفَقُكَ عليه ، ومُسَائِلُكَ عه ، ومُتَبِّك عليه بما قدّمت وأخرت ، وفرَّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يُذهلك عنه ذهل ، ولا يَسْغَلُكَ عنه شغل ، فإنه رأس أمرك ومِلاكُ شألك ، وأوّل ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أوّل ما يُلْزِم به نفسك وتُنسَب اليه فِعْأُكَ ، المواظبةُ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس فيلُك في موافيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها ، وترنل في قراءتك ، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتسهلك ، ولتَصُدُق فيها لربك نيّتك ، وأحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وآداب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمثابرة على خلائقه، وأقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وأتتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وأثر الفقه وأهله، والدين وحملته وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضّل ما تزين به المرء الفقه في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والأمر به، والنهْي عن المعاصي والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العبادُ معرفةً بالله، عز وجل، وإجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوفير لأمرك والهيبة لسلطانك، والأناسة بك والثقة بعدك. وعليك بالاعتصام في الأمور كلها فليس شيء أئين نفعا ولا أحضر أمنا ولا أجمع فضلا من القصد، والقصد داعية إلى الرشd، والرشd دليل على التوفيق، والتوفيق منقاد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن الهادية بالاعتصام، فأثره في دنياك كلها، ولا تُقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة ومعالم الرشd، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يُطلب به وجه الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه، في دار كرامته.

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الذنوب وأنتك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصليح أمورك، بأفضل منه، فاته، وأهتد به تم أمورك، وتزد مقدرتك، وتصلح خاصتك وعامتك، وأحسن الظن بالله عز وجل، تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها، تستدم به النعمة عليك، ولا تُنهض أحدا من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم، وأجعل من شأنك، حسن الظن بأصحابك، وأطرد عنك سوء الظن بهم، وأرفضه عنهم، يُعنك ذلك على أصطناعهم ورياضتهم، ولا يحدت عدو الله الشيطان في أمرك مغمرا،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ فَيَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ، فِي سُوءِ الظَّنِّ، مَا يُنْقِصُ عَلَيْكَ لَذَاذَةَ عَيْشِكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَجِدُ بِحَسَنِ الظَّنِّ، قُوَّةَ وَرَاحَةٍ، وَتُكْفَى بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ، وَالْإِسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ، وَلَا يَمْنَعُكَ حَسَنُ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ، أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْئَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالنَّظَرَ فِيمَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا، بَلْ لِتُكْنِيَ الْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالنَّظَرَ فِي حَوَائِجِهِمْ، وَحَمْلَ مَوْثِقَاتِهِمْ، آثَرَ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ، وَأَحْيَا لِللسنة، وَأَخْلَصُ نِيَّتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا، وَتَفْرُدُ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ، تَفْرُدَ مِنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَوْثِقٌ عَمَّا صَنَعَ، وَبِجَزَى بِمَا أَحْسَنَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا، وَرَفَعَ مِنْ أَتْبَعَهُ وَعِزَّزَهُ، فَاسْلُكْ بَيْنَ تَسْوِسِهِ وَتَرْعَاهُ، نَهْجَ الدِّينِ، وَطَرِيقَةَ الْهُدَى، وَأَقِمِّ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ، وَمَا اسْتَحَقُّوه، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَونْ بِهِ، وَلَا تُؤَخِّرْ عِقَابَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ، لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ ظَنِّكَ، وَاعْزِمِ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ، وَجَانِبِ الشُّبْهِ وَالْبِدْعَاتِ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ، وَتَقُمْ لَكَ مَرْوَةٌ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَفِ بِهِ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ فَانْجِزْهُ، وَأَقْبِلِ الْحَسَنَةَ، وَأَدْفَعْ بِهَا، وَأَغْمِضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ، وَأَشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ، وَأَبْغِضْ أَهْلَهُ، وَأَقْصِ أَهْلَ النِّيمَةِ، فَإِنْ أَقُولُ فَسَادَ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ الْأُمُورِ وَأَجْلَهَا، تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ، وَالْجَرَازَةِ عَلَى الْكَذِبِ، لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ، وَالزُّورِ وَالنِّيمَةِ خَاتِمُهَا، لِأَنَّ النِّيمَةَ لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا، وَقَائِلُهَا لَا يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمَطِيعِهَا أَمْرٌ، وَأَحِبَّ أَهْلَ الصَّدَقِ وَالصَّلَاحِ، وَأَعَنِ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ، وَوَاصِلِ الضُّعَفَاءَ، وَصِلِ الرَّحِمَ، وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ. وَعِزَّةَ أَمْرِهِ، وَأَلْتَمِسْ فِيهِ نَوَابِهِ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ، وَاجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورَ، وَأَصْرِفْ عَنْهَا رَأْيَكَ. وَأُظْهِرْ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ، وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ سِيَاسَتَهُمْ، وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ، وَبِالْمَعْرُوفَةِ الَّتِي نَتَمَتَّى بِهَا إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى، وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَآثِرِ الْوَقَارَ وَالْحِلْمَ. وَإِيَّاكَ رَاحِدَةً وَالطَّيْسَ وَالْغُرُورَ فَمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ، وَإِيَّاكَ أَنْ

تقول : إني مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلص لله وحده النية فيه ، واليقين به ، وأعلم أن الملك لله ، يعطيه من يشاء ، وينزعه من يشاء ولن تجد تغير النعمة ، وحلول النعمة ، إلى أحدٍ أسرع منه ، إلى حملة النعمة ، من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم في الدولة ، اذا كفروا بنعم الله وإحسانه وأستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكثر ، البر والتقوى ، والمعدلة ، وأستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأموورهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة للمهوفهم ، وأعلم أن الأموال اذا كثرت وذُحِرَتْ في الخزائن ، لا تُثْمَرُ ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصَلَحَتْ به العامة ، وتزيتت به الولاة ، وطاب به الزمان ، وأعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيته من ذلك حصصهم ، وتعهد بما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك اذا فعلت ذلك قوت النعمة عليك ، وأستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جاية نَراجك ، وجمع أموال رعيته وعملك أقدر ، وكان الجميع لما سئلهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردت ، فاجهد نفسك ، فيما حددت لك في هذا الباب ، ولتُعْظَمَ حِسْبَتُكَ فيه ، فإنما يبقى من المال ، ما أنفق في سبيل حقه ، وأعرِفَ الشاكرين شكرهم ، وأثبهم عليه ، وإياك أن تُنْسِيكَ الدنيا وغرورها هَوَى الأثرة ، فتتهاون بما يحق عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وأرجُ الثواب ، فإن الله قد أسغى عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيرا وإحسانا . فان الله يشب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين ، وقضاء الحق فيما حمل من النعم ، وألبس من العافية والكرامة ، ولا تحتقرن ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا نصائن كفورا ، ولا تدهن عدوا ، ولا تصدقن نكماً ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تتبعن غاويًا ، ولا تحمدن

مُرَائِيًا ، ولا تُحَقِّرَنَّ إِنْسَانًا ، ولا تَرْدَنْ سَائِلًا فَقِيرًا ، ولا تُجِبَنَّ بِاطْلًا ، ولا تَلَاخِظَنَّ مُضْحَكًا ، ولا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، ولا تَنْهَبَنَّ نَفْرًا ، ولا تَظْهَرَنَّ غَضَبًا ، ولا تَأْتِيَنَّ بِدُخَا ، ولا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا ، ولا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا ، ولا تُفْرِطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ ، ولا تَدْفَعِ الْيَوْمَ عِيَانًا ، ولا تُغْمِضَنَّ عَنِ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ ، أوْ مَخَافَةً ، ولا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَكْثَرَ مَشَاوِرَةِ الْفُقَهَاءِ ، وَأَسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخُذْ عَنِ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعُقُلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّفْعَةِ وَالْبَخْلِ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا ، فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ نَسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّحِّ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا ، كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ ، قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنْ أُمُومِهِمْ ، وَتَرْكِ الْجُورِ عَلَيْهِمْ ، وَيَدُومُ صَفَاءُ أَوْلِيَائِكَ لَكَ ، بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ ، وَحَسَنَ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ ، فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَإِنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿ وَمَنْ يُوَقِّعْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نَيْتِكَ حِظًّا وَنَصِيبًا ، وَاتَّقِ أَنْ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَأَعِدِّهِ لِنَفْسِكَ خُلُقًا ، وَأَرْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي دَوَائِبِهِمْ ، وَمَكَاتِبِهِمْ ، وَأَدْرِ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ ، لِيُدْهَبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاغْتَمَّ ، وَيَقُومَ لَكَ أَمْرُهُمْ ، وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبُهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ ، خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا ، وَحَسَبُ ذِي سُلْطَانٍ مِنَ السَّعَادَةِ ، أَنْ يَكُونَ عَلَى جَنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، رَحْمَةٌ فِي عَدْلِهِ وَحِيطَةٌ وَإِنْصَافُهُ وَعِنَايَتُهُ ، وَشَفَقَتُهُ وَرِثَتُهُ وَتَوْسِعَتُهُ ، فَزِيلْ مَكْرُوهَ الْيَلْتِنِينَ ، بِاسْتِشْعَارِ تَكْلِمَةِ الْبَابِ الْآخِرِ وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ تَأْتِيَ أَنْ شَاءَ اللَّهُ نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ ، بِالْمَكَانِ الَّذِي لَيْسَ مِثْلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ ، لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تَعْتَدِلُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ فِي الْأَرْضِ ، وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ الرِّعْيَةُ ، وَتُؤَمِّنُ السَّبِيلُ ، وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومُ ، وَيَأْخُذُ النَّاسُ حَقُوقَهُمْ ، وَتَحْسُنُ الْمَعِيشَةُ ، وَبُؤْدَى حَقِّ

الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى تجارها يُنتَجَز الحق والعدل في القضاء. وأشدت في أمر الله وتوَرَّع عن النُطْفِ وأمض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وأبعد من الضجر والقلق، وأقنع بالقسم، وتُسَكِّن رِيحُك، ويُقَرِّجُ جَدَّك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، واسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقِفْ عند الشبهة، وأبلغ في الحجَّة، ولا يأخذك في أحد من رعيِّتك مُحاباة ولا مُجاملة، ولا لوم لائم، وتثبت وتأن، وراقب وأنظر، وتدبر وتمكِّر، واعتبر وتواضع لربك، وازأف بجميع الرعيَّة، وسأط الحق على نفسك، ولا تسرعن الى سفك دم، فان الدماء من الله بمكان عظيم اتهاكاً لها بغير حقها، وأنظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعيَّة، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهلها سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معادتهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعموم فيه، ولا تدفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن غنى لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمراً فيه شَطَط، وأحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق، فان ذلك أجمع لأُفْتِهِمْ، وألزم لِرِضَى العامة، واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً، وراعياً، وانما سَمَى أهل عملك رعيِّك، لأنك راعيتهم، وقيمتهم، تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوهم ومقدرتهم، وتُفَقِّه في قِوام أمرهم وصلاحهم، وتقوِّم أودهم، فاستعمل عليهم في كُورِ عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة والعفاف، ووسَّع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت، وأُسند اليك، ولا يسئلك عنه شاغل، ولا يصرفك عنه صارف، فإنك متى أثرته، ووقت فيه بالواجب، استدعيت به زياده النعمة من ربك، وحسن الأحداث في عملك، واستجرت به المحبة من رعيِّك، وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحياتك، وظهر الخصب في كورك، وكثر خراجك، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جنسك، وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من

نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ، ذاعل وقوة ، وآلة وعدة ، فنافس في هذا ، ولا تقدم عليه شيئا ، ثم مد مغبة أمرك ، ان شاء الله ، وأجعل في كل كورة من عملك أمينا ، يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع ، والنصح والصنع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره ، قد واتاه على ما يهوى ، فقواه على ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك ، في جميع أمورك ، وأفرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أنرت ، وأعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه ، واذا أنرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فاذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم آستيقن صفاء طويتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم ، وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤوتهم وأصلح حالهم ، حتى لا يجدوا خللتهم مسا ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرضهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، وأجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداءً بأمر المؤمنين أعزاه الله فى العطف عليهم والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجر للأمرء من بيت المال ، وقدم حمة

القرآن منهم ، والحافظين لأكثره ، في الحرابة على غيرهم ، وأنصب لمريضى المسلمين دورا
تؤويهم ، وقواما يرقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ، ما لم يؤد ذلك
إلى سرف في بيت المال ، وأعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم ، وأفضل أمانهم لم يرضهم
ذلك ، ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم ؛ طمعا في نيل الزيادة ، وفضل
الرفق منهم ، وربما يرم المتصفح لأمر الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل فكره وذهنه ، ومنها
ما يناله به مؤونة ومشقة ، وليس من يرضى في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل
وفضل ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقربه الى الله ، وياتمس رحمة به ، وأكثر الإذن
لناس عليك ، وأبرز لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، وأخفص لهم جناحك ، وأظهر لهم
بشرىك ، ولن لهم فى المسألة والمنطق ، وأعطف عليهم بحدودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط
بسماحة وطيب نفس ، وأتمس الصنعة والأجر ، غير مكدر ولا متأن ، فإن العطية على ذلك
تجارة مريحة ان شاء الله ، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا ، ومن مضى من قبلك ، من أهل
السلطان والرياسة ، فى القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم فى أحوالك كلها بأمر الله ،
والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك
وخالفه ، ودعا الى سخط الله ، وأعرف ما تجمع عمالك من الأموال ، وينفقون منها ،
ولا تجمع حراما ، ولا تُنفق إسرافا ، وأكثر مجالسة العلماء ، ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن
هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك
عليك من اذ رأى عينا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك اليك ، فى سر ، وإعلامك
ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك ، وأنظر عمالك الذين يحضرتك ،
وتكاتبك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك
سمعتك وبصرك ، وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر اليه والتدبر له ، فما كان موافقا للجزم والحق
فامضه وأستخر الله فيه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه ،

ولا تمنن على رعيّتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا
 الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك ،
 وتفهم كتابي اليك ، وأكثر النظر فيه ، والعمل به ، وأستعن بالله على جميع أمورك وأستخره ،
 فإن الله مع الصّالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضا ،
 ولدينه نظاما ، ولأهله عزّا وتمكينا ، وللذمة والملة عدلا وصلاحا ، وأنا أسأل الله أن يحسن
 عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته ، بتمام فضله عليك ،
 وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا ، وأوفرهم حظا ، وأسناهم ذكرا وأمرا ، وأن
 يهلك عدوك ومن نأواك ونهى عليك ، ويرزقك من رعيّتك العافية ، ويحجز الشيطان
 عنك ووساوسه ، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

(د) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المبايعين على الحق، والناصرين للدين،
من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمّد اليكم
الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله .

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العز والسلطان، والنور
والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلها، قبل
استحقاقهم لثبوته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً
هادياً لهم الى معرفته، بما أفادهم من الأبواب، التى يفهمون بها فصل الخطاب، حتى اقتنوا
علم موارد الاختبار، وثقفوا مصادر الاعتبار، وحكوا على مابطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما
حضر، وأستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومثقفين صنعته، وحاجة مترايل خلقه ومتواصله،
الى القوم بما يلزمه ويصلحه، على أن له بارئاً أنشأه وأبدأه، ويسر بعضه لبعض . فكان
من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم فى تصرف أحوالهم، وفنون انتقالهم،
وما يظهرون عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم؛ مع أثر
تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم، حتى صاروا الى الخلقفة المحمكة، والدورة المعجبة،
ليس لهم فى شىء منها تَلَطَّف يتمونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم؛ فإنه قال تعالى
ذِكْرُهُ: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمُ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا
شَاءَ رَجَبَكَ) . ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر
والنجوم مسخرات، على مسير لا يثبت العالم إلا به من تصارييف الأزمنة التى بها صلاح
الحرث والنسل، وإحياء الأرض، ولقاح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، وصر الأيام
والشهور والسنين التى تُنحصى بها الأوقات؛ ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات
السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه وألثامها، ونحو الأنهار، وإرساء

الجبّال . ومن البيانِ الشاهدِ ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه بعد أن لم يكن مترقياً في النّماء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثمّ تحايره مُنْقِضِياً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَسِحٌ عدد ولا مُنْقَطِعُ أمد ، ما ازداد ينشوء ، ولا تحيفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأنّ ما لا حدّ له . ولا نهاية ، غيرُ ممكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثمّ ما يوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كلّ شيء منه بما يسرّ له ، في بدء استمداده إلى منتهى نفاذه ؛ كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكلّ ما تقدّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بَنَى ، وأطباق الأرض التي دحا ، وآثارِ صنعه فيما برأ وذرا ، ثابتٌ في فطر العقول ، حتى يُسَخَّرَ أولى الزرع ما يُدْخِلُونَ على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والانداد . جلّ عما يُشْرِكُونَ . ولولا توحيده بالتدبير ، عن كلّ مُعين وظهير ، لكان الشركاءُ جُدرَاء أن تختلِفَ بهم إرادتهم فيما يَخْلُقُونَ ، ولم يكن التخلّف في إثباته وإزالته ليدخل من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاها وبرّاه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ؛ كما قال سبحانه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَبَّيْتَ كُلَّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَأَعْمَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . ثمّ من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه آفتقاده إياهم ، وأنه يُستدّهم ويُدلّهم على منافعهم ، ويُنَجِّبهم مضارهم ، ويهديهم لما فيه صلاحهم ، ويُرَغِّبهم في المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ، الذي جعله عِصْمةً لهم وحاجراً بينهم .

ولولا ما تقدّم به من تلافيمهم وأستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلّف ، لقصور معرفتهم عن التأتّي لأقواتهم ومعايشهم ، ولم يكونوا ليقْتَصِرُوا على حظوظهم وأقسامهم عما بنوا عليه من الجمع والرغبة ، ولتألّكوا بئني بعضهم على بعض ، وعدوان قوِيّهم على ضعيفهم ، ولكنّه بعد تعريفه إياهم مُلك قدرته وجلالة عزّته ، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ،

بِالآيَاتِ الَّتِي لَا تَنَالُهَا أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ ؛ فَرَضُوا بِمَا قُسِطَ بِهِمْ ، وَارْتَدَعُوا عَنِ التَّبَاغِي وَالنِّظَالِمْ ، لَمَّا وَعَدُوا مِنَ الثَّوَابِ الْجَسِيمِ وَخُوفُوا مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ ؛ وَلَمْ يَكُونُوا لِطُغْيَانِهِمْ أَمْرًا لَأَمْرٍ وَلَا نَهْيًا لِنَهْيٍ ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَتَّبِعِينَ بِهَا الْحَقُّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَحْوِيلٍ يَتَّقُونَ بِهِ مُقَارَفَةَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرَجَاءٍ يَتَجَسَّمُونَ لَهُ مَوْثِقَةٌ مَا تُعْبَدُوا بِهِ . فَافْتَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَيِّهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ — كَمَا اقْتَضَى فِي وَحْيِهِ الْمَنْزِلُ — وَكَرَّمَ وَلَدَهُ وَفَضَّلَهُ ، فَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ . وَجَعَلَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعُطْفِ عَلَى ذُرَارِيهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ سَبِيلًا لَمَّا أَرَادَ مِنْ بَقَائِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ ، وَمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ حُجَّةً عَلَيْهِمْ ، لِيَتِمَّ طَاعَتُهُمْ ، وَيَتْلَوْهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . وَلَمْ تَزَلْ رُسُلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى خَلْقِهِ تَتَرَى بِالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالْبِرْهَانِ الْقَاطِعِ ، لَا يَجِدُونَ لَمَّا يُورِدُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْقَاهِرِ مَرَدًّا وَلَا مَدْفَعًا ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ يَخُذُوهُمْ بِالْأَيْدِي فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فَلَمْ يَجِدِ الْمَكْذُوبُونَ مَسَاغًا إِلَى دَفْعِ مَا أُقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنْ لَازِمِ الْحُجَّةِ ، إِلَّا الْمَعَانِدَةَ وَالْمُجَاحَدَةَ . وَكَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يُعْتَمِدُونَ فِي أَعْصَارِ الْحَقِّبِ ، نُذْرًا لِلْآمِ ، حَتَّى خَتَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَعَثَهُ فَرْدًا وَحِيدًا لَا عَاضِدَ لَهُ وَلَا رَافِدَ ، إِلَى قَوْمٍ يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا بُكْرًا ، وَحِجَارَةً صَمًّا ، فَكَذَّبَ بِهِ الْقَوْمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ أَوَّلَ مَا دَعَاهُمْ ، وَرَامَهُ مَلُوكُ أَقْطَارِ الْبِلَادِ بِتَوْجِيهِ الْأَجْنَادِ ، وَمُرَافِدَةِ الْقُوَّةِ وَالْعِتَادِ وَبَنِي الْغَوَائِلِ ، وَنَصَبِ الْحَبَائِلِ ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . ثُمَّ جَاهَدَ بَيْنَ أَطَاعَةِ مَنْ عَصَاهُ ، وَبَيْنَ اتِّبَاعِهِ مَنْ خَالَفَهُ ، حَتَّى أَعَزَّ اللَّهُ كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَأَكْمَلَ لِعِبَادِهِ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ . فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا لَدَيْهِ ، وَاخْتَصَّ بِهِ عَنْدَهُ : مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَالْجَزَاءِ الْكَرِيمِ ، بَعْدَ اسْتِقَامَةِ الدِّينِ

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه وُحْمته، لإقامة الشرائع المُفترضة، وإنفاذِ حُكْمِ الله المنزل، واقتفاء السُنّة الماثورة وحفظاً له في قرابته ومجيبى دعوته، وإتماماً لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازاً لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذى أصطفاه وأرتضاه. وكان اختيار أولى الفضل من حُجْمته وعصبته لإرثِ خلافة، ومن عظيم الزُلف التى رغب الى الله فيها أنبيأؤه، وبما اقتصّ فى مُنزلِ وحيه، واختص تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودّته فى القربى جزاءً ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيزة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إليّاهم وإذهابه الرجس عنهم، على أصطفائه لهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حقّ الوراثه فى محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرّن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلّهم من النباهة والصبيت بالمحلّ الذى أعلّى به أمرهم ورفع به ذكركم، لما أحب من النبيين فى الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الأئمة المُقلّدون أمرَ عباده خاملةً أنسابهم، متقطّعةً أسبابهم، غير مخصوصين بفضيلة يروّنها بها دون غيرهم، لم تعد طليبتهم عقْدُ الخلافة لهم، وأن تكون من المُفترضات على كافّة الأئمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس فى أجتماع آرائهم مع تفرّقهم واختلافهم طمعٌ آخر أيام الدهر. وإن كان الى خاصية دون عامية، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى منسل ما احتاجوا اليه فى أئمتهم، إذ لم يكن أهل الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق،

لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد في الفحص والتكشيف ، وحاجتهم الى اختبار
البلدان ، وتمحيص أوّل الفضائل بالامتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم ،
والاختلاف فيمن عَسَوْا أن يَحْتَبُوهُ وَيُقَدِّمُوهُ ، حتّى تهالك الرعيّة بتظالمها بينها ، ويَطْرُقُ
مَنْ يَليها من الأمم إياها ؛ إذ لا ذائد عنها ولا مُحامى . فإذا ألزمت الأئمة الحاجة إلى
نصب الحُكّام لإقامة الدين ، وتقسيط الحقوق من المسلمين ، ومُجاهدة عدوهم من
المشركين ، لم يكن لهم في الإمام عليهم بحارٌ إلى التخلص من حقه إليهم ، ولا ريب
عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، في دفعه عن عباده ما لم يجعل في حيلتهم له
وُسْعاً ، ولا في حيلتهم له دَرْكاً ، وكفايته إياهم ما يُعْجزهم من البحث والتنقيب عن ولاية
أمرهم ، بنصبه إياهم ، وما رفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها ، إذ وصل نسبهم
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرض موتهم على خلقه ، ولم يَشْنِهم جهلهم للغرض الذي
لزمهم له ، ولم يَجِبْ عليهم فرضٌ في معرفة من سواهم . ولم يزل سياقُ أئمة الهدى مُطَرِّداً ،
ونظامهم مُتصلاً ، يتلقاه كابرٌ عن كابر ، ويؤدّيه أول الى آخر ، حتّى تنهى الى أمير
المؤمنين ، وهو حالٌ دار دعوته ، وبين أنصاره من أهل خراسان ، فنظر به خيرهم ، وعرفوا
ما تصرفت به أحوالهم ، وظهر لهم من بيان حجّته على من نازعه في الأمر ، وشاهدوا من
إبلاغه في العذر ، وأستظهاره بالتأقّي والصبر ، ما أزاح عنهم الشبهة وكشط الحيرة ، حتّى
استرلوا نهوضه بحقه ، وخافوا الزيف على أديانهم فيما أعطوه من صَفقة إيمانهم ؛ وهو
ماضٍ على عادته ، مستديمٌ للوادة ، مُتَلَوِّمٌ على المراجعة ، بالغ غابة ما في وسعه من الرخصة
في دفع الولاية التي نهته بها الرعيّة ، حتّى ضاق عليه في دينه ترك القيام بما أنهضه الله به
من ثقلها وقلده من حملها ، وخاف المخلوعُ فأنبتت بالشرّة والغرّة ؛ فتناول أولياء الحق باغيا
طاغيا ، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحجة التي يَجِبُ لها قلبه ، ويُفَتُّ بها
في عضده ، ويقبل الله ما شرفكم به من النصر والغلبة فيه التي جعلها الله للتقين . فاجتمع

لكم معشر أهل خراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث خلال اختصكم الله بفضيلتها، وسني مراتبها، دون ثلاث شملتكم وغيركم .

أما الأولى من اللواتي خصكم الله بهنّ ، فما تقدّم لأسلافكم من نصرة أهل بيت النبي، والقائمين بمراتبه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نصرته في دعوته الثانية .

وأما الثالثة ، فما تقدّمتم به من صحة ضمائرکم، ومحض مباصحتكم .

وأما الثلاث اللواتي هنّ لكم ولغيركم :

فهنّ ما أكد الله لأمر المؤمنين في أعناق المسلمين : من العهد الذي أخذ إصره ، وألهمهم الوفاء به والتمسك بوثائق عصمته، عند محاولة الخلويع ماحول من الإعلان بالردة، وآتمس من تبديل معالم الدين وتغفية آثاره ، فلم يُلَفِ الرعية سُدى مهملين، لا جامع لأمرهم، ولا ضامّ لنثرهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإياهم من العبر، عند حلول الغير بمن غدر وخرّ، تذكرة لأولى النُهي ، وحجة بالغة على من أدبر وتولّى، ليتهدى متحيّر ويتعظ مُزدجر، ﴿ وَلِيُحْصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَقِّقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ اجتماع أهل الفضل من المسلمين : ممن لم يكن له نصرو ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية؛ فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمُصرين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غار أو أنجد من المتمسكين بذيهم الموفين بنذورهم، من إخوانكم؛ وإن كان الله قد قدّمكم في الأمرين جميعا بتفوق حالكم على غيركم، يعتدون من معاضدتكم ومكانتكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم ومودة بينكم ، بيد بها ما كان الشيطان يترغ به بين أهل التباعد في الأنساب، والتناؤ في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء ، والانطواء على الأحقاد والدمن، وطلب تقديم الإحن ، وصار أهل السمو الى الدرجة العليا والاعتصام بالعروة الوثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته ، منشرحة صدورهم بمكانته، مُنبسطة أيديهم بمعاونته على حقه ،

منفسحة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخان في بلاده وأفتاح ممتنع حصونه ، بما جمعهم الله عليه من الألفة ، ورفع عنهم من الحمية والعصبية ؛ راجين عودتهم الى أحسن ماضى عليه سلفهم ، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سلامة الصدور ، وصلاح ذات البين ، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم ؛ قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب ، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض ، زيادة في ريجهم ، وحدًا في شوكتهم ، لائتلافهم في دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الضمائر ، ونفاذ البصائر . وإلى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نيته ، وتبليغه منتهى سؤله وغاية هيمته ، في اعزاز دينه وإذلال من صد عن سبيله ؛ إنه سميع قريب .

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكّر ما كانت عليه الحال قبلها ، فاستديموا الإفاضة فيما رفع الله من خصاصكم وأعلى من أقداركم ، بنصرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبلاكم الله في الدعوة الأولى مما لا يؤدى حقه إلا بعون الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه ، فأنا لهم رغائب الأقسام وسني الخطوات ، ورفع درجهم ودرج خلوهم وأعقابهم من بعدهم ، بعد إذ هم مستضعفون يخافون أن يخطفهم الناس ، مذبذبون بقهر عدوهم واستثثاره عليهم ، ثم لم يلبثوا أن صاروا الى الحال التي يرونهم بها من الغبطة والبهجة ، إلا أنهم أخذوها بحقها ، وكانت في أيدي الظلمة من أهل بيت اللعنة وأتباعهم بحسنه الباطل ومحنة الابتلاء ، لا وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز^(١) . وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما ألبس من النعمة ، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها ، بل الذي يلزمكم استدائها والقيام بحفظها ، على حسب ما أولاكم الله منها ، فربما كان الذي يعقب أهلها من الغفلة والاعتثار ويُلهمهم بها من حبورها وسرورها ، أعظم إثما وحوماً . مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر ، لما يستولى عليهم من استكانة الذلة ، والاعتثار بالتقصير ، والفرع الى رهيم في تفتيس كريبهم ، فإنه

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ . فحاجتكم اذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطليبتكم ، الى حياطة ما أودعكم الله من مننه وعِراسه ما آتاكم من فضله ، بالشكر الممتري للزيد . فتعهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسم بتذكروا ما سهل الله لكم من الحزونة ، وذلل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُراق الملة ومُخالف أهل القبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ؛ فأصبحتم بمنّ الله عليكم حُمّة الدين ، وأنصار الأئمة الراشدين ، وحصون كافة المسلمين ، بعد ما آجست الله بكم قرونّ الفُراق ، وأباد بكم صناديد الضلالة ، وشرّد من لم تستحمله سيوفكم ، وأضرع اليكم من أذعن وأستسلم ، وقد استشرفكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشنآن ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمافسة ، فبين ذلك مُجهرٌ مُعَالِنٌ ، ومُستسرّ مداهن ، وداخلٌ في عدادكم ، وواحدٌ في سوادكم ، يرى أُمّنه بين ظهوركم ، فطعنه عليكم في دولتكم بريية التويه وخُدّع التشبيه ، أيسرُ عليه كُلفةٌ وأعظمُ فيكم جرحاً ونكايه ؛ فتوقوا هذه الطبقة أشدّ التوق ، فإن أكثر من يلجأ الى استباحة الحيلة ، من عجز عن المباداة والإصحار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يَحْتَرِزُ من لطيف الخُدع وخفيّ الاستدراج .

وأحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطراء ، والركون الى راحة الدّعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبه طول الندم والحسرة ؛ فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم ، والخوف لبائقة متيقظين متحفّظين لما كان يروؤكم به من خنله وحيله ، ثم أفضيتم الى الجحّ وقد جهدكم السعى ومسكم النصب ، وسيلق الشيطان في أمانيتكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويجد من ضَعَفَ العزائم مُعينا داعيا الى اغتنام الخفض ، والإخلاد الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتبار ، وتمتّلوا مواضى الآثار فيمن سلف من القرون الخالية ، وما أفضت به اليه العزّة من زوال النعم ووقوع الغير ، فإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مُرَّتَيْنِ بما ألزكم من حياطته واستمائه ؛ فقد وجبت عليكم الحجة بما حصّكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بما هداكم اليه ، وأراكم من آياته ومُثَلّاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإحذار والإنذار لكم . ومن أجمع له اقتناء صواب من تقدّمه الى ما ينبعث من نفسه ، فكأنّه قد اختبر بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستريد ما يفتح لُبه ورأيه ، وأيقنوا أنّكم لن تصلوا الى من سواكم ، ممن هو أَعسرُ طاعةً عليكم وأَعذرُ بمعصيتكم ، حتّى تبدءوا باستصلاح أنفسكم ، وأنّه لن يرجى لكم القوة على مجاهدة عدوكم حتّى تقووا على مجاهدة أهوائكم ، فإنّ على كل امرئ ربيّة من أمره ، وغطاء من غيبه ، لا يكشفه إلّا صحّة المعرفة ، والإذعان بالنّصفه ؛ فهناك يؤمن عليه الجهل والمعاندة ، وإذا أمنت هاتان الخلتان آنست بإذن الله تلم الآفات ، وفُتق المكاره ، فإنّه لا يُخاف الضلال على من أهتدى ، ولا اعتماد الجور على من آنّصف من هوى .

ولكن أوّل ما نتعهدون به أنفسكم ، وتنابرون عليه من صالح أدبكم تناصّف الحق بينكم ، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودّة منكم وتفخيم أمركم ؛ فقد علمتم أنّ منكم المبرز الفائت الذى لا يدرك شأوه ولا يوازى بلاؤه ، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مُشْتَبَهات الظنون ، فصرّح بالمحاربة بعد التقدّم فى الحجّة ، وفاءً بمؤكّد العهد وركوبا منه لهائل الخطر ، غير هائب مع صحبة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ورعد ، ولا مُستوحش فيما تقوّد به الى من تولى وأدبر ، حتّى أتى الغاية التى أبحر إليها فى الله عز وجل وفى خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكائفة والنصرة والحظ الجزيل والاثّر المبين ، نوابهم واجب وحقّهم لازم ؛ ثم منكم من يُحفظ أسلفه وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على اسان يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه فى أخلاقه التى يعاها ويحافظ عليها ؛ كما أنّه يرى ورانة التركة فريضة واجبة ، فيخلف السلف الصالح عنده من المزيّة والفضل ما يتلون به أهل الغناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من أقتدى [بهم] وأهتدى بهديهم . والسابق المتقدم من أعتد ببلَاء نفسه الى بلَاء سلفه ، ثم يتبعه بعدد الميلي بنفسه ، ثم يتلوها المتوسل بآبائه ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقةً فطبقة ؛ فليقتصر كل أمرئ منكم على المرتبة التي أحله بها سعيه ، وليسلك الى الأزدیاد فيها بالزيادة من نفسه ؛ فإن من الفتوق العظيمة على أهل الدول ما يترغ به الشيطان بينهم ، ويكثر عندهم ما يكون منه ، فيوافق من الحيف للأففس ما يجد به مساغا الى ما يروم من إيقاع الشحنة بينهم ، وتثبيت الإحن في صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرء لزمية من فوقه ، واغترباط من دونه كُفَى ماترك . وان تخلص نياتكم . وتسلم ضمائرکم ، حتى تمحضوا شكر ما أوليه إخوانكم ، وتعندوا ما نالهم شاملا لكم ، وتجانبا طريقة من اقتصر بأمنيته على خاصته ، وتعتب فيما أثر به أهل الفضل دونه . وكفى عظة فيما نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فَعَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية . ولا يلتمس أحد مودته عن سوء نية بحسن مداراة في طاهر ، فإن الله مقلد كل امرئ رتبة عمله ومطوقه طوق سريره . ولا يغدرت فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنما يغدر في حظه ويخس قسمه ، ويخس نفسه . ثم لا يقتصرن على استصلاحها حتى يتناول من كانت مئته عليه من أقربيه وحسويه ، فإن يسير ما هو معانٍ من ناديتهم لا ينشب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أفاصياها ، وقربها الى مئاهيها ، حتى يستفيض شاملا علما ، بعد أن بدا محلا خاصا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تفيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومجود السيرة ، ما لا يتفقد به من سواكم ؛ فإنه إن كان يُوجب على نفسه استصلاح الرعية وحماهم على ما فيه رشدهم وقوامهم ، لما يلزمه من فضل العناية بالأخص والأولى فالأولى ، فإن في أخلائكم من التقديم في التأديب والتعهد ، وجوها من الضرر : منها : أنكم أولى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، لطف محلكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون ويقتدي بكم التابعون ؛ ففى قصرتم وأخلتكم ، آفنى أثركم من نصبتكم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تزروا عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان قينا أن يكون يسومكم الرضا بمثل ما سمعتموه ، ثم تجرى هذه العادة فى الطبقات ، حتى يطرد السياق ، الى أن يستفيض الفساد فى حشو الناس وعامتهم ، فلا تغنى قوة ولا حزم ولا شدة ، إلا العجز والاضاعة ؛ ثم يجد الأعداء مَساغَا الى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن يهقوكم ويستولي عليكم الفشل ؛ فإن الأيدى إنما تُنسط بنهاذ العزائم ، والعزائم إنما تُنفذ بثبات الحجّة ، والحجّة إنما تثبت إذا كانت عن الحق . وإذا أضيع أول هذه الرسوم ، التى رسم لكم أمير المؤمنين ، تبعته تواليه وشقّعه لواحقه ، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة ، مَطْمَعًا فى إهمال ما كان يُعدّله من الغرة ، وبتوق به من ماهرة الفرصة ، وليكن ما تُفيضون فيه وتعدّونه ظهيرا على طاعن إن طعن فى دولتكم ، ما ألهم الله أمير المؤمنين : من شمول رعيته بالعدل ، وفرش الأمر فى مضمراتها ومتقلّباتها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسط به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمّد الجرائم لأولى الزلّ ، والإبلاغ فى دواء من عاند وشاقّ الى التوبة والإنابة ، وإقالة العثرة بعد القدرة ، والحقن لمباح الدماء ، فلم تعلموه صبر محملا ، ولا هتك لأحد ممن أظفره الله به سترًا ، ولا وقفه على عورة . ثم تولّى الله أمير المؤمنين ، فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطباب فى وصف صنع الله لكم فيها ، لاستفاضة أخبارها فى دماءكم ، مع ما أحبّ من مطالعته إياكم ببالغ أدبه وشفاف عطفه ، أن ينتكب من الإسهاب ، فى غير ما صمّده ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم ، اوعى ما التمس أن تعوه من تبصيركم حظكم ، وتبهيكم على رشدكم . وحسب أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإن أمير المؤمنين مع ما تقدّم به اليكم لعلّ نقة من حياطة الله حلاقته التى جعلها عزرا لدينه وقواما لخلقّه ، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقاها فضلا بل من خلع ربقتها وأضاع حظّه منها ، جلب الخلة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة . وإنما أتى

المُقَصِّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ ضَعْفِ الرِّوَايَةِ عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ الْعَوَاقِبِ ، وَتُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ بِعَمَلِهِمْ غَيْرَ مُتَجَاوِزِينَ بِهِمْهُمْ ، وَفِيهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَمْنَعُهُ ^(١) .

وَأَسْتَدِيمُوا مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ سَابِغَ النِّعْمَةِ بِمُحَمَّدٍ مُوَلِّيَهَا وَالْمُتَطَوِّلَ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ قَبْلَهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالٌ مِّنْ سُلْبِهَا ؛ ثُمَّ يُعْقِبُ النَّدَامَةَ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نَظَرَةٌ يُمْكِنُ فِيهَا اسْتِقَالَةُ الْفَارِطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا هَفْوَةٍ زَلَلٍ . وَثَقُوا مِنْ رِيَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ آتَارِكُمْ ، وَمَا مَضَى مِنْ بَلَاءٍ كُلِّ أَمْرٍ مِنْكُمْ ، بَمَا نَطْمِئِنُّونَ إِلَيْهِ وَنَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، بِأَسْنَى مَا تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ آمَالُكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ هَمَمُكُمْ ، إِلَى مَا يَدْنِحُ اللَّهُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِدَاهُ ، وَاعْتَصَمَ بِتَقْوَاهُ ، وَجَاهَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَافِيَ بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ مَأْبِهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ : وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَهَّدَكُمْ بِعُظْمَى تَنْبِيْهِكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ ، وَتُنْبِتَ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ، وَتَقْطَعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَحَرِيهِ فِيكُمْ ، لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِكُمْ ، وَيَرْجُو مِنْ تَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيكُمْ ، وَلِمَا يَرَى مِنْ أَنْصَالِكُمْ بِحُبِّهِ ، وَمَا بِشَمْلِهِ مِنَ الصَّنِيعِ فِيهَا وَلَا كَمِ اللَّهِ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُ لَكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِسَالِ اللَّهِ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلًا ، وَتَكْفُلُ بِالْإِجَابَةِ حَتْمًا ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : *رَأْدَعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ* ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِصَاةِ أَلْفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَى الطَّاعَةِ حَبْلُكُمْ ، وَأَنْ يُمْتَعَكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَسْهٍ ، وَبِوَرَعِكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شَكْوَى ، مَا يُوَاصِلُ لَكُمْ مَزِيدَهُ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسَدَ الْبَاغِينَ ، وَيَحْفَظَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ مَا حَفِظَ بِهِ أَمَامَ هَدَى فِي أَوَالِيَّائِهِ وَسُيْعِيهِ ، وَيَجْمَلُ عَنْهُ نَقْلَ مَا حَمَلَهُ مِنْكُمْ . وَبِاللَّهِ يَسْتَعِينُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَسُوْى مِنْ حَرَائِكُمْ بِالْحَسَنِ ، وَحِمَايَكُمُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، وَبِهِ يَرْضَى نَاصِرًا وَوَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى باللهِ نَاصِرًا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وللأُمون — لما كتبت اليه السيِّدة زُبَيْدة بعد مَقْتل ولدها الأُمين خطابها
الآتي تستعطفه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلَلٍ وَإِنْ جَلَّ
حَقِيرٌ عِنْدَ صَفْحِكَ . وَذَلِكَ الَّذِي عَوَّدَكَ اللَّهُ ؛ فَأَطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ نِعْمَتَكَ ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ ،
وَرَفَعَ بِكَ الشَّرَّ .

هذه رُقعة الوَالِيَةِ التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات بلجمل الذِّكْرِ . فَإِنْ
رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ ضَعْفِي ، وَأَسْتَكَانِي ، وَقَلَّةَ حِيلَتِي ، وَأَنْ تَصِلَ رَجَائِي ، وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكَ
اللَّهُ لَهُ طَالِبًا وَفِيهِ رَاغِبًا فَافْعَلْ ، وَتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعِي إِلَيْكَ .

فكتب اليها المأمون :

وَصَلَّتْ رُقْعَتُكَ يَا أُمَاهُ ، أَحَاطَ اللَّهُ وَتَوَلَّى بِالرَّعَايَةِ ، وَقَفَّتْ عَلَيْهَا وَسَاءَنِي — شَهِدَ
اللَّهُ — جَمِيعُ مَا أَوْصَحْتَ فِيهَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ نَافِذَةٌ ، وَالْأَحْكَامَ جَارِيَةٌ ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةٌ ،
وَالْمَخْلُوقُونَ فِي قَبْضَتِهَا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالدُّنْيَا كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ إِلَى مَمَاتٍ ،
وَالْغَدْرُ وَالْبَغْيُ حَتْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَكْرُ رَاجِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أَخَذَ
لَكَ ، وَلَمْ تَفْقِدْ تَمَنٍّ مَضَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَجْهَهُ . وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مَا
تَخْتَارِينَ ؛ وَالسَّلَامُ .

(هـ) أحمد بن يوسف^(١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المنظوم والمشهور وهي :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علما، ونطق به خبرا، وأتقنه حكمة وعلما، وألف بين مختلفه ومختلفه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومبتدعه، وانه أحد صمد، لا يضد له ولا ند، إذ قدر له حاجته ثم شدها ببلاغها الى الغاية التي جعلها، فقال جل وعز ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، وحكى عن نجيّه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقال الله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم بجزيل الحظ في دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، وأتساع قدرته بالتطول عليهم، ففنتحنا وخاتما، وبدئا وعائدا .

والحمد لله الذي أصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، نبيا لرسالته، وأتمته على وجهه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدى الى خلفه الرسالة . وأستفدّهم من الضلالة، وصدّع بأمر ربه وجاهد في سبيله، ونصح لأئمة حتى أتاه اليقين من ربه، بعد أسناره الحق . وظهور الحقبة، فصلّى الله عليه بتسيرا ونذيرا، وداعيا الى الله يذنه وسراجا ميرا قد نلّفى من الهلكة، وجمع الألفة بعد الفرقة، وأوضح الهدى بعد الدروس، ومعالّم الرشد بعد الظلموس، وكان بالمؤمنين رحيا .

والحمد لله الذي فقى على آبار المرسلين، والأئمة الراسدين، الهاديّ التقي، الطاهر الزكي، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعز الله نصره، فسّد لهمتهم، ورأب صدعهم وقلده خلافتهم، وجعله لكافة المسلمين غيانا ورحمة، وجعل له أئمة من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتناه عنه في الفصل العاشر من الكتاب المثلث في المحل الأول .

اليهم ، مِنَّةٌ عليه ورحمةٌ ذَنَرها له ، دون الخلفاء قَبْلَه ، فبما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة ، وسياسة من تقدَّمه ، ومنح الرعيَّة من عطفه ونظَره ، ما لا يحمل عنهم أوبه ولا يؤدى عنهم شكره ، الا هولا شريك له ؛ وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثوبته ، على صِلَّة رَحم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى هى رَحمه وقربته ، واختياره لولاية عهده الأمير الرضى على بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضى محبته ، وعرف استقلاله ، بما قلده فى هديه ، ودينه ووفائه ، بما أكَّد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيَّده الله ، فى اعتيابه من ازره وأساه بما شَفَع رأيَه ، وأنفَذ تدبيره ، حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله ، من أمور عبادِه ، لما أنتقى القائم بدعوته ، ورئيسَ شريعته ، الأمير ذا الرِّياستين رحمه الله ، فاتَّخذهُ مكَانِفًا ظهيرا ووزيرا دون من سواه ، فاتَّبع مِنهاج أمير المؤمنين أيَّده الله ، وسار بسيرته ، شرقا وغربا ، وغورا ونجدا ، مُوفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفيا لاثَره وسُنَّته ، خَسمَ الله به الأعداء ، وقَعَ به الأعداء ، من عُناة الأمم ، وطواغيت الشُّرك ، وأباد على يده ، أهل الشَّقاق والنِّفاق ، فى كلِّ أَفُقٍ وطَرَف ، بجِدِّ أمير المؤمنين أعزَّه الله ، وبركة سياسته ودولته ، ونُجَح سعى من قام بُصيرة من قام بحقه ، وأُناز برهانه ، حتى توفاه الله عز وجل ، حين بلغ همتَه وغايته ، وحَمَّ أَجلَه ، وأنفطعت مدَّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه أكرمه الله ، وعند الخاصَّة والعامة ، وكان من إجلال أمير المؤمنين ، الحادثُ الذى نزل به ، فأحيا آثاره ، بوصف محاسنه ، فى مَشاهدِه ومَجامعِه ، وترحمه عليه عدد ذكروه ، وحِفْظَه فى نُحْمته ، وأهل حُرْمته ، وفيمن كان يحمده الله على طاعه ونصيحته ، ما أتمَّ به نعمته ، عندنا وعندكم معشر الشيعة ، فقد أصبح أمره بكم منصلا ، وموفيه من جماعكم متمكنا ، نصيضم ماقبضه ، وببسطكم ما بَسَطه من لومة المصيبة ، وحسن العُقبي ، وقد علمتم معسر أهل الجحجحا والنهى ، والطاعة لله عز وجل وحابقتَه . ودوى الغناء واللَّاء فى دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضرتمن آمتمن الله قابسه بوباء العهد والاسنبصار فى حقِّ أمير المؤمنين أبقاه الله ، والمجاهدة دونه ، والصبر على مواطن الصِّدق والآلاؤاء ، والدَّبَّ عن البيضة والحريم ،

والمتحملين للتَّصَبُّبِ، والمصائب التي آنَجَلَتْ، حتى كأن لم تكن، ويبقى أجراها على الله عزَّ وجل، ومحمودُ ذكراها شائعا في الناس، إن نِعَمَ الله، قد جَلَّتْ وَلَطُفَتْ، وَخَصَّتْ وَعَمَّتْ، وَعَلَتْ وَسَمَقَتْ، وَتَمَّتْ وَدَامَتْ، حتى قَصَرْنَا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ الى مكافأة بِلَانِهِ بالعمل، فنحن جُدْرَاءُ أن نجتهد في القول، ونُطِيب في الوصف إن شاء الله جَلَّ وعزَّ، فقد جعل ذِكْرَ النِّعَمِ من أسباب الشكر، وقد جَدَّدَ لنا أمير المؤمنين أيَّده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحِيطَة، وَسَنَى الرِّبَّةَ التي قُرئ بها عليكم كتابه ما يَسْتَغْرِقُ جَهْدَنَا، وَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَنَا، فَنَرْغَبُ الى الله عز وجل، وَلِي الرِّبَّةِ، وَمُؤَنَى السُّؤْلِ وَالطَّلْبَةِ، وَإِعَانَتَنَا عَلَى تَأْدِيَةِ مَا وَجَبَ لَهُ، فِيمَا مَنَحْنَا مِنْ فَوَائِدِهِ وَتَمَحَّلِهِ، ثُمَّ نَسْتَرِيدُكُمْ وَنَسْتَعِينُكُمْ عَلَى شُكْرِهِ، وَإِمْدَادَنَا بِمَا بَلَغَتْهُ طَاقَتُكُمْ فِي السَّعْيِ لَهُ فَقَدْ آدَنَّا ثِقْلَ مَا حَمَلْنَا، وَثِقَلَ مَا طَوَّقْنَا، وَعَظُمَتْ فَاقَتُنَا إِلَى اسْتِمْعَالِ الْقَوَى مِنْ الْأَنْفُسِ وَالْحَامَةِ، وَالْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فِي جَزَاءِ مَا جَلَّلَ أمير المؤمنين فينا مِنْ سُنَّتهِ، وَشِمَانِهِ مِنْ تَالِدِ أَيْدِيهِ وَطَارِفِهَا، وَقَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا، وَكَيْفَ يُوجَدُ إِلَى مَوَازَاةِ أمير المؤمنين سَبِيلَ بِيْذِلِ جَهْدٍ، أَوْ بُلُوغِ حَشْدٍ، فَإِنَّمَا نَقْدِي هُدَاهُ، وَنَعْشُو بَنُورَهُ فِي دِينِنَا، وَلِبَسِ تَعَزُّزِنَا عَنْ أَنْ نَحْزِي حَقَّهُ، بِوَضِيعِ عَنَّا مَوْوَنَةِ الدُّوْبِ فِي التَّحْزِي لِتَأْدِيَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ أَخْبَرَ بِفَضَائِلِ الشُّكْرِ وَمُنَاقِبِهِ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَسْمَائِهِ: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ». وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: «مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ سَكَرْتُمْ وَأَمْنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا». وَهَذَا تَعَالَى: «إِنْ قَرِصُوا اللَّهَ قَرِصًا حَسًّا بُضَاعِفَهُ أَكْمَ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ». وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَضِيَهُ لِمَسَّهُ، لِأَجْلَلِنَاهُ عَنْ التَّسْمِيَةِ إِذْ كَانَ أَكْثَرُ مَا نَسْتَعْمَلُهُ، وَنَعْرِفُهُ فِي مَكَافَاةِ مَنْ مِنْ وَتَطُولُ، ثُمَّ نَحْنُ بِذِكْرِ فَضْلِهِ فِي الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَفْتَحَ أَوَّلَ مَا عَلَّمَ حَاقِقَهُ بِالْحَمْدِ، وَحَمَلَهُ بِدُءِ كِتَابِهِ، وَخَاتَمَهُ دَعْوَهُ أَهْلَ جَنَّتِهِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَمَنْ بَرًّا وَذَرًّا فِي الْحَمَاءِ آيَنُوا عِبَادَهُ بِسُكْرِهِ، وَأَعَدَّ الْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ سُكِرَهُ، وَالنَّارَ لِمَنْ كَفِرَهُ. وَهَذَا تَعَالَى: «وَإِذَا تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّكُمْ لَخَالِفُونَ».

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)) ، وقال الله تعالى : ((وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ)) ؛ فجعل التقوى واقعةً ، والشكر مرجواً ليدل على ارتفاع رتبته ، وعلو درجته عنده ، وقال لنبيه موسى عليه السلام : ((إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي نَحْنُ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)) . فلم يكلفه الا أخذ ما أعطاه ، والشكر على ما أناء ، وأخبر بعزته في العباد ، فقال تعالى : ((وَقِيلَ لِمَنِ عِبَادِي الشُّكُورُ)) ، فأية نعمة أجل قدراً ، وأسمى أمراً ، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين ، أيده الله ، عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التي رتبها بها ، فإنه أعطاه رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على رأسهما علماً في رواية دعوته ، وقلده سيفهما وختمه بخاتم الخلافة ، وخاتم الدولة ، وجعل صلته بين صاحب حرّسه ، وصاحب شرطته ، ومسيره بين أمير المؤمنين وبنيهما ، أمامه وخلفه ، وصيّره الجلوس على الكرسي بحضرته ، في صدر كل مجلس جلس ، الا أن يؤثر به من أحب من أباء الخلفاء ، وقدمه في دخول دار الأمير راجباً الى أقصى مكان يتنهي إليه أحد من بني هاتم ، لأنه منهم ، وأعظمهم غناء عنهم ، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه وبابه الذي يدخل اليه منه ، وولاه خيوله في أقطار الأرض ، ومقدمته بحضرته ، وقلده من الثغور ما قد علمت ، بما أفرد في عهده ، الى ما أنفذ من أمره ، في جميع سلطانه ومملكه ، من مشارق الأرض ومغاربها ، وأين يأتي الوصف على ما فضله به ، وقدمه وشرّفه على الناس كافة ، ولكنا نخشى بذكره ، ثم نكل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى غسله وتكفينه ، ومباشرة لجهازه ، الى حفرة بيده ، وقاسى من الغصص ، وبرحاء الحزن ، وإدراء العبرة ، وإراقة الدماء ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه ، من الحكم ، وحفظ أهل الحرمه ، به رعاية له فيهم ، ووفاء بعهد من بعده ، وأقرّ حاصنه ، وقواده ونعماله . وكأبه على مرانهم ، وحيد بمجده ، وذم بذمه ، وجدد بحسده ، ونل كريتته ، نظراً وعطفاً ، فلم يبق عليه في إحياء ذكره ، وبلوع كل ما يحبه في حياته غاية الا أتى من ورائها ؛

وأمر بقراءة قُتُوحة ، كما كانت تُقرأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدّم من سَعْيهِ ، وأخبر أنه كان سَبَّه ، والمفتّح به ، ووليّ محمد بن الحسن خلافته ، ونَصَّبه منْصِبِهِ ، وأقامه مُقامه الى أن جَدَّد العهد لي ، فاستخلفته على ما وليّ بحضرته ، ثم تَبَّعت كُتُبُ أمير المؤمنين ، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذى ألياسين ، بما لا يقارب التفضيل ، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغتم ، فلم يكن يرى وراءه مجارة ، ولا فوقه مَصْعَدًا ، حتى جَدَّد لنا من كرامته ، ما قد قُرئ عليكم فى كتابه ، فبلغ بنا ما لم تكن الهمم تبلغه ، والأمانى تُحيط به ، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقى فى الفضل ، الى ما تَتَحَيَّر من دونه الأبصار ، وتنقطع دونه الآمال ، وإنما أقتصصناه وذكرنا ما أبلانا وأصطنع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل ، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيته والنظر بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَّة المروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر لِلَّيْن ، ورعاية الأخلاق الحمودة ، وإحطاء أهلها ، وإقامة سوقها ، حتى تنافسوها وتَسَاحُوا فيها ، وصارت هى الدَّرَاع الىه ، والوسائل عنده ، فلو تأمل متأمل أهل الرُّفَّة ، والأثرة لديه ، لو جَدَّ الأَخْص فالأَخْص ، والأعلى قدرًا عنده هو الأفضل دينًا ومروءة ، فلو لم يكن فى الحُظُوه عنده إلا إيجابها لصاحبها صحَّة المحبة ، والزهادة عن كل طَمَّة ، لكان فيها أعظم العِبطه ، وأعدل الشهادة والدلالة ؛ وسنقص عليكم بما أخبرناكم عنه مالا سبيل الى تحمده وإنكاره ، بوضوح معالمة ومنائره ، أو ليس المجاهد عن دين الله ، والحامى عن بيضة المسلمين ، والمُؤاتى لأغلظ عدوهم شوكه ، وأخوفهم عداوة ، والمنجى فى بلادهم ، بمن كان لا يرام ، ولا يُحاول لاستصعابه وشِدَّة مُقاساته ، حتى أذعن جينغويه بالعبودية له ، ثم أباح حريمه حين تمزّد عليه ، حتى بلغ السبى الى ولده ، وحاربوا به ، وبغلت خيولُه ، حتى توصات الى قُبْتِه ، ومنتهى عِزّه ، أو ليس مُسَكِّن النهيج بالمسرف ، حتى خَبَت النيران فيه ، وأذعن رؤساؤها وقادتها . أو ابس غازى بلاد بابل حين طغى أميرها ، وبذل ، ونكث ونهص ، حتى أَجْتُنَّت أرومته ، وأباح حريمه ، وأراح المسلمين من معرّته ، أو ابس سَادَّ الثغور ، ومَحْمَسَن

عَوْرَاتِهَا ، والمباشر لتدبيرها ، والمُسْعِدَا لِمُكَايِدَةِ الْمُتَجَحِّحِ فِيمَنْ أَرَادَهَا ، وَفَاكَ الْعَنَاءَ ، مِنْ رِقِّ
 الإِسَارِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ عَلَى فَقَرَاءِ الْمَسَامِينِ وَضُعَفَائِهِمْ وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ ، وَخَلَّةِ مِنْهُمْ ، وَقَاسِمِ
 الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعَامِرِ الْمَوْسَمِ وَمَحْصَنِهِ مِنَ الْآفَاتِ حِيَاطَةً لِلْمَسَامِينِ فِي حَجِّهِمْ ،
 وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ ؛ وَهَلْ أَقْتَرَنَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ مَا أَقْتَرَنَ لَهُ فِي الْمَلِكِ وَالِدَيْنِ وَالْعَزِّ ،
 وَالتَّوَاضُعِ وَالسَّعَةِ ، وَالْبَذْلِ وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعَفْوِ وَالْغُلْظَةِ ، وَالْيَأْنِ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَالنُّسْكِ مَعَ
 الْهَمَّةِ ، وَالسُّطُوَةِ مَعَ الْإِقَالَةِ ، وَهَلْ تَرَكَ مَعْشَرَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِخْوَانَ فِي الدِّينِ غَايَةً لَمْ يَسْمُ بِنَا إِلَى
 شَرَفِهَا ، وَعَلَى مَرَاتِبِهَا ، وَمُسْتَرَادِ الْخَطِّ فِي عَاجِلٍ وَأَجَلٍ ، لَمْ يَبْلُغْنَاهُ وَنَخْتَارُ لَنَا خَاصَّ مَكْرَمَتِهِ ،
 وَمُدْنَعَرٍ عَاقِبَتِهِ . أَرْشَدْنَا إِلَى الدِّينِ ، وَسَلَّكَ بِنَا سُبُلَ الْجَنَّةِ ، حَازَانَا الْمَلِكُ ، فَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ
 مَا مَلَكَهَا غَايَةً ، وَوَرَدَ بِنَا الْحُرُوبَ وَسَاسَهَا لَنَا ، فَلَمْ يَدَّعِ غَايَةً لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيبِ ، سُلْطَ عَلَيْنَا
 بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَنَاهُ فَلَمْ يَدَّعِ غَايَةً فِي التَّقْلِيدِ وَالْفَقْهِ ، فَكَمْ عَلَّمَا الْفَضَائِلَ ، ثُمَّ فَضَّلْنَا بِهَا ،
 غَلَبَ لَنَا الْأَمَمُ ، ثُمَّ خَوَّلَنَاهَا . عَلَّمَنَا طَرَائِقَ الشَّرَفِ ، ثُمَّ شَرَّفَنَا بِهَا . أَخْبَرَنَا عَنِ الْأَنْبَاءِ فَكَفَّاهَا
 مَوْزُونَةً اِتِّمَامِهَا ، وَأَغْنَانَا بِمَا عِنْدَهُ فِيهَا ، أَخَذَ عَلَى أَيْدِينَا الْخَيْرَ لِلرَّعِيَّةِ ، فَوَهَّبَ لَنَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ
 مَقَالَتَنَا عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، وَأَنْقَذَ أَمْرَنَا فِي التَّدْيِيرِ .

فِيَا أَيُّهَا الْإِمَامُ الْمَنْصُورُ الْمَهْدِيُّ الرَّشِيدُ خُزْنَ فَضَائِلِ الْآبَاءِ ، وَأَهْتَدَيْتَ بِهِدْيِ
 الْأَنْبِيَاءِ ، أَنْتَشَكَّرُكَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَأَنْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالنَّاصِرُ لِحَقِّهِ ، أَمْ نَشْكُرُكَ
 عَنِ الْأَمْصَارِ ، فَأَنْتَ الْمُفْتَتِحُ لِمَنْعِهَا عَنْوَةً ، وَالْمُنْتَطَوِّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمَنْعُطِفُ عَلَيْهِمْ
 بِحَسَنِ الْفَائِدَةِ بَعْدَ مَا هَيَّجَتْ مِنْكَ سُورَةُ الْغَضَبِ ، فَأَطْفَأَ نَارَهَا ، وَأَنْحَدَّتْ لَهَا ،
 وَعُدَّتْ عَلَى مَنْ سَفِهَ ، وَأَضَاعَ حِظَّهُ ؛ أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْمَسَاجِدِ ، فَأَنْتَ الَّذِي أَسَّسْتَهَا عَلَى
 الْقَوَى ، وَعَمَّرْتَهَا بِسَلَاةِ الْقُرْآنِ ، وَطَهَّرْتَ الْمَابِرَ وَرَكِبْتَهَا ، بَعْلُوهَا صَائِمًا ، وَتَنَطَّقُ عَلَيْهَا
 صَادِقًا ، وَتَدْعُو إِلَى الرُّشْدِ عَلَيْهَا نَاصِحًا ، وَنَحْمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ مُحْسِنًا ، وَنَتَلُو مِنْ قَوَارِعِهِ ،
 مَا تَصِيخُ لَهُ الْأَسْمَاعُ وَتَلَيْنَ لَهُ الْقُلُوبُ ؛ أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَعَامِ ،
 وَالْجَمْرِ وَزَمْزَمَ ، وَشَاعِرِ الْحَجِّ ، وَأَنْتَ ذَبَنْتَ عَنْهَا ، وَأَعَدَّتْ إِلَيْهَا عَهْدَهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمنتَ النازع إليها ، من كلِّ فجٍّ عميق ، والحالين بها من الركوع
والسجود ، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عِزِّته ،
بغفوك عن نُجْرهم ، ومضاعفتك ثوابَ محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد أندرس
وأنطمس ، بعد اللقاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه في قرابته وقربتك ،
وذوى رحمه ورحمك ، ماضٍ الناس . ووصلتَ منهم ما كان وصلةً ، إذ كان الله عز وجل ،
قد قرَضَ صلةَ الأرحام . فكان أطوعَ خلقِ الله عز وجل فيما قرَضَ عليه . أم نشكرك
عن العوام . فقد ألبستَ المسلمين ثوبَ الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعة والرفاهة ، وعدلتَ
بينهم بالإنصاف ، وتولَّيتَ دونهم النَّصب ، وآثرتهم الراحة . أم نشكرك عن الملوك والقواد
والأجناد ، فأنت الذى رفعتَ منازلهم ، ووقرتَ عددهم ، فلم يكن فى دهر أحدٍ من الخلفاء
أسعدٌ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المعاون ، وولَّيتهم من الثغور
والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخواص . أم نشكرك عن الأحكام والسُّنن ، فأنت
الذى أنهجتَ سبيلها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ، أم نشكرك عن الأعداء فأنتَ
الذى بدأتهم بالْحِجَّة ، ودعوتهم الى الفَيْثة والإِنابة . ثم شَيْتَ معقِّباً بالعفو ، ونَسْتَمَهم بعد
البؤس ، وأنَسْتهم من الوحْشة ، أم نشكرك على مكارم الأخلاق ، وأنت الذى ثَبَّتَ وطَّأها ،
ونفَيْتَ عنها أضدادَها ، ولو نَطَقَتْ بالفضل ، انطقت بِشكرك ، فى إزالتك إياها عن اللثام ،
وإخطائك من أعترى إليها . أم نشكرك عن الثغور . فأنت الذى تَمَّمْتَها ، وحصَّنت عوراتها ،
أم نشكرك عن السلف ، فأنت الذى أشدَّتْ بقاعلم . وحَفَظْتَهم فى أبنائهم ، أم نشكرك عن
رُؤس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الفضيب الذى شَخَّصَ به . حتى جعلتهما زِينتك ،
وسموتَ بهما فى أعيادك ، عند حَشْدك ، على الطُّهر والزكاة ، والنَّسك والتقوى ، أم نشكرك
عن المسلمين فى رِعايتك إياهم ، وما تُرْعِيهم من جَنابك ، وتنفى عنهم من الآفات ، وزَمِلَ
عنهم من جباة الكفر . ونَفَضَ من جيوش الشُّرك والنُّكث ، ونَفَحَ من الحصون
المُسْتَصْعَبة ، وتسهَّلَ من الطُّرق الوعرة . أم نشكرك عن تواضعك لله عزَّ وجلَّ ولِصَّالِحِ

المسلمين طلبا للرفعة عند الله . أم شكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنقذا . وكان مأمورا بفعلة أمرا ، وآلة للقوة فجعلت القوة له آلة ، فيأمن أتصل شكره بشكر الله عز وجل ، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته ، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل ، ورقاك درج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكر من ناطق أو صامت ، جزيل الثواب ورفيع الدرجات ، وأمتك ما أناك وأمتع الأمة ما آتاهم منك ، والحمد لله ذى الرغبات ، ومتم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه مبلغ طاقتنا ، ومنتهى جهدنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه ، أنه لا يعين على ذلك إلا هو ، أحببت أن نشكر اليكم أمير المؤمنين أيده الله ، إذ ورد على من أنعمه وفضاله ، مالا أبلغه بالفعل ، وأن يكون ما أقتصصنا عليكم ، داعيا لكم ، الى أن تشكروه عنا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بما وفقنا الله له ، فيما شرحنا وأوضحنا ، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعا ينتفع به من حضرنا ، ومن عسى أن يؤدي إليه الخبر عنا ، أو حدث بعدنا ، وضنت بهذه المكرمة الرائعة ، والمائة البارة ، التي آدتها الله لأمر المؤمنين ، أعز الله نصره ، وأفرد بها ، دون الأئمة والخلفاء ، أن تمر بالأسماع صفحا ، وتجتاز على القلوب سهوا ، حتى تؤكد بالشواهد والبرهان ، ليبقى ذكرها ونفعها في الخلوف والأعقاب ، ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمر المؤمنين — مد الله في عمره — ألفتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضائرنا ، وأنالنا من الغبطة في دولته وسلطانه ، ما لم تحو شيعه إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يتم نور أمير المؤمنين ، ويعل كعبه ، ويمتعا ببقائه ، حتى يبلغه سؤله وهمته في الاستكثار من البر وآذخار الأجر ، وأستجاب الحمد والشكر ، وأن يلهم به الشعث ، ويرأب به الصدع ، ويصلح على يديه الفساد ويرتق به فتوق هذه الأمة ، ويثخن بسياسة ونكايته في عدوها ، ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى يؤتية من تبح السعى ، ورغائب الحظ في الدنيا ، ما يجزل عليه ثوابه في الآخرة ، وأرشد نجباءه واصفياءه ، الذين يقول لهم ، (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) .

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصولى .

وقع الى عامل ظالم « الحق طريق واضح لمن طلبه تهديده محجته ولا تخاف عثرته
وتؤمن فى السر مغبته فلا تستقلن منه ولا تعدلن عنه فقد بالغت فى مناصحتك فلا تحوجنى
الى معاودتك فليس بعد التقدمة اليك إلا سطوة الإنكار عليك » .

ووقع فى عناية بإنسان الى بعض العمال « أنا بفلان تام العناية وله شديد الرعاية وكنت
أحب أن يكون ما أروعته طرفك من أمره فى كتابى مستودعا سمعك من خطابى فلا تعدان
بعنايتك الى غيره ولا تمنحن بعقدك سواء حتى تنيله إرادته وتجاوز به أميته إن شاء الله » .

وفى كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشىء الكثير فارجع اليه
إن شئت .

(و) رسائل سهل بن هارون^(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا ضرر به عليك ؛ فقال : وما هو يا أحمى ؛ قال : درهم ؛ قال : لقد هونتَ الدرهم وهو طائع الله في أرضه

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب خليفة ودمية وسماه « ثعلبة وعصرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون . ولد سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دسمةسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيته أبو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي أو خوزي المولد ، عراقى المنشأ ، تحول الى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسلام » ، ونزاة العرب « حوت من العلم الانساني أصوله وفروعه ، ومن القائمين على تيممه مصافحه وفحوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتنسه من نور معارفها فخرج بعلماها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤرعه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأوثان ، باعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه حاض عمار ، واحت الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وآتهموه بأنه كان مع الشيعيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلا ، وإذا صححت هذه التهمة فن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فسره به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا في نفسه ، عشيق الوجه ، حس الشارة ، بعيدا من العدامة (العي) معدل القامة ، مقول الصورة ، يقص له بالحكمة ، قل الخبرة ، وبرقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالنبيل ، قبل الكشف (الطهور) » . وكان الجاحظ مازجه وثافته . وقيل للحرافى ولعله ابراهيم بن ذكوان كاتب الهادى ووزيره : بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنتم لما كن نعرف ، فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حوشت لم يكذب ، وإن وزج لم يفضب ، كالغيث أين وقع ، سفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حملتها حمات ، وكالماء ظهور للشمس ، ونافع لغد من أسر إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالنسيم ، وكلنا نراى يعيش بها المرقور ، وكلساء التي قد حسنت بأصناف النور » . ١٠٥٠ . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مبدعان عاشا بقر به ، وفنهما بخلفه وخلقه .

وآتهموا سهل بن هارون بالعمل وأوردوا له قصصا ونوادير ، وربما كان آتهماءه بالبحل مبالغا فيه تراد به النكتة والمادة ١٠٥٠ . من محاضرة للاستاذ الباحث السيد محمد كرد على ألقاها بالجمع العلوى العربى بدمشق ونشرها بمجلتى المجمع والمتنظف .

لا يعصى ، وهو عُشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هَوَّنْتَهُ ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ؛ ولولا أنصرفه لم يسكت .

وحكى دُمَيْلُ الخَزَاعِيّ الشاعر قال : أقننا يوما عند سهل بن هارون ، وأطْلُنَا الحديث حتى أَضْرَبَ به الجوع ، فدعا بغذائه فَأَتَى بِصَحْفَةٍ فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِمٌ ، فاخذ كسرةً وتفقد ما فى الصحفة فلم يجد رأس الديك فبقى مطرقا ، ثم قال للغلام : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ؛ قال : ولم ؟ قال : لم أَظُنْكَ نَاكِلَهُ ؛ قال : ولمَ ظننت ذلك ! فوالله إني لَأَمُقَّتُ من يرمى برجله فكيف برأسه ! ولو لم أكره ما صنعتُ الا لِلطَّيْرَةِ والْقَالَ لَكَرِهْتُهُ ، أما علمتَ أَنَّ الرَّأْسَ رئيسُ يُتَفَاعَلُ به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أُرِيدَ ، وفيه فرقه الذى يُتَبَرَّكُ به ، وعينه التى يضرب بصفائها المثل فيقال : شرابٌ كعين الديك ، ودماغه عجب لوجع الكُيَّابَةِ ، ولم أَرَعْظَمًا قَطُّ أَهْشَ تحت الإنسان منه ، وإن كان باع من ثُبُلِكَ أنك لا نَأْكُلُهُ ، فعندنا من يَأْكُلُهُ ، أو ما علمتَ أنه خيرٌ من طرف الجَنَاحِ ومن رأس العُنُقِ ! أنظر أين رميته ؛ فقال : والله ما أدري ؛ قال : أنا والله أدري ! إنك رميتَ به ، والله وى بَصُك . فوالله حسيبك .

ومن مؤلفاته كتابُ الْبَخْلَاءِ .

ولما صَنَّفَ سَهْلٌ كِتَابَهُ فى الْبَحْلِ أَهْدَاهُ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَأَسَمَاهُ . فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما ذمّه الله ، وحسنت ما قبّحه الله . وما يوم بمساده معاك صلاح لفظك ، قد جعلنا تواب مدحك فيه قبولا . فما يُطِيرُ نسينا .

وآتهم سهل بن هارون بالبحل وأورد له فى ذلك فصص ونوادر وعده الجاحظ . من مؤلفاتى الْبَخْلَاءِ وَأَسَمَيْتُهَا "البحل" . قال . . . "البحل" . نأكله جرد فى البخل كأننا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الشورى . والبحل فى النرس والب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبذير العرب ، أن يبدل لقومه بأرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُهد قط تفريطاً ألا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهل بن هارون مُنقطع القرنين فى صنوف العلم والآداب ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، فينسبُه الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصْنَعُ اليه ، ولا القلوب تَيمُّ نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقل منه فائدةً ، فينحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، فيقبل الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقة أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يتكلف الكلامه ، فلا يُشاهد فيه الناقذ أثر التعمُّل ، بل لا يكلف بغير إرسال النفس على سجيَّتها ، فهو وأبن المقفع والجاحظ على غيرِ واحد .

وقيل إن سهلاً كاتبُ سلاطين ، والجاحظُ مؤلفُ دواوين . وكان كلامه نغمةً موسيقيةً تعرف أنتهاءً جملته من رتبتها بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، لا يحفلُ بالإنجاء إلا إذا جاءت عَفْوُ الخطير ، شأن بلغاء الصدرِ الأول . وكان يقول الشعر وأكثُر شعره مما أملأه قلبه ، فى غرض من أغراض المجتمع . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوَالِ والقِصَار ، والكتب الكُبار المجلدة ، والسِّير الحِسان المولدة ، والأخبار المدونة . ولقبه مرةً بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب فى ترفه أكبر من عالم . وذكره ابن النديم فى البلغاء وقال : إنه شاعرٌ مُقلٌّ ، وعده فى الشعراء الكُتَّاب . وقال : إنه كان ممن يعمل الأسمار والخُرَافَات على ألسنة الناس والطَّيَر والبَهائم هو وعبدُ الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده . وشعره نمسون ورقةً . أما الدهشة فتى تأليفه ، فله دبوان رسائله ، وكتاب النمر والشعلب ، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى اتخاذ الإخوان ، وكتاب أسد بن أسد ، كتاب سَحرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزاليين، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرياض، كتاب ثعلبة وعفراء، (وفي رواية ثعلبة وعفراء) على مثال كتاب كلبية وديمثة، قلده في أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودي : يزيد عليه أي على كلبية وديمثة في حسن نظمه وقد صنفه للمأمون . ومن تأليفه : كتاب الهزلية والمخزومي ، كتاب الوامق والعدراء الى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الايام وبالأأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهل على الرشيد وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده من الخيرات ، وأبسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من أيامه مريضاً على أمسه ، مقصراً عن غده ، فقال الرشيد : يا سهل ، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن أحداً تقدمني الى هذا المعنى ، قال بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتك أميس خير بني لؤي * وأنت اليوم خير منك أميس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً * كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إن سبجاعي الخطب ، ومجبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلام يتصور دراً . ويحمله المنطق السري جوهراً ، لكان كلامهما ، والمتقى من لفظهما ، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديته وتوقعاته في كتبه ، قدمين عيين ، وجاهلين آميين ، ولقد عمرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل الا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا أنقادت الا لهم ، وأنهم محض الأنام . وباب الكرام ، ونح الأيام ، عشق منظر ، وجودة مخبر . وجرالة منطق ، وسهولة لفظ ، وزاهة نفس ، وأكتمال خصال ، حتى لو فاخترت الدنيا بقليل أيامهم ، والمأنور

من خصاصهم ، كثير أيام من سواهم من لذن آدم أيهم الى النفخ في الصور ، وأبتعات أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين ، لما باهت إلأبهم ، ولا عولت في الفخر إلأ عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم ، وتهذيب أغراضهم ، وأكتمال خلال الخير فيهم ، الى ملء الأرض مثلهم في جنب محاسن المأمون كالنقشة (التفلة) في البحر ، والخرولة في المهمة القفر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختتم بالنصفة الحقة ، ومال به سهل الى المصانعة ، ونحرجه على نحو مبالغة الفرس ، في الإطراء والملق لولى الأمر .

وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقل سهل بن هارون ، وقد دخل عليه يوما والناس على مراتبهم ، فتكلم للمأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تعون ، وتساهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، ولتتعجبون ولا تتصفون ! والله إنه ليمول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم ، وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يعرف بالدواء من لا ينسعر بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأي الأول ، وعرف أنه الرجل كل الرجل ، فقر به وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده .

ومن كلام له في كتابه نعمة وعفوة :

”اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقبداً قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الرؤية ، ومضرب التدبير ، ومحل الاختيار . واس في نفع تمتد به عوض من فساد المبيعة ، ولزوم النقيصة “ .

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عَدُوُّ بِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ * مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْرَمًا
مُدَّالٌّ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ أَنْ تَرَى * مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَغْنَمًا
وكتب الى صديق له أبلل من ضعف :

” بلغنى خبر الفترة فى المأماها وأنحسارها ، والشكاة فى حلولها وأرتحالها ، فكاد يشغل القلب بأوله عن السكون لآخره ، ونذهل الحيرة فى ابتدائه ، عن المسرة فى انتهائه ، وكان تغيرى فى الحالين بقدرهما آرتياغاً للأولى ، وآرتياحاً للآخرى “ .



وكتب فى البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم وجمع متملككم وعلمكم الخير وجعلكم من أهله . قال الأحف بن قيس :
يا معشر بنى تميم ، لا تُسرِعوا الى الفتنة فإنَّ أسرع الناس الى القتال أقلُّهم حياءَ من الفرار .
وقد كانوا يقولون : اذا أردت أن ترى العيوب جمّة فأمل عيائاً فإنه إنما يعيب الناس
بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن يعيب ما ليس بعيب . وقبيح أن تنهى
مرشداً وأن تُغري بمشفيق . وما أردنا بـ قدا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاح فاسدكم ،
وإبقاء النعمة عليكم . وما أخطأ سبيل حسن النية فيما بينه وبينكم . وقد تلمهون
أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم . ولا نفسنا قبلكم . وشهرنا به فى الاتفاق دونكم ؛ ثم نقول
فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ
إِلَّا لِإِصْلَاحٍ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . فما كان أحقنا
منكم فى حرّةتنا بكم أن ترعوا حقّ قصدي بذلك اليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ؛
فلا العذر المبسوط بأنعم ولا بواجب الحرمة فتم . ولو كان ذكر العيوب يراد به نخل رأينا
فى أنفسنا من ذلك شغلا .

عَبْتُمُونِي بِقَوْلِي لَخَادِمِي : أَجِيدِي الْعَمِينَ فَهُوَ أَطْيَبُ لَطْعَمِهِ وَأَزِيدُ فِي رَيْعِهِ . ^(١) وقد قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه : أَمْلِكُوا الْعَجِينَ فَإِنَّهُ أَحَدُ الرَّيَعِينَ ^(٢) .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ ثَمِينٌ مِنْ فَاكِهِةٍ رَطْبَةٍ نَقِيسَةٍ وَمِنْ رَطْبَةِ غَرِيبَةٍ عَلَى عَبْدٍ نَهِيمٍ وَصَبِيٍّ جَشِيعٍ وَأَمَةٍ لَكَمَاءٍ وَزَوْجَةٍ مُضْبِعَةٍ ^(٣) .

وَعَبْتُمُونِي بِالنَّحْمِ وَقَدْ خَتَمَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ عَلَى مِرْزُودٍ سَوِيقٍ وَعَلَى كَيْسٍ فَارِغٍ . ^(٤) وقال : طِبْنَةُ خَيْرٌ مِنْ طَبِيَّةٍ ، فَاْمَسْكْتُمْ عَمَّنْ خَتَمَ عَلَى لَا شَيْءٍ وَعَبْتُمْ مِنْ خَتَمَ عَلَى شَيْءٍ .

وَعَبْتُمُونِي أَنْ قُلْتُ لِلْغَلَامِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرِّقِ قَرْدَ فِي الْإِنْضَاجِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّادِيمِ بِالْقَلَمِ طِيبُ الْمَرِّقِ .

وَعَبْتُمُونِي بِخَصْفِ النَّعْلِ وَبَتَصْدِيرِ الْقَمِيصِ ^(٥) وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْخُصُوفَةَ مِنَ النَّعْلِ أَبْقَى وَأَقْوَى وَأَشْبَهَ بِالشَّدِّ وَأَنْ التَّرْقِيعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّفْرِيطَ مِنَ التَّضْيِيعِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيُرْقِعُ نَوْبَهُ وَيَقُولُ : لَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقِيلْتُ ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاجٍ لَأَجَبْتُ . وَقَالَتِ الْحَكَمَاءُ : لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادٌ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا وَأَشْطَرْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَأَنَاهُ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ : أَكَسْتَ بِهِ دَا مَعْرُوفَةً ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي يَوْمٍ قَانِظٍ يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ السَّاسَ جَدِيدًا ، فَتَفَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وَهِيَ عَلِمَتْ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلَ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ . وَفَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَسَمَّا بِهِ مَوْضِعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجُلًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا . وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِالسَّمِّ وَأَمَاتَ بِالْدَوَاءِ وَأَغْصَّ بِالْمَاءِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنْ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِبِينَ كَمَا زَعَمُوا أَنْ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينَ . وَقَدْ جَبَرَ الْأَحْفُفَ بِنَ قَيْسٍ يَدَ عَنَزٍ وَأَمَرَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

(١) الرِّيع : النِّمَاءُ وَالرِّيَادَةُ . (٢) إِمْلَاكُ الْعَجِينَ : إِعَامَةُ عَمِهِ . (٣) الْكَمَاءُ : الْحَمَاءُ .

(٤) الْمُرُودُ : رِيعُ الرِّادِ . وَالسَّوِيقُ : طَعَامٌ يَخْتَدُّ مِنَ الْحِطَّةِ أَوِ الشَّعِيرِ . (٥) سَمَتِ الْعِلَّ : خَرَرَهَا .

(٦) تَصْدِيرُ الْقَمِيصِ : أَنْ يَجْعَلَ لِمَصْدَرِهِ طَيَّانَةً .

يَفْرَكَ النَّعْلَ . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً ففد أكل دَجَاجَةً .
ولبس سالم بن عبد الله جِلْدَ أُحْصِيَةٍ . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهدى اليك
دجاجة . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيَوضًا .

وعبتمونى حين قلت : من لم يعرف مواضع السَّرَفِ فى الموجود الرخيص لم يعرف
مواضع الاقتصاد فى الثَمَنِ الغالى . ولقد أُثِبتُ بماء للوضوء على مبلغ الكِفَايَةِ وأشدَّ من
الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وَضِيعَةِ الْمَاءِ^(١)
وجدتُ فى الأعضاء فَضْلاً عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سَلَكْتُ الاقتصادَ فى أوائله
لخرج آخره على كفاية أوله ولكن نصيبُ الأول كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشنَّعتم
على ؛ وقد قال الحسن وذَكَرَ السَّرَفَ : أما إنه لَيَكُونُ فى الماء والكَلَالِ فلم يَرْضَ بذكر
الماء حتى أردفه الكَلَالُ .

وعبتمونى أن قلت : لا يَغْتَرِّقُ أَحَدُكُمْ بطول عمره وتَقْوِيسِ ظَهْرِهِ رِيقَ عَظْمِهِ وهو
قوته وأن يرى نحوه أكثر ذُرِّيَّتِهِ ، فبدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى ملك
غيره والى تحكيم السَّرَفِ فيه وتسليط السهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمِّراً وهو لا يدري ،
وممدوداً له فى السن وهو لا يتشعر ، ولعله أن يُرْزَقَ الولدَ على الناس ويتحدث عليه من آفات
الدهر ما لا يَحْطُرُ على بال ولا يَذْكُرُه عقل ، فيستردّه ممن لا يردّه ويُظْهِرُ الشكوى الى من
لا يرحمه أَضْعَبَ ما كان عليه الطَّلَبُ وأقبح ما كان به أن تَطْلُبَ ، فعبتمونى بذلك ؛
وقد قال عمرو بن العاص : ” اِئْتَمَلْ لدنياك كَأَنَّكَ تبسُّ أدا ، وأَعْمَلْ لانحرثك كأنك
تموت غدا “ .

وعبتمونى بأن قلت : بأن السَّرَفَ والبذر الى مال المواريت وأموال الملوك وأن
الحفظَ لِمَالِ المَكْتَسَبِ والغنى المحتل والى من لا يُعَرِّضُ فيه . نهاب الدين وأهتضام
العرض ونَصَبِ البدن واهتمام القلبِ أسرعُ ومن لم يحسبُ نفقته لم يحسب دَخْلَهُ

ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أوزن بالفقر وطاب نفساً بالذل .

وعبتموني بأن قلت : إن كسب الحلال يضمن الإتفاق في الحلال . وإن الخبيث يتزعج الى الخبيث ، وإن الطيب يدعو الى الطيب ، وإن الإتفاق في الهوى حجاب دون الهدى ؛ فعبتم على هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرتبذيراً قط إلا والى جنبه حق مضيع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيماذا ينفقه فإن الخبيث إنما ينفق في السرف . وقالت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم وأنتم في دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات : فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلا الى نفسه . فاحذروا النقم باختلاف الأمكنة فإن البلية لا تجرى في الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير : فزقوا بين المنايا . وقال ابن سيرين لبعض البخريين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نفرقها في السفن فإن عطب بعض سلم بعض . ولولا أن السلامة أكبر ما حلنا أموالنا في البحر . قال ابن سيرين : " تحسبها خرقاء وهي صنائع ^(١) " .

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاق عليكم : إن للغنى أسكراً والمال آتروءة فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه . ومن لم يربط المال بخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنى أدن الفقراء وسكّن الغنى أكبر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك :
وهوب لآلاد المال فيما ينز به منه ع إذا ما منه كان أحزما

وعبتموني حين زعمتم أني أنادم المال على المال ، من المال به بمقاد العلم وبه تقوم النفس قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتمتع من الفرع ، فقلتم :

(١) هذا ميل بصرب لمن طعن به العبداء وهو طعن يخطئ . (٢) الزنة : الثرة أو الوثبة .

كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال: العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأنون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجهل الأغنياء بحق العلم. فقلت: حالها هي القاضية بينهما. وكيف يستوى شيء حاجة العامة إليه وشيء يغنى فيه بعضهم عن بعض.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ العَمِّ والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال أبو بكر رضى الله عنه: إني لأبغض أهل بيت يُنفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده: إذا بسط الله لك الرزق فابسط وإذا قبض فاقبض.

وعبتموني حين قلت: فضلُ الغنى على الثَّوْتِ إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استُعِمَّت وإن استُغْنِيَ عنها كانت عُدَّة. وقد قال الحصين بن المنذر: ودِدْتُ أن لى مثل أُحَدِ ذَهَبًا لا أتنفع منه بشيء. قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يخدمنى عليه لأن المال مخدموم. وقد قال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ في قلبك ودَلٌّ في قابِ عدوك لكان الحظ فيه جسيما والمنفع فيه عظيما.

واسنَا نَدْعُ سِيرَةَ الْأَنْبَاءِ وَهَامِجَ الْخُلَاءِ وَأَدِيبَ الْحِكْمَاءِ لَا تُغْنِيَابِ الْإِهْوَاءِ . وَلِئْسَ عَلَى تَرْدُونَ وَلَا رَأْيِي تُفَنِّدُونَ ، فَهَدَمُوا الْبُظْرَ دَبْلَ الْعِزِّ وَأَدْرَكُوا مَا لَمْ يَمَلِكْ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكُوا مَا لَمْ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ .

وسهل هو القائل :

نَقَسْنِي هَمَّانٍ قَدْ كَسَفَا بِالِي وَتَدَرَكَا تَبِي حَمَلَةً بِبَالِ
هَمَّا أَذْرِيَا دَمَعِي وَلَمْ تُذَرِ عَبْرَتِي رَهِينَةُ خَنْدَ ذَاتُ سِمِطٍ وَخَلْخَالِ
وَلَا قَهْوَةَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الَّذِي عَلَى أَنْ تُحَاكِيَ النُّورَ فِي رَأْسِ ذِيَالِ

تَحَلَّلْ مِنْهَا جُرْمُهَا وَتَمَاسَكَتْ * لَهَا نَفْسٌ مَعْدُومٌ عَلَى الزَّمَنِ الْخَالِي
 وَلَكِنَّمَا أَبْيَى بَعِينٌ سَخِيَّةٌ * عَلَى حَدِّثِ تَبَيُّحٍ لَهُ عَيْنُ أَمْشَالِي
 فِرَاقُ خَلِيلٍ لَا يَقُومُ بِهِ الْأَمْسَى * وَخَلَّةٌ حُرٌّ لَا يَقُومُ بِهَا مَالِي
 فَوَاحِسَرْتِي حَتَّى مَتَى الْقَلْبُ مُوجِعٌ * لَتَفَرَّ خَلِيلٍ أَوْ تَعْدُرُ إِفْضَالِ
 وَمَا الْفَضْلُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بِنَائِلٍ * وَإِلَّا لِقَاءَ الْخَلِّ ذِي الْخُلُقِ الْعَالِي

وهو القائل :

إِذَا أَمَرْتُ ضَاقَ عَنِّي لَمْ يَضِقْ خُلُقِي * مَنْ أَنْ يَرَانِي غَنِيًّا عَنْهُ بِالْيَاسِ
 لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أُغْنَى بِفَضْلَتِهِ * مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقْرًا مِنَ النَّاسِ

(ز) عمرو بن مسعدة^(١)

كان كاتباً بليغاً، جَزَلَ العبارة وجيَّزَهَا، سديدَ المقاصد، فضله شائع، وثبُّه ذائع؛ أشهرُ من أن يُنْبَسَ عليه، أو يُدَلَّ بالوصف إليه؛ قد ولىَ للمأمون الأعمالَ الجليلةَ، وألْحَقَ بذوي المواهبِ النبيلةِ. وتسماه بعضُ الشعراءَ وزيراً لعظمِ منزلته لانه كان وزيراً، وهو قوله:

لقد أسعد الله الوزيرَ بنَ مسعدة * وثبُّ له في الناس شُكْرٌ ومجده

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان ونجسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال فظهرت كفايته وبلاغته، وبالبلاغة توصل إلى الخليفة فعدَّ أحد أفراد قلائل في رجاله، قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت يوماً على المأمون وبسده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوّب، فلما مررت على ذلك مدّة من زمانه التفت إلى وقال: يا أحد أراكَ مفكراً فما تراه مني، قلت: نعم، فقال: إن في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، زعم أن البلاغة إنما هي التباعّد عن الاطالة، والتقرّب من معنى البنية، والدلالة بالقليل من اللفظ، على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك. وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا، ففككته فاذا فيه: «كتاب إلى أمير المؤمنين، ومن قبل من قواده، ورؤسا. أجداه، في الانقياد والطاعة، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم، واثقياد كفاة تراخت أعطياتهم، فاختلت تلك أحوالهم، والثالث معه أمرهم». فلما قرأته قال: إن استحسانى إليك بعنى أن أمرت للجنّد قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته. وفي رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف: لله در عمرو ما أبلغه! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الأسرار، وإعائه سلطانه من الاختار.

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر الوجاء، وكان المأمون يسميه الرضى لبياض وجهه وكان يخضب وتوفى بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين. ولم تعترف منشأه وولده وأسانيده وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم كل الإحصان حتى جرت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من أنرها أن أصبح عشير المأمون، وكان هو و أبو عباد نائب بر يحيى يكتبون بين يديه وبجملوان معه و يمازحانه. ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخالبة العظيمة في كل شئ فإنه ينبغي أن ينطوى على صفات عالية يعز مثلها في الأقران والأتراب.

قال عمرو بن مسعدة: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى الزيمكي رفع الله علمانه ودقة يستريدونه في روايتهم فرمى بها إلى وقال: أجب عنها فكنتبت: «قليل دائم خير من كثير منقطع» فغضب ببدنه على ظيبي وقال: =

فهو كما كتب الحسن بن سهل الى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج الى رجل يؤيِّه بعض الأعمال فقال: إنه يريد رجلا جامعاً لخصال الخير، ذا عفة ونزاهة طعمته؛ قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه إن أؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلَّ مُهمًّا من الأمور أجزأ فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، نُعقده الررانة، ويسكنه الحلم، قد فُسر عن ذكاء وفطنة، وعُضَّ على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة، وترشده السكينة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكماها، وقام في أمور خُمد فيها، له أناة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجوابُ الحكماء، لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده، يكاد يسترقِّ قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحُسن بيانه، دلائل الفضل عليه لائحة، وأماراتُ العلم له شاهدة، مضطجعا بما استنص، مستقيلا بما حمل.

== أى وزير في حلدك. وقد تهاد لعمر بن مسعدة باللالة أعيان الأيان في عصره ومنهم الفصل س سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلائته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاداراه بعد عليه. وهذا كما قيل لأحد العلماء: ما حد اللاعة؟ فقال: التي اذا سمعها الخاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فاداراهما استصعبت عليه. ولم يؤثر عن عمر أنه ألف في موضوع خاص وأورد مسألة في التأليف، وعده ابن الدليم في الشعراء الكبار ولم يذكر إلا أن له ولأخيه محاسن خمسين ورقة من الشعر وهي من الصائغ أيضا. والعالب أن مهام الدولة لم تنزل له وقتا يصرفه في درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة: وما تلفظه العلماء والأدباء. من كلامه، فهو مما صدر عنه بالملاسات، ورواه له المعهود به، وما أعظم المفقود منه. والمطلوب أن لو كانت تحت له رسائله على إبحارها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قابض على رايته يعالجها الموضوعات السياسية والإدارية في ذلك المجتمع العظيم لا شك أنه يجمع له صفحات كسدها كان مقالا معروفا بالإنجاز. ١٥ من محاضره للأساد اللاح محمد كرد على شرها بخلة الجمع العلمي العربي. وفي عمرو س مسعدة قال محمد اليبدي وقد اعتل:

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم هسى الفداء له من كل محذور

يا ليت علته في غير أف له أحر العليل وإي غير مأحور

وتحد رحنه في معجم الأدباء لباقوت (ح ٦ ص ١٨) واس حلكان (ح ١ ص ٥٥٥) والواقي البوابات للصدى (ح ٥ ص ٥٠٢) قسم ثالث من الأصل المتنوع في المخطوط بدار الكتب المصرية).

(١) في الأساس: ومن الحجار فلاب طيب الطعمة وحبب الطعمة (بالكسر) وهي الجهة التي منها يرتق (بوزن الحرفة). (٢) أحرأني كذا: كماني. (٣) هرعن دكاء، وقطة، أى حرب واحتبر معها. (٤) وعص على قايجه، كانه عن ملوئه درجة الكمال.

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظم الناس أحرًا ، وأنهمم ذكرا ، من لم ترص بموب العدل في دولته ، وطهور المحم
في سلطانه ، وبانصال المنافع الى رعيته في حياته ، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق
في أيامه ، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : الخط صور الكتب ترد اليها أرواحها .

وقال . الخط صورته صئله لها معان حليه ، وربما صاب عن العيون ، وقد ملا
احطار العيون .

وقال لا تسصح من يكون استمتاعه بمالك وحائك ، أكثر من إساءه لك لسكر
إساءه وفوائد علمه ، ومن كانت عايه الاحياء على مالك وإطراءك في وحك ، فإن هذا
لا يكون إلا ردى العيب ، سربا الى الدم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنك بمن اذا عرس سقى ، وادا أسس سقى ، ايسم سيد أسسه ، وتحتي نمار
عرسه ، وناؤك عدى قد شارف الدروس ، وعرسك منيف على اليوس ، مدارك ساء
ما أسست ، وسقى ما عرست إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في صحص نعر عليه

أما بعد ، فوصل كاي اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر

بدروى عن سالم وأدبرهم وحلده من العبي والأثيب سالم

أى تحل منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من سى صه سديع له الراده في مبرله وحل كاه

عريضا

أما بعد ، بعد سديع في فلاه ما امر المؤمنين لملوك على ، في إلفاه سطرانه من

الخاصه فيما يرفون ما ، وأعلمه ان امر المؤمنين لم يحلى في مراب المسديعين .

وفي إمدائه بذلك بعدى طاعه والسلام .

فكتب إليه المأمون : "قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبتك اليهما ، وواقفناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته" : من الكلام السري الذي يدل على مبلغ أدب عمرو وبعده غوره في السياسة ووقوفه على روح عصره ونفسية الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناء دَهَاقِينَ قريش ، على المأمون لِعِدَّة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تَوَصَّلْ مِنِّي رُقْعَةً إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك على نعمتان . فكتب : "إن رأى أمير المؤمنين أن يَفْكَ أَسْرَعِيده من رِبْقَةِ المَظْل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً بفعل يَعَجِب من حسن لفظها ، وإيجازِ المراد . فقال عمرو : فما نتیجتُها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لثلاثاً تأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِلَةً عن دناءة المَظْل . وسَمَاجَةِ الإغفال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وأوعه بالبلاغة وقدره أهلها حقَّ قدرهم ، دَع ما هنالك من نفيس ما أحبت إلا الجود والعطاء .

ومن حَكَم عمرو بن مسعدة :

العبودية عبودية الإخاء . لا عبودية الرِّق . الودَّ أعطف من الرَّحِم . إن الكريم أيرعى المعرفة ما رعى الوَصْل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرِّاء ، وعدة للبلاء . لَئْل الإخوان لَئْل النار ، نليها متاع ، وكثيرها بوار . النفس بالصدق ، أنس منها بالعشيق ، وعزَل المودة ، أرْق من غَمَزَل الصبابة . من حقوق المودة ، عفو الإخوان ، والإغضاء عن فضير إن كان . ذكر رجل رجلًا فقال : حسبك أنه خَلَف كما تستهى إخوانه . المودة قرابة

مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء
انقطاع مودة الأشرار . المحروم من حُرِّم صالحى الإخوان . لقاء الخليل شفاء الغليل .
قلّة الزبارة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضا . علامة الصديق
إذا أراد القطيعة أن يؤخّر الجواب ، ولا يتدبّر بالكاتب . لا يفسدك الظن على صديق
قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأُنس ، أثرت مودته
دما . إذا قدمت الحرمة ، تسبّحت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من
باطن الحقد . ما أكثر من يُعاتب لطلب علة ، ويبقى الود ما بقى العتاب . تكون الحقد
في القواد ككثون البار في الرناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمن
عدوك وإن كان مقهورا ، واحذر وإن كان مفقودا ، فإن حدّ السيف فيه وإن كان معمودا
لا تتعرض لعدوك في دولته ، فإنها إذا زالت كفتك مؤنته . نصح الصديق تأديب ، ونصح
العدو تأنيب .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوما وقد خرج من
باب البستان ببعداد فصاح به رجل بصري : يا أمه المؤمنين إلى تروحت بأمرأة من
آل زياد وإن أبا الرازي قزى بيما وقال : هي امرأة من فريس . قال : فأمر عمرو بن
مسعدة فكتب إلى أبي الرازي :

إنه قد باع أمرا المؤمنين ، ما كان من الزبادة وحامك إياها إذ كلب من قبرس . متى
محاكت إليك العرب ، لا أتم لك في أساسها . ومتى وكلّسك فارس أس الحياء بأن تلصق
بها من لس منها ؟ فحلّ بين الرجل وامرأه ، فأن كان راد من فارس ، إنه لأبن سميّة
نغي عاهره ، لا يفخر ، بهرابها ولا يتناول بولادها . وإن كان آس عبيد ، لقد باء بأمر
عظيم ، ادّعى إلى غير أبيه . لحط نجله . ومك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به ١٠٠٠ به إلى بعض العمال في وصاء
حقه ، وأن يخصر كانه . أممكه . حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد . لا ريادة عليه .
فكتب عمرو :

كتّابي اليك كتابٌ واثقٌ بمن كتبتُ اليه ، معنيّ بمن كتّيب له ، ولن يَضِيعَ بين النّقة والعناية حاملهُ .

وكتب الى بعض الرؤساء ، وقد تزوّجتُ أمه فساءه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس تَسَلّى بها ، وذهب عنه ما كان يَحْدُه . وقيل : إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العَميد وهى :

الحمد لله الذى كَشَفَ عنا سِتْرَ الْحَيَرة ، وهدانا لِسِتْرِ الْعَوَرة . وَجَدَعَ بما شَرَعَ من الحلالِ أَنْفَ الْغَيَرة ، وَمَنَعَ مَنَ عَضَلَ الْأَمْهَاتِ ، كما مَنَعَ من وَأَدِ الْبَنَاتِ ، استنزالا للنفسِ والأبْيَةِ ، عن الْحِمْيَةِ حِمْيَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، ثم عَرَضَ لِحَزَلِ الْأَجْرِ ، مَن استسلم لواقع قضاياه ، وَعَوَّضَ جَلِيلَ الذَّنْحِ مَن صَبَرَ على نازلِ بَلَاءِهِ ، وَهَنَّاكَ الذى سَرَحَ لِلتَّقْوَى صَدْرَكَ ، وَوَسَّعَ فى الْبَلَوَى صَبْرَكَ ، وألْهَمَكَ من التسليمِ لِمُسْتَبْدِهِ ، والرِّضَا بِقَضِيَّتِهِ ، ما وَفَّقَكَ له من قضاء الواجبِ فى أَحَدِ أَبْوَابِكَ ، وَمَن عَظَّمَ حَقَّهُ طَبَسَكَ ، وجعل الله تعالى جَدُّه ما تَجَوَّزَ عَنْهُ من أَنْفٍ ، وكَظَمْتَهُ من آسَفٍ ، مَعْدُوداً فيما يُعْظَمُ به أَجْرَكَ ، ويجزى عليه ذُنُوكَ ، وَقَرَنَ بالحاضرِ من امتعاضك بفعلها ، المُتَنَظَّرِ من ارتماضك بدفعها ، فنستوفى بها المصيبة ، وتَسْتَكْمِلُ عنها الْمُثُوبَةَ ، فوصل الله لسيدى ما اسْتَشْعَرَهُ من الصَّبْرِ على عُرسها ، بما يَكْتَسِبُهُ من الصَّبْرِ على نفسها ، وَعَوَّضَهُ من أَسْرَةِ فَرَسِهَا ، أَعْوَادَ نَعْمَتِهَا ، وجعل تعالى جَدُّه ما بَنِمَ به عليه بعدها من نعمة ، مَعَرَّى من قَمْعِهِ ، وما يَرِثُهُ ببد فبصمها من مَنَحِهِ ، مَبْرَأً من مِحْنَتِهِ ، فأحكام الله تعالى جَدُّه ، وَنَهَضَتْ أَسْمَاؤُهُ ، جَارِيَةٌ على غير مَرَادِ الْمُخْلُوفِينَ ، لكنه تعالى يَخْتَارُ لعباده الْمُؤْمِنِينَ ما هو حَيْرٌ لِّهْمٍ فى المَاعِظَةِ ، وأَبْقَى لِهْمٍ فى الْأَجَلَةِ ، اخْتَارَ الله لك فى قبصها اليه . وَفُودُومَهَا عِلْمُهُ . ما هو أَنْفَعُ لَهَا ، رَأَوَى بِهَا ، وجعل المبرء كَمُؤَدٍّ لَهَا رَالِ السَّلَامِ .

وطال عبد العزيز بن يحيى المكي ، الذى ناظر بِسَرِّ بْنِ عِيَابِ الْمُرَيْسِيِّ بِحَصْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فى سَأَلِهِ حَلْقَ الصَّوْانِ :

جاءني حليمة سرور من مسدد بن عيسى من الزمراء والرجال خدامي ، كُتِبَ عليّ رسالة حتى صار الى باب - أيرارير - بن يحيى بن سفيان بن عمار بن مهران ، ولحقه بالاس في حجرته

التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صيرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيمٌ على ما كنت عليه أو قد رجعت عنه ؟ فقلت : بل مقيمٌ على ما كنت وقد ازدددت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرةً في أمرى ، فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملت نفسك على أمرٍ عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهاها ، وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجةٌ على مخالفتك ، ولا لأحدٍ غيرك ، وليس وراءك بعد الجحمة عليك الا السيف ، فانظر لنفسك وبادر أمرَكَ ، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الجحمة ، فلا تنفك الندامة ولا يقبل منك معذرةٌ ولا يقال لك عثرةٌ ، فقد رحمتك وأشفقت عليك مما هو نازلٌ بك ، وأنا أستقبل لك أمهر المؤمنين وأسأله الصصح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك اذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وأخذك الأمان منه والجائزة ، فان كانت لك ظلامةٌ أزلتها عنك وإذ كانت لك حاجةٌ قضيتها لك ، فانما جلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدى من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

شعره :

نقلنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فعليلٌ جداً . ذكر المترجمون له أنه كان له فرسٌ أدهمٌ أغرٌ ، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسناً . فبلغ المأمون خبره ، وبلغ عمرو ابن مسعدة ذلك . فخاف أن يأمر بقوده اليه فلا يكون له فيه شجده ، فوجه به اليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يُدَا	بيهِ اذا عُدَّ إمامٌ
فَضَلَ النَّاسَ كَمَا يَفُ	ضُلَّ نَقْصاً أَمَامٌ
قَدْ بَعَثْنَا بِجَوَادٍ	مِثْلَهُ لَيْسَ يُرَامُ
فَرَسٌ يُزْهِى بِهِ لَا	مُحْسِنٌ سَرَحٌ وَجَلَامُ
دُونَهُ الْخَيْلُ كَمَا مَشَ	لَكَ فِي الْفَضْلِ الْأَمَامُ

وَبِجْهِهِ صُبَّحَ وَلَكِنْ * سَاثِرَ الْجَسْمِ ظِلَامُ
وَالَّذِي يَصْلُحُ لِلَّو * لَى عَلَى الْعَبْدِ حَرَامُ

وعمر هو القائل :

وَمُسْتَعِذِبٌ لِلْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعَذِبُ * أَكَاثِمُهُ حُسْبَى فَيَنَائَى وَأَقْرُبُ
إِذَا جَدْتُ مِنِّي بِالرَّضَا جَادَ بِالْحَقَا * وَيَزْعُمُ أَنِّي مُذْنِبٌ وَهُوَ أَذْنِبُ
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّضَا خَوْفَ هَجْرِهِ : وَعَلِمَهُ حُسْبَى لَهُ كَيْفَ يَغْضَبُ
وَلَى غَيْرُ وَجْهِهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ * وَلَكِنْ بَلَاقِلِي إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

ووقع مرة في ظهر رُقعة لرجل :

أَعِزَّزْ عَلَى بَأْمِرٍ أَنْتَ طَالِبُهُ لَمْ يُمْكِنِ النَّجْحُ فِيهِ وَأَنْقَضَى أَمْدُهُ

(١) ولعمرو بن مسعدة حكايات منها ما حكاها القاضي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة : قال عمرو بن مسعدة : كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرُقعة قال : يا عمرو، ما ترى الرَّجِيحِيَّ قد احتوى على الأهواز، وهي سلة الخير وجميع المال قبله وطمع فيها، وكُتِبَتْ مُتَّصِلَةً بِجَمَلِهَا، وهو يتعلل ويتربص بي الدوائر؟ فقلت : أنا أكفي أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه، فقال : ما يقنعني هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فاحرج إليه بنفسك حتى تُصَفِّدَهُ بِالْحَدِيدِ، فتحملة إلى بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا، وتتظر في أعمالنا وترتب لها عمالا، فقلت : السمع والطاعة، فلما كان في غد دخلت عليه فقال : ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قلت : أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجيء في غد مودعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلما كان في غد جئته مودعا، فقال : أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا، فاضطربت من ذلك إلى أن حضنتي وأستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والعمد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمت بغداد ، فلم أقيم بها إلا ثلاثة أيام وأنحدرت في زلالي أريد البصرة وجعل لي في الزلالي حيش واستكثر من الثلج لشدة الحر .

فلما صرت بين جرجان^(١) وجبل سمعت صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملاح ، فرفعت سحيف الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافي القدمين خلق القميص ، قلت للغلام : أجبه ، فأجابه ، فقال : يا غلام ، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى ، وقد أحرقتني الشمس وكادت تلتفني ، وأريد جبل ، فأحملوني معكم فإن الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشمته الملاح وآتته ، فأدركني رقة عليه وقلت : خذوه معنا ، فتقدمنا الشط وصحنا به وحملناه ، فلما صار معنا في الزلالي وأنحدرنا نتقدم فدفعني إليه قيصا ومنديلا وغسل وجهه واستراح وكأنه كان ميتا وعاد الى الدنيا فحضر وقت الغداء وتقدمت وقلت للغلام : هاتيه يأكل معنا ، فجاء وقعد على الطعام ، فأكل أكل أديب نظيف غير أن الجوع أثر فيه ، فلما رفعت المساء أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة في مجالس الخاصة فلم يفعل ، فغسلت يدي وتذممت أن أمر بقيامه ، فقلت : قدموا له الطشت فغسل بده ، وأردت بعدها أن يقدم لأنام فلم يفعل ، فقلت : يا شيخ ، أي شيء صانعتك ؟ قال : حائك أصابك الله ، فقلت في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب ، فتناومت عليه ومددت رجلي فقال : قد سألتني عن صناعتى وأنت أعزك الله ما صانعتك ؟ فأكبرت ذلك وقات : أنا جئت على نفسي هذه الجناية ولا بد من احتمالها ، أترأه الأحمق لا يرى زلالي وغلماني ونعمتي وأن ملى لا يقال له هذا ! فقلت : كاتب . فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة ، وفيهم أنت ؟ فورد على قولك لائك موردا عظيما وسمعت كلاما أكبرته وكنت متحكما بخاست . ثم قلت : فصل الخمسة قال :

نعم ، كاتب خراج يحتاج أن يكون عالما بالشرع والطبوت والحساب والمساحة والبنوق والفتوق والرتوق . وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالما بالحلل والحرام

(١) في العقد المرید : « بين ديهر قل ودير مقبر . »

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبٌ مَعُونَةٌ يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبٌ جَيْشٍ يحتاج أن يكون عالماً بِحُلَى الرجال وشِيآت الدوابِّ ومُدَاراةِ الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحُسْنِ البلاغة والخط، قال : فقلت : إني كاتب رسائل، قال : فأسألك عن بعضها، قلت : قل، فقال لي :

أصلحك الله، لو أنَّ رجلا من إخوانك تزوج أمك فأردت أن تكتبه مهتئا فكيف كنتَ تكتبه ؟ ففكرتُ في الحال فلم يخطر ببالي شيء، فقلتُ : ما أرى للتهتئة وجهًا، قال : فكيف تكتب إليه تعزِّيَه ففكرت فلم يخطر ببالي شيء، فقلت : اعفني ، قال : قد فعلت ، ولكك لست بـكاتب رسائل، قلت : أنا كاتبٌ نَحْرَاج، قال : لا بأس، لو أنَّ أمير المؤمنين ولَّاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسّاحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك ، خلف المسّاح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلفتُ الرعيّة بالله إنهم لقد جاروا وظلموا، وقالت الرعيّة : قف معنا على ما مَسَّحوه وأنظر من الصادق من الكاذب ، نخرجت لتقف عليه ، فوقفوا على براح شكِّه قاتل قتنا، كيف كنتَ تمسحه ؟ قلت : كنت أخذ طوله على أنعراجِه وعرضه ثم أضربه في مثله ، قال : إنَّ شكل قاتل قتنا أن يكون زاويتاه محدودتين وفي تحديده تقويس ، قلت : فأخذ الوَسْطَ فأضربه في العَرْض ، قال : إذا ينثنى عليك العمود، فأسكنني ، فقلت : ولستُ كاتبٌ نَحْرَاج ، قال : فإذا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتبٌ قَاضٍ ، قال : أرايتَ لو أنَّ رجلا توفي وخلف امرأتين حاملتين إحداهما حُرّة والأخرى سَريّة، فولدت السريّة غلاما والحرة جارية، فعَدَدْتُ الحرة الى ولد السريّة فأخذته ، وتركتُ بدله الجارية فاختصما في ذلك، فكيف الحُكْمُ بينهما؟ قلتُ : لا أدري ، قال : فلست بـكاتب قاضٍ ، قلتُ : فأنا كاتبٌ جيش، فقال : لا بأس ، أرايتَ لو أنَّ رجلين جاءا اليك لتُحلِّيهما وكلّ واحد منهما اسمه وأسم أبيه كاسم الآخر إلا أنَّ أحدهما مشقوقُ الشفة العليا، والآخر مشقوقُ

الشفة السفلى ؟ كيف كنت تحليهما، قال : قلتُ : فلانُ الأفلح وفلانُ الأعم، قال : إنَّ رزقهما مختلفان وكلُّ واحد منهما يجيء في دعوة الآخر، قلتُ : لا أدري، قال : فلست بـكاتب جيِّش، قلتُ : أنا كاتب مُعونة، قال : لا تبالي، لو أنَّ رجلين رُفعا إليك قد شجَّ أحدهما الآخر شجَّةً مُوضحةً^(١)، وشجَّ الآخر شجَّةً مأمونة، كيف كنت تفصل بينهما؟ قلتُ : لا أدري، قال : لست إذا كاتب مُعونة، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا، قال : فصغرتُ الى نفسي وغازني، فقلت : قد سألتُ عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندي، فإن كنت عالما بالجواب فقل، فقال .

نعم، أما الذي تزوج أمك فتكتب اليه : أما بعد، فإنَّ الأمور تجري من عند الله بنير محبة عباده ولا اختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغني تزويج والدة خا الله لك في قبضها، وإنَّ القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قنا فتمسح العمود حتى اذا صار عددا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجارية والغلامُ فيُوزَنُ بِنِِّ الاثنين، فأيهما كان أخفَّ فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقان الاسمين، فإن كان الشقُّ في الشفة العليا قيل فلان الأعم، واذا كان في الشفة السفلى قلتُ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجَّتَيْنِ فلصاحب الموضحة ثلثُ الدية، ولصاحب المأمونة نصف الدية، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبتُ منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجده ماهرًا في جميعها حاذقا بليغا، فقلتُ : ألسْتَ زعمتَ أنك حائك، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولست بحائك نسَّاجة، وأنشأ يقول :

ما مرَّ بِؤْسٍ ولا نعيمٍ * إلا ولى فيهما نصيبُ

فدقتُ حلَّوًا ودقتُ مرًّا كذاك عيشُ الفتي ضروبُ

نوابُ الدهر أدبنتي - وإنما يُوعَظُ الأديبُ

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال ؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامت عُطْطى ، وكَثُرَتْ
عَيْلى ، وتواصلتِ مَحْنَتى ، وَقَلَّتْ حِيلَتى ، نَخَرَجْتُ أَطْلَبُ تَصَرُّفاً فَقُطِعَ عَلَى الطَّرِيقِ فَصِرْتُ
كَمَا تَرَى ، فَشَيْتَ عَلَى وَجْهِى ، فَلَمَّا لَاحَ لى الزَّلَالى اسْتَعْتُ بِكَ ، قلتُ : فَإِنى قد خَرَجْتُ
الى مُتَصَرِّفٍ جَلِيلٍ أَهْتَاجُ فِيهِ الى جَمَاعَةٍ مِثْلِكَ ، وقد أَمَرْتُكَ بِخَلْعَةٍ حَسَنَةٍ تَصْلَحُ لِمِثْلِكَ
وخمسةِ آلافِ درهمٍ تُصْلِحُ بِهَا أَمْرُكَ ، وَتُنْفِذُ مِنْهَا الى عِيَالِكَ ، وَتُقَوِّى نَفْسَكَ بِبَاقِيهَا ،
وَتَصِيرُ مَعى الى عَمَلٍ فَأُولَئِكَ أَجَلُهُ ، فقال : أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ إِذَا تَجَدُّنِى بِمِثِّهِ أُسْرَكَ ،
وَلَا أَقُومُ مَقَامَ مُعْذِرٍ إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمَرْتُ بِتَقْبِيزِهِ مَا رَسَمْتُ لَهُ قَبْضَهُ ، وَانْحَدَرَ الى
الْأَهْوَازِ مَعى ، فَبَعَثَهُ الْمَظَاظِرُ لِارْحَمِى وَالْحَاسِبَ لَهُ بِحَضْرَتِى ، وَالْمُسْتَخْرَجَ لِمَا عَلَيْهِ ، فَقَامَ
بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَعَظُمَتْ حَالُهُ مَعى ، وَعَادَتْ نِعْمَتُهُ الى أَحْسَنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي :

أَعْنَى عَلَى بَارِقٍ نَاصِبٍ . خَفِىَّ كَوَحْيِكَ بِالْحَاجِبِ
كَأَنَّ تَأَلَّفَهُ فِي السَّمَاءِ . يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبٍ
فَرَوَى مَنَازِلَ تَذَكُّرُهَا . يَهِيَّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
غَرِيبٌ يَحِنُّ لِأَوْطَانِهِ . وَيَنكِى عَلَى عَصْرِهِ الْذَاهِبِ
كَفَاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى . مَطَالَعَةَ الْأَمَلِ الْكَاذِبِ
وَصَدُوقُ الرِّجَاءِ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ . لِعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
عَرِضُ الْفِنَاءِ طَوِيلُ الْبِنَا . فِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ النَّاقِبِ
بَنَى الْمَلِكُ طَوْدَهُ لَهُ بَيْتُهُ . وَأَدْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ غَالِبِ
هُوَ الْمَرْتَجَى لِصُرُوفِ الرِّمَانِ . وَمُعْتَصِمُ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ
جَوَادٌ بِمَا دَامَكَ كَدُّهُ . عَلَى الضَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
بَادِمُ الرِّكَابِ وَوَسْطَى الْبِيا . بِِ الطَّرْفِ وَالطُّفْلَةِ الْكَاعِبِ
نُؤْمُهُ لِحَسَامِ الْأُمُورِ . وَنَزْجُهُ لِبَلَلِ الْكَارِبِ

خَصِيْبُ الْجَنَابِ مَطِيْرُ السَّحَابِ ٠ بِشِيْمَتِهِ لَيْنُ الْجَانِبِ
 يُرَوِّى الْقَنَّا مِنْ نَحْوِ الْعِدَا * وَيَغْرِقُ فِي الْجُودِ كَاللَّاعِبِ
 إِلَيْكَ تَبَدَّدَتْ بِأَكْوَارِهَا * حَرَّاجِيْجُ فِي مَهْمَةٍ لَّاحِبِ
 كَأَنَّ نِعَامًا تَبَارَى بِنَا * بِوَاوِيلٍ مِنْ بَرْدٍ عَاصِبِ
 يَرِدْنَ نَدَى كَفِّكَ الْمُرْتَجَى ٠ وَيَقْضِيْنَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاجِبِ
 وَلِلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ خَابِرٍ * بِسَجَلِ اقْوَمٍ وَمِنْ خَارِبِ
 قَسَقَى الْعِدَا بِكُؤُوسِ الرَّدَى ٠ وَتَسْقِيْ مُسْئَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاغِبٍ نَلْتَبِهَ بِالْعَطَا ٠ وَكَمْ نَلْتَ بِالْعَطْفِ مِنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا * وَفَضْلٌ مِنَ الْمَانِعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبَتْ الثَّنَاءَ وَكَسَبُ الثَّنَا * أَفْضَلُ مَعْكَسَةِ الْكَاسِبِ
 يَقِيْنُكَ يَحْلُو سَتُورَ الدُّجَى * وَظَنُّكَ يُخَيِّرُ بِالْإِغْثَابِ

رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ^(١) : أطال الله بقاءك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أرشد الله أمرك ، أت هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا غل ولا تأول ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمان ، رضى الله عنه ، وما أثبتك منه ، ومن خبطهم لآياه بالسلاح ، وبسج بطنه بالحراب ، وقرى أوداجه بالمشاقص ، وشذخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكافى البصرى صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة . وقد تقدم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .
ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف في زمانه مما وضع في الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة في دلم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معاشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب المزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أول من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرها .

وكان غاية في الدكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دعاية فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس انفسهم ويتحلون من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتوزعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكاهة الجاس ، غاية في الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفضاذا العالم وأحد جميع اللسان العربى . توفي سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمه في معجم الادباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلدون (ج ١ ص ٥٥٣) .
(٢) في الأصل : « المخلص » .

هامته بالعمد، مع كَفِّه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك : من
 كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة، وصلى القبلة، وأكل الذبيحة؛ ومع ضرب نسائه
 بحضرته، وإلحاق الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها، حتى أطنوا^(١)
 إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعتها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم،
 وكاسرا من غريبتهم؛ مع وطئهم في أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المذلة جسده مجزئا
 بعد سحقه، وهى الجزرة التى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفًا لبناته وأياماه وعقائله،
 بعد السب والتعطيش والحصر الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم وإلحاقه لهم؛
 ومع اجتماعهم على أت دم الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أوزنى
 بعد إحسان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان فى امتناعهم
 منه عطبه؛ ومع اجتماعهم على ألا يُقتل من هذه الأمة، ولا يُجهز منها على جريح؛
 ثم مع ذلك كله دَمَرُوا عليه وعلى أزواجه وحرمة وهو جالس فى مخبراه ومُصحفه يلوح
 فى خجره، لن يرى أن موحدا يقدم على قتل من كان فى مثل صفته وحاله .

لأجرم لقد احتلبوا به دما لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت نائره، ولا يكفل
 طالبه، وكيف يُضَيِّع الله دم وآية، والمتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما
 السلام، غلا غليانه، وقُتِلَ ساحفه، وأدرك بطائله، وبلغ كل محبته، كدمه رحمة الله
 عليه .

ولقد كان لهم فى أخذه، وفى إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفى بيع ما ظهر من
 رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفى حبسه بما بقى عليه . وفى طمره حتى لا يُحس،
 بذكره، ما يُغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به، وأدعوه عليه، وهذا كله
 بحضرة جلة المهاجرين والسلف المقدمين، والأنصار والتابعين .

(١) قال فى شرح الداموس : كل ما فى العرب من هذا الاسم «فرافصة» فهو بصم ائمة الانرافصة أبا نائلة

فهو بالفتح لا غير . (٢) أطنوا : قطعوا . (٣) حض بعضهم بعضا عليه منهذين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفة، ومراتبٍ متباينة : من قاتلٍ ومن شاذّ على عضده، ومن خاذلٍ عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإتّما الشكّ متّافيه، وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به؛ فأما قاتله، والمعين على دمه، والمريدُ لذلك منه، فُضالٌّ لاشكّ فيهم، ومُرائٍ لا امتراء في حكمهم؛ على أنّ هذا لم يعدّ منهم الفجور : إمّا على سوء تأويل، وإمّا على تعمدٍ لاشقاء، ثم ما زالت الفتن متّصلة، والحروبُ مترادفةً، كحرب الجمل، وكوقائعِ صِفّين، وكيومِ النهروان، وقبل ذلك يوم الزابوقة^(١) وفيه أسرابُ حنيف، وقُتل حَكيم بن جبلة، الى أن قَتَلَ أسقاها على بن أبي طالب رضوان الله عليه، فأُسعده الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعنة؛ الى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ وتخلّيته الأمورَ، عند انتار أصحابه، وما رأى من الخلل في عسكره، وما عَرَفَ من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلونهم عليه؛ فعندها استوى معاوية على الملك، واستبدّ على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سَمَّوه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فُرْقَةٍ وقَهْرٍ وجَبَرِيَّةٍ وغَابَةِ، والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة مَلَكًا كَسْرِيًّا، والخلافة غصبا قِصْرِيًّا، ولم يعدّ ذلك أجمع الضلال والفسق. ثم ما زالت معاصيه من جنس ماحكيننا، وعلى منازبِ مارتبنا، حتى ردّ قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً مكشوفاً، ومجدّ حكمه بمجدّ ظاهره، في ولد الفِرَاش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأُمة أنّ سُمِّيَّة لم تكن لأبي سفيان فِرَاشاً، وأنّه إنّما كان بها عاهراً . فخرج بذلك من حُكم الفِجَار الى حُكم الكفار، وليس قتل مُجْرِبٍ عَدِيٍّ، وإطعام عمرو بن العاص نِجَاحَ مصر، وبيعةُ يزيد الخَلِيع، والاستئثارُ بالنِعم، واختيارُ الوَلادة على الهوى، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقِراة، من جنس مجدّ الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسَّنَنِ المَنْصُوبَةِ، وسواءٌ في باب ما يستحقّ من الكفار مجدّ الكتاب، وردّ السنة إذا كانت السنة في شُبهة الكتاب وظهوره، إلا أنّ أحدهما

(١) الزابوقة : موضع قرب من البصرة كان فيه وقعة الجمل أوّل الهار .

أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد ، فهذه أول كفره ، كانت من الأئمة ، ثم لم تكن إلا فيمن يدعى إمامتها ، والخلافة عليها ، على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أربت عليهم بابتداء عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، فقالت : لا نسبوه ، وإن له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يتبعه فقد حالف السنة ، فزعمت أن من السنة ترك البراءة ، من بحمد السنة ، ثم الذي كان من يزيد ابنه ، ومن عماله ، وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، في أكثر أهل بيته ، مصابيح الطلام ، وأوتاد الإسلام ، بعد الذي أعطى من نفسه ، من يريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحرمة ، أو الذهاب في الأرض ، حتى لا ينجس به أو المقيم حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله ، والزول على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بده ، أو أسلمها إلى عدوه ، وخير فيها من لا يرد غايته إلا بئس دم ، فاحسبوا قتله ليس بكفر ، وإباحة المدينة ، وهتك الحرمة ، ليس بحجة ، كيف نقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ، وقبلة المسلمين ؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحيز به ، وانحصر محطاه ، ألما كان في حق البيت وحرمة أن يحضروه فيه ، إلى أن أعطى بيده ! وأى شيء بقي من رجل ، قد أحدث عليه الأرض إلا موضع قدمه ! واحسبوا ما رويوا عليه من الأسعار ، التي قولها شرك ، والمثلها كافر ، سيئا مصوعا ، كيف تصنع بتقرر القضيي بن نينى الحسن عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الاقتاب العارية ، والإيل الصعاب ، والكشف عن عورة على بن الحسين عند السك وبلوغه ! على أنهم إن وحدوه ، وقد أدت قلوبهم وأن لم تكن أدت حملوه ، كما يصنع أهرجس المسلمين ، بدرارى المسركين ، وكف تقول في قول عبيد الله بن زياد لإحويه وحاضيه . دعوى أمه . فإنه بقيه هذا النسل ، فأحسب به هذا القرن ، وأمس به هذا الداء ، وأعط به هذه المادة !

خبروا علام بل هذه المسوءة ، و... اعطه ! بعد أن شقوا أنفسهم يقتلهم ، وراوا ما أحبوا فيهم ، أدل على حبهم وسوء رأي وحذره ، وعصاة ونفاق ، وعلى بقى مدحول

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولحفظ له ، وعلى براءة الساحة وصحة السيرة ! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منازل ، فالفاسق ملعون ، ومن نهى عن نهى الملعون فلعون .

وزعمت نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، أت سبّ ولادة السوء فتنة ، ولعن الجورة بدعة ، وإن كانوا يأخذون السعيّ بالسعيّ ، والوليّ بالوليّ ، والقريبّ بالقريب ، وأخافوا الأولياء ، وأمتوا الأعداء ، وحكوا بالشفاعة والهوّى ، وإظهار الغدرة والتهاون بالأمة ، والقمع للزعية ، وأنهم في غير مدارة ولا تقيّة ، وإن عدا ذلك الى الكفر ، وجاوز الضلال الى المجنّد ، فذاك أضلّ ممن كفّ عن شتمهم ، والبراءة منهم ، على أنّه ليس من استحقّ اسم الكفر بالقتل كمن استحقّه برّد السنة وهدم الكعبة ، وليس من استحقّ اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحقّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتجويز ، والنابتة في هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه ، وابن زياد وأبيه ، ولو ثبت أيضا على يزيد أنّه تمثل بقول بن الزبير :

ليتَ اشيأني ببدنٍ شهيدوا * جزع الخزيج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلّوا فرحاً * ثم قالوا يا يزيد لا تسل
قد قتلنا الغر من ساداتهم * وعدلناه ببدنٍ فاعتدل

كان تجويز النابت لربه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظم من ذلك وأقطع ، على أنهم مجنون على أنّه ملعون من قتل مؤمنا ، متعمدا أو متأولا ؛ فاذا كان القاتل سلطانا جائرا ، أو أميرا عاصيا ، لم يستحلوا سبّه ، ولا خلعه ، ولا نفيه ، ولا عيه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمر ، وأظهر الفجور ، ثم ما زال الناس يتسكعون مرة ، ويدهنونهم مرة ، ويقاربونهم مرة ، ويشاركونهم مرة إلا بقيّة ممن عصمه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ،

وعاملهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبي مُسلم ، فأعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرم ، وحولوا قبلة واسطاً ، وأثروا صلاة الجمعة ، الى مُغيّر بآن الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أثرت الصلاة عن وقتها ، قتله على هذا القول جهاراً غير خُتِل ، وعَلانيةً غير سرّ ، ولا يُعلم القتل على ذلك إلا أقبح من إنكاره ، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين ربّما وعظ الجبابة ، وخوفهم العواقب ، وأراهم أنّ في الناس بقيةً يَنهَوْنَ عن الفساد في الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، فزجرا عن ذلك ، وعاقبا عليه ، وقتلا فيه ، فصاروا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكر فعلوه ؛ فاحسب تحويل القبلة كان غلطاً ، وهدم البيت كان تأويلاً ، واحسب ما رَوَوْا من كلّ وجه ، أنهم كانوا يزعمون أنّ خليفة المرء في أهله ^(١) أرفعُ عنده من رسوله اليهم ، باطلاً ومسموعاً مولداً ، واحسب وسمَ أيدي المسلمين ونقشَ أيدي المسلمات ، وردّهم بعد الهجرة الى قُرَاهِم ، وقتل الفقهاء ، وسبُّ أئمة الهدى ، والنصبِ إعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفراً ؛ كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهنّ الجمعة ، ولا يُصلّون أولاً ، حتى تصير الشمس على أعلى الجُدُرَان ، كالملاء المعصفر ، فإن نطقَ مسلمٌ ، خُبطَ بالسيف ، وأخذته العُمْد ، وشكّ بالزّمام ، وإن قال قائل : اتق الله أخذته العِزّة بالإثم ، ثم لم يَرْضَ إلا بنثر دماغه على صدره ، وبصلبه حيث تراه عياله ، ومما يدلّ على أنّ القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرّد على الله عزّ وجلّ ، والاستخفاف بالدين . والتهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق ، أكلُ أمرائهم الطعام ، وشربهم الشراب على منابرهم أيّامَ جُمُعِهِمْ وجموعهم ، فعَل ذلك حُبَيْش بن دُبَلْجَة ، وطارق مولى عثمان ، والحجاج بن يوسف ، وغيرهم ، وذلك إنّ كان كفراً كلّ فلم يسلم كفراً نابتة

(١) يشير بذلك الى ماورد عن اجماع انه ذال في كلام له : ويحكم أحليقة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم ، يريد بذلك تفصيل مقام اخلافة على مقام الرسالة . و بطل هذا رمى الحجاج بالكفر وقد فقد ان عبده

في العقد الفريد فصلاً فيمن زعم ان الحجاج كان كافراً راجع العقد الفريد ٣ ٣٣ ٢٣

(٢) في الأصل : « حسن » وهو حصاً واصواب ما أمتناه كما في شرح التماموس والطبري .

عصرنا، وروافض دهرنا، لأت جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثل العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى، لا يزيد على ذلك، فإن حافت أن يُظن بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تَقَرَّزًا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلمت هذه الرافضة، فقالت جسيما، وجعلت له صورة وحدئا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبين وجة وبرهان، وأن التوراة غير الزبور، والزبور غير الانجيل، والانجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران؛ وأن الله تولى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدله بدله، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخ به وأنه أنزله تنزيلا، وأنه فصله تفصيلا، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلقه؛ فأعطوا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق.

والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه. فلذا قالوا: خَلَقَ كَذَا وكَذَا، ولذلك قال: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وقال: ﴿وَيَخْلُقُونَ إِفْكًَا﴾، وقال: ﴿وَإِذَا تَخَلَّقُ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ فقالوا: صنعه وجعله وقدره، وأنزله وفصله وأحدثه، ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره، ولو قالوا بدل قولهم: قدره ولم يخلقه خلقه، ولم يقدره ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد؛ والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وأيس ذلك بهم، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللسان والشفقين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة،

وكنا لِكلامنا غير خالقين ، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق ؛ اذ كنا غير خالقين لكلامنا ، فإتّما قالوا ذلك ، لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقاً ، وإن لم يُقرُّوا بذلك بالسُّلُطَن فذلك معناهم وقصدُهم .

وقد كانت هذه الأُمَّة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال ، إلّا ما حكيْتُ لك عن بنى أُمية ، وبنى مروان ، وعمّالهم ، ومن لم يدن بكفارهم حتى نَجَتْ النوايت ، وتابعتها هذه العوام ، فصار الغالب على هذا القرن الكفر ، وهو التشبيه والجر ، فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق ، وشركاء من كفر منهم بتولّيتهم ، وترك إكفارهم ، قال الله عز وجل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقّين ، ورحمهم وقوى ضَعْفهم ، وكثّر قَلَتهم ، حتى صار ولاة أمرنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشدَّ استبصاراً في التشبيه من عليّتنا ، وأَعْلَم بما يلزم فيه منّا ، وأكشَف للقناع من رؤسائنا وصارفوا الناس وقد انتظموا معان الفساد أجمع ، وبلغوا غايات البدع ، ثم قروا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تُنقّي ديناً إلّا أفسدته ، ولا دنيا إلّا أهلكتها ، وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشُعوبية ، وما قد صار اليه الموالي من الفُخْر على العجم والعرب . وقد نَجَتْ من الموالي ناجمة ، ونبئت منهم نابتة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً ، لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « مَوَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ولقوله : « الْوَلَاءُ لِحُكْمَةِ النِّسْبِ لَا يُبَاعَ وَلَا يُوهَبُ » .

قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم المُلْك والنبوة كانوا أشرف من العرب ، ولما حوّل ذلك الى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا : فحقن معاشر الموالي بقديمتنا في العجم أشرف من العرب ، وبالحديث الذي صار لنا في العرب أشرف من العجم . وللعرب القديم دون الحديث ، وإنّا خصلنا جميعاً واهترنا فينا ، وصاحب الخصلتين

(١) كذا في الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء . الح . (٢) معاصيهم وهم والعرب : الماء والمنزل .

أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان أعجمياً عربياً بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجمياً عربياً ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا اسماعيل كان عربياً » ما كان عندنا إلا أعجمياً . لأن الأعمى لا يصير عربياً ، كما أن العربي لا يصير أعجمياً ، وإنما علمنا أن اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً ، بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله « مولى القوم منهم » وقوله : « والولاء حمّة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أباً لمن لم يلد ، كما جعله أباً لمن ولد ، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحدا ، وجعل الجار والد من لم يلد في قول غير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أجلب للشر من المفارقة ، وليس على ظهرها إلا نخور (ألا قليل) وأى شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر أنه صار شريفاً بعثتك إياه .

وقد كتبت — مد الله في عمرك — كتباً في مفارقة خطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي رد الموالي إلى مكانهم من الفضل والنقص . وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلاً بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومنبهة عليهم ولهم ، وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول اليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك ، واستئارك ، والانتباه في ذلك إلى رغبتك ، فرأيت فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب إلى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة ، وأستعمله بالطاعة ؛ كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه ، وأشكلت عليه أموره ، وأشتبه عليه حال دهره ، ومخرج أمره ، وقيل عنده من يثق بوفائه ، أو يحمّد مغبة إخوانه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أذناننا ، وقده ما كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبت المشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ؛ فوجدنا الحياء متصلا بالحريمان والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القصة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلا على سخافة الرأي ، إذ صارت الخطوة البالغة ، والنعمة السابغة ، في لؤم المشيئة ، وسناء الرزق من جهة عحاشاة الرضاء ، وملايسة معة العار ، ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا ، والكاشر مجتنب ؛ فأقنا له علما واضحا ، وشاهدا قائما ، ومنارا بينا ؛ إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، والكذب المبرح ، والخلف المصرح ، والجهالة المفرطة ، والركاكة المستخفة ، وضعف اليقين والاستثبات ، وسرعة الغضب والجراءة ، قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والقدر الرفيع ، والجواز الطائع ، والأمر النافذ ؛ إن زلّ قيل حكم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هذى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة ؛ فهذه مجتنبنا والله على من زعم أن الجهل ينقيض ، وأن النوك يردى ، وأن الكذب يضر ، وأن الخلف يزيى ؛ تم نظرنا في الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكل المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق في سعة علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لهواه . فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه ، ولا قام له بوظائف فرضه ، ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به ؛ فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يشقى به قريبه ، كما أن الجهل والحق يحظى به خدينه ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُعرا عن الأيام حيث يقول :

تَحَامَقَ مَعَ الْحَقِّ إِذَا مَا انْقَبَتِهِمْ وَلَا قِيَمَ الْجَهْلُ فَعَلْ أَنْحَى الْجَهْلُ
وَحَاطَّ إِذَا لَا قِيَتَ يَوْمًا مَخْلَطًا يُخَلِّطُ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزَلٍ
إِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَتَسَقَّى بِعَتَاهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعَدُ بِالْعَقْلِ

فَبَقِيْتُ — أَبْكَاكِ اللَّهُ — مَثَلٌ مِنْ أَصْبَحَ عَلَى أَوْفَازٍ، وَمِنْ الثَّقَلَةِ عَلَى جِهَازٍ، لَا يَسُوغُ لَهُ نِعْمَةٌ، وَلَا تَطْلَمُ عَيْنُهُ غَمَضَةً، فِي أَهْأَوَيْلَ يَبَاكِرِهِ مَكْرُوهُهَا، وَيُرَاوِحِهِ عَقَائِبُهَا؛ فَلَوْ أَنَّ الدُّعَاءَ أُجِيبَ، وَالتَّضَرُّعَ يُبْعَ، لَكَانَتِ الْعِدَّةُ الْعَظْمَى، وَالرَّجْفَةُ الْكَبْرَى؛ فَلَيْتَ أَىْ أُخَى مَا اسْتَبْطَنَهُ مِنَ النَّفْخَةِ، وَمِنْ بَحَاةِ الصَّبِيحَةِ، قُضِيَ لِفَانٍ، وَأُذِنَ بِهِ فَكَانَ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَذَّبْتُ أُمَّةَ بَرْجَفَةٍ، وَلَا رِيحٍ وَلَا سَخَطَةٍ، عَذَابَ عَيْنِي بِرُؤْيَةِ الْمَغَايِظَةِ الْمُذْمَنَةِ، وَالْأَخْبَارِ الْمَهْلِكَةِ، كَأَنَّ الزَّمَانَ يُوَكِّلُ بَعْدَابِي، أَوْ يُنْصَبُ بِأَيَّامِي، فَمَا عَيْشٌ مِنْ لَا يُسَرِّبُ أَخَ شَفِيقٍ، وَلَا يَصْطَبِحُ فِي أَوَّلِ نَهَارِهِ، إِلَّا بِرُؤْيَةٍ مِنْ يَكْرَهُهُ، وَيَغْمَهُ بَطْلَعَتُهُ؛ فَقَدْ طَالَتِ النُّعْمَةُ، وَوَاضَبَتِ الْكُرْبَةُ، وَادَّهَمَّتِ الظُّلْمَةُ؛ وَنَحَمَدُ السَّرَاجَ، وَتَبَاطَا الْأَنْفَرَجَ .

وصف الجاحظ لقريش وبني هاشم

قَدْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ كَرُمُ قُرَيْشٍ وَسَخَاوُهَا، وَكَيْفَ عَقُولُهَا وَدَهَائُهَا؛ وَكَيْفَ رَأْيُهَا وَذُكَاوُهَا، وَكَيْفَ سِيَاسَتُهَا وَتَدْبِيرُهَا؛ وَكَيْفَ إِيْجَازُهَا وَتَحْسِيرُهَا، وَكَيْفَ رَجَاحَةُ أَحْلَامِهَا إِذَا خَفَّ الْحَلِيمُ، وَحِدَّةُ أَذْهَانِهَا إِذَا كَلَّ الْحَدِيدُ؛ وَكَيْفَ صَبْرُهَا عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَثَبَاتُهَا فِي اللَّأْوَاءِ؛ وَكَيْفَ وَفَاؤُهَا إِذَا اسْتَحْسَنَ الْغَدْرُ؛ وَكَيْفَ جُودُهَا إِذَا حُبَّ الْمَالُ؛ وَكَيْفَ ذِكْرُهَا لِأَحَادِيثِ غَدٍ، وَقَلَّةُ صَدُودِهَا عَنْ جِهَةِ الْقَصْدِ؛ وَكَيْفَ إِقْرَارُهَا بِالْحَقِّ وَصَبْرُهَا عَلَيْهِ؛ وَكَيْفَ وَصْفُهَا لَهُ وَدُعَاؤُهَا إِلَيْهِ؛ وَكَيْفَ سِمَاحَةُ أَخْلَاقِهَا، وَصَوْنُهَا لِأَعْرَاقِهَا؛ وَكَيْفَ وَصُولُ قَدِيمِهِمْ بِحَدِيثِهِمْ، وَطَرِيفُهُمْ بِتَلِيدِهِمْ؛ وَكَيْفَ أَشْبَهَ عَلَانِيَتُهُمْ سِرَّهُمْ، وَقَوْلُهُمْ فِعْلُهُمْ، وَهَلْ سَلَامَةٌ صَدَرَ أَحَدِهِمْ إِلَّا عَلَى قَدَرٍ بَعْدَ غَدِيرِهِ، وَهَلْ غَفْلَتُهُ إِلَّا فِي وَزْنِ صِدْقِ ظَنِّهِ، وَهَلْ ظَنُّهُ إِلَّا كَيَقِينٍ غَيْرِهِ .

وكتب في الاعتذار :

أما بعد فنعلم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار، وإن أحق من عطفت عليه بجليلك من لم يستشفع إليك بغيرك، وإني بمعرفتي بمبلغ حلمك وعاية عفوك، ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك، وقد مسنى من الألم ما لم يشفه غير مواصاتك .

وله في الاستعطاف :

ليس عندى أعزك الله سبب ولا أقدر على شفيح إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعتب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لأعظم بركة، ولا أئمن بقية من ذنب أصبحت فيه . وبمثلك — جعلتُ فداك — عاد الذنب وسيلة، والسبب حسنة، ومثلك من آتلق به الشر خيرا والغرم غنا .

من عاقب فقد أخذ حظه، وإني الأحرى الآخرة، وطيب الذكر فى الدنيا، على قدر الاحتمال وتجرح المرائر وأرجو، ألا أضيع وأهلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعمو عن صغر ذنبه وعظم حقه، وإني الفضل والثناء العفو عن عظم الجرم ضعيف الحرمة، وإن كان العفو عظيما، مستطرفا من غيركم فهو تلاد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أتم عن ذلك تتكلمون، ولا على سالف إحسانكم تندمون . وما ملكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يتم بملأ من بنى إسرائيل إلا أسمعوه شرًا وأسمعهم حيرا، فقال له شتمون الصفا : ما رأيتُ كالأيوم كلما أسمعوك شرًا أسمعتم حبرا فقال : كل أمرى يُفقد بما عنده ولبس عندكم إلا الخبر ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة ” وكل إناء بالذى فيه ينضح “ .

وله في ذم الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داء يهلك الحسد ، علاجه عسير وصاحبه صَحِير وهو باب غامض ، وما ظهر منه فلا يُدَاوَى وما بطن منه فَيُدَاوِيهِ في عَنَاءٍ ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَبَّ اليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق منه تُتَوَلَّدُ العداوة وهو سبب كُلِّ قطيعة ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رَحِم من الأقرباء ومُحَدِّث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

وقد ذكر الجاحظ جلَّ مؤلفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصفها فقال :^(١)
جَنَّبَكَ الله الشبهة ، وعَصَمَكَ من الحيرة وجعل يديك وبين المعرفة نَسَبًا ، وبين الصدق سَبَبًا ، وَحَبَّبَ اليك التثبت ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عِزَّ الحق ، وأودع صدرك بَرْدَ اليقين ، وطرد عنك ذُلَّ الطمع ، وعرفك ما في الباطل من الدَّلالة ، وما في الجهل من القِلَّة ، ولَعَمْرِي لقد كان غيرُ هذا الدعاء أَصَوَّبَ في أمرك ، وأدَلَّ على مقدار وزنك ، وعلى الحال التي وَضَعْتَ نفسك فيها ، ووسَّمت عِرْضَكَ بها ، وَرَضَيْتَها لدينك حَقًّا ، ولمرءتك سُكْلًا ؛ فقد انتهى الى مَيْلِكَ على أبي إسحاق ، وَحَمَلْتُكَ على ، وطعنك على مَعْبَدٍ ، وتَقَصَّصْتُ له في الذي كان جرى بينهما في مساوى الديك ومحاسنه ، وفي ذكر منافع الكلب ومضاره ؛ والذي خرجا اليه من استقصاء ذلك وجمعه ، وَمِنْ تَبَعِهِ ونظمه ، وَمِنْ الموازنة بينهما ، والحكم فيهما .

تم عِبْتَنِي بِكُتَابِ حَيْلِ اللصوص ، وَكُتَابِ غَشِّ الصناعات ؛ وَعِبْتَنِي بِكُتَابِ الْمُلُحِّ والطَّرْفِ ، وما حرَّ من النوادر وبرَّد ، وعاد باردها حارًا بفراط برده ، حتى أمتع باكثر من أمتاع الحار ؛ وَعِبْتَنِي بِكُتَابِ أَحْنَجَاجَاتِ الْبُخْلَاءِ ، وما فضنهم للأسمعاء ، والقوي في الفرقين

(١) اعتمدنا في تصحيح هذه الأصول على الأصل المتوفر في المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٨٥ ؛

آداب ، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بطبعة السعادة بمصر في مائة التحريف وملأى بالأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا في العاجل ، والكذب اذا كان نافعا في الآجل ، ولم جعلنا الصدق أبدا مجودا ، والكذب أبدا مذموما ، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة ، وبين الإفراط في الحمية والأنفة ، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة ، وقلة الاكتراث بسوء القالة ؛ وهل الغيرة آكتساب وعادة ، وبعض ما يعرض من جهة الديانة وبعض التريث فيه والتحسين به ، أو يكون ذلك شيئا في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية ، ما كانت العقول سليمة ، والافات منفية ، والأخلاق معتدلة ؛ وعبتي بكتاب الصرخاء والهيجاء ، ومفاحرة السودان والحران ، والموازنة بين حق الخؤولوة والعمومة ؛ وعبتي بكتاب الزرع والنخل ، والزيتون والأعناب ، وأقسام فضول الصناعات ، ومراتب التجارات ؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث ، وفي أى موضع يغلب ويفضل ، وفي أى موضع يكون المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أى موضع يكون حقهن أوجب ، وأى عمل هو بهن أليق ، وأى صناعة هن فيها أبلغ ؛ وعبتي بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية ، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحمية ، الى حد العصية ، وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية إلا بتنقص القحطانية ؛ وعبتي بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بحست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم ؛ وعبتي بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب ، ونسبتنى الى التكرار والترداد ، الى التكثير والجهل بما فى المعاد من الخطل ، وحمل الناس المؤن ؛ وعبتي بكتاب الأصنام ، وبذكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكيف آختلفا فى جهة العلة مع اتفافهما على جملة الديانة ، وكيف صار عباد البددة^(١) والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة ، والأدنام المنجورة ، أشد الناس إلفا لما دانوا به ، وشعفا بما تعبدوا له ، وأظهرهم حدا ، وأشدهم على من خالفهم ضغنا ، وبما دانوا صباية وعجبا ، وما الفرق بين البد والوش ، وما الفرق بين الوثن والصنم ، وما الفرق

(١) البددة جمع بد ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم فسة كما قال ابن دريد .

بين الدُّمَيَّة والجُثَّة ، ولم صَوِّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صُورَ عظمائهم ورجالِ دعوتهم ، ولم تأتقوا في التصوير ، وتجددوا في إقامة التركيب ، وبالغوا في التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أولية تلك العبادات ، وكيف افرقت تلك النحل ، ومن أى شىء كانت خُدْع تلك السَّدنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأَصناف عددا ، وكيف شمل ذلك المذهبُ الأجناس المختلفة !

وعبّنى بكتاب المعادن ، والقول في جواهر الأرض ، وفي اختلاف أجناس الفلزِّ ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسرَّع الانقلابُ الى بعضها ويُبطئُ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يَصْبِغ ولا يَنْصَبِغ ، وبعضها يَنْصَبِغ ولا يَصْبِغ ، وبعضها يَصْبِغ ويَنْصَبِغ ، وما القول في الإكسير والتلطيف ؛ وعبّنى بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة الهدُّد واستطاعة العفريت ، وفي الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العلم ، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم ؛ وعبّنى بكتاب الأوقاف والرياضات ، وما القول في الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير ^(١) والترقيح وكيف تجتلب التجار الحُرَّاء ، وكيف الاحتياَلُ للودائع ، وكيف التَّسبُّبُ الى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التعديل ، ويَصْرِف اليهم باب حُسن الظنِّ ، وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات ، وكيف التَّسبُّبُ الى تَعَرُّف ما قد سَتَرُوا ، وكشف ما مَوَّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبّنى برسائلى ، وبكل ما كتبتُ به الى إخوانى وخُلَطَائى من مَرَح وجِدِّ ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَغافل وتوقيف ، ومن هِجاء لا يزال وسمُّه باقيا ، ومديح لا يزال أثره ناميا ، ومن مُلَح ، تُضْحِك ، ومواعظُ تبكى ؛ وعبّنى برسائلى الهاشميات ، واحتجاجى فيها ، واستقصائى معانيها ، ونصويرى لها فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتم حليّة ، وزعمت أنى قد خرجتُ بذلك من حد المُعْتَرِلة الى حد الزَّيْدِيَّة ،

(١) الثمر والترقيح : نمو المال وإصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية ، وزعمت أن في أصل القضية ، والذي جرت عليه العادة أنّ كلّ كبير فأقوله صغير ، وأن كلّ كبير فإنما هو قليل جُمع الى قليل ، وأنشدت قول الراجز :

قد يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْخَلِيلِ * وَإِنَّمَا الْقَرْمُ مِنَ الْإَفِيلِ^(١)
« وَنَحْنُ النَّخْلُ مِنَ الْفَسِيلِ * »

وأنشدت قول الشاعر :

رُبَّ كَبِيرٍ هَاجَهُ صَغِيرُ * وَفِي الْبُحُورِ تَفَرَّقُ الْبُحُورُ
وَقُلْتُ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ :

وَأَعْلَمُ بُنَى فَإِنَّهُ * بِالْعِلْمِ يَنْتَفِعُ الْعَلِيمُ
إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا * مِمَّا يَهْجُ لَهُ الْعَظِيمُ

وَقُلْتُ وَقَالَ الْآخَرُ :

صَارَ جِدًّا مَامَرَحْتُ بِهِ * رُبَّ جِدٍّ سَاقَهُ اللَّعِبُ
وَأَنشَدْتُ قَوْلَ الْآخَرِ وَهُوَ عَنَتْرَةِ^(٢) :

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ * تُقْضَى الْأُمُورُ وَرَهْطُ وَرْدَةٍ غُيْبُ
قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْكَبِيرَ صَغِيرُهُ * حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدَّمَاءُ تَصَبَّبُ

وَقَالَتْ كَبِشَةُ بِنْتُ مَعْدِيكَرْبَ :

جَدَعُمُ يَعْْبُدُ اللَّهَ أَنْفَ قَوْمِهِ * بَنَى مَا زَيْنَ أَنْ سُبَّ رَاغِي الْمُخَرَّمِ

وَقَالَ الْآخَرُ :

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ * وَأَيَّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَارِحُ

(١) الأفيل : صغر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتین لطرفه وهما من جملة أبيات في ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العُصْبَةِ ولا تَلِدُ الحَيَّةَ إِلَّا حَيَّةً » ؛ وعبت كُتَابِي في خَلْقِ القرآن ، كما عبت كُتَابِي في الرَّدِّ على المُشَبَّهَةِ ؛ وعبت كُتَابِي في أصول الفُتْيَا والأحكام ، كما عبت كُتَابِي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغَرِيب تَأْلِيفِهِ ، وِديع تَرْكِيبِهِ ، وعبت مُعَارَضَتِي الزُّبَيْدِيَّةَ ، وتفضيل الاعتِرَالِ على كُلِّ نِحْلَةٍ ، كما عبت كُتَابِي في الوعد والوعيد ، وكُتَابِي على النصارى واليهود ؛ ثم عبت بِجُمْلَةِ كُتُبِي في المعرفة ، وآلَمْتُسْتُ تَهْجِنَهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وصَغَّرْتُ من شَأْنِهَا ، وحَطَّطْتُ من قَدْرِهَا ، واعتَرَصْتُ على نَاصِحِيهَا والمتَفَعِّلِينَ بِهَا .

وعبت كُتَابَ الجَوَابَاتِ وكُتَابَ الرِّسَالِ ، وكُتَابَ الرَّدِّ على أَصْحَابِ الإلْهَامِ ، وكُتَابَ الْمُجَنَّةِ في تَثْبِيثِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكُتَابِ الْأَخْبَارِ ؛ ثم عبت كُتَابِي لِإِنْكَارِي بِصِيرَةِ عَمَامِ الْمُرْتَدِّ ، وبصيرة كُلِّ حَاحِدٍ وَمُلْجِدٍ ، وتَفَرِّقِي بَيْنَ أَعْرَامِ الْغُمُرِ وَبَيْنَ آسْتَبْصَارِ الْمُحِقِّ ؛ وعبت كُتَابَ الرَّدِّ على الْجَهْمِيَّةِ في الإدْرَاكِ ، وفي قَوْلِهِمْ في الْجَهَالَاتِ ، وكُتَابِ الْفِرْقِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَنِّيِّ ، والفِرْقِ بَيْنَ الْحِيلِ وَالْمَخَارِيقِ ، وبَيْنَ الْحَقَائِقِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَعْلَامِ الْقَاهِرَةِ ؛ ثم قَصِدْتُ إِلَى سَابِي هَذَا بِالتَّصْغِيرِ لِقَدْرِهِ ، وَالمُهْجِنِ لَطَمِهِ ، وَالْإِعْتِرَاضِ عَلَى لَفْظِهِ ، وَالتَّحْقِيرِ لِمَعَانِيهِ فَزَرَبْتُ عَلَى نَحْتِهِ وَسَبَكُهُ ، كَمَا زَرَبْتُ عَلَى مَعَاهِ وَلَفْظِهِ ، ثُمَّ طَعَنْتُ فِي الْغُرُضِ الَّذِي إِلَيْهِ نَزَعَا ، وَالْغَايَةِ الَّتِي إِلَيْهَا أَجْرِيَا ، وَهَذَا كُتَابُ مَعَاهِ أَنْبَاءِ مِنْ أَسْمِهِ ، وَحَقِيقَتِهِ آتَقُّ مِنْ لَفْظِهِ ، هُوَ كُتَابٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُتَوَسِّطُ الْعَامِي ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَالَمُ الْحَاضِرُ ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ الرِّصُّ ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَادِثُ .

أما الرِّصُّ فَلِلتَّعَلُّمِ وَالذُّرَّةَ ، وَلِلدَّرِيبِ وَالرَّاصَةِ ، وَلِلتَّمَرُّنِ وَتَكْوِينِ الْعَادَةِ ، أَدَّكَانَ حَلِيلَهُ خَفَدَمَ دَقِيقَهُ ، وَأَدَّكَانَ مُقَدَّمَاهُ مُرَتَّبَهُ ، وَطَبَعَاتُ مَعَانِيهِ مُرَتَّبَةٌ ، وَأَمَّا الْحَادِثُ فَلِكُفَايَةِ الْمُؤَوِّدِ ، وَلَأَنَّ كُلَّ مَنْ التَّقَطَّ كُنَا حَامِعًا ، وَبَانَ مِنْ أَمْهَابِ الْعِلْمِ مَجْمُوعًا كَانَ لَهُ عُنْمُهُ ، وَعَلَى مَوْلَاهُ عُرْمُهُ ، وَكَانَ لَهُ دَمْعُهُ ، وَعَلَى صَاحِبِهِ كَدُّهُ ، مَعَ تَعَرُّصِهِ لِمَطَاعِنِ الْعُتَاةِ ، وَلَا عِرَاضِ

(١) العمر مثلثة العين : من لم يحبر الأمور ، والحال الأله .

(٢) أحرسا : قصدا .

المفاسن، ومع غرضه عمله المكود على العقول الفارعة، ومعاينه على الجهاذه، وتحكيه
فه المتأولين والحسد، ومي طمره له صاحب علم، أو هم عليه طالب فقه، وهو وادع
رأيه، وسيط حام، ومؤلفه مُعَبّ مكود، فقد كفى مؤوبه جمعه، وحره وتبعه، وطله،
وأعاه ذلك عن طول التفكير، واستمداد العمر، وقَلَّ الحد، وأدرك أقصى حاجيه، وهو
مُتَّعَم القوه، وعلى أن له عند ذلك أن يجعل هُومَه عليه صرنا من التوفيق، وطقره به
ابا من السديد .

(وهذا كتاب) يستوى فيه رُعه الأمم، وتساوه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا
أعربا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفه السماع وعلم
التجربه، وأسرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وحدان الحاسه وإحساس العريزة،
وسميه الفتيان كما سُميه السيوح، وسميه املك كما سُميه الباسك، ويسميه اللاعب
دو اللهو كما سُميه الحدى ذو الحرم، ويسميه النمل كما سُميه الاديب، ويسميه العنق
كما سُميه القط، وعنى بحكاية قول العمايه والصرارَة وأب تسمعتى أقول فى أول
كلى: وقالت العمايه والصرارية، وكما سمعنى أقول: وقالت الرافعه والرديّة، حكمت
على بالنصب لحكاى قول العمايه، فهلا حكمت على التسيع لحكاى قول الرافعه، وهلا
كمتُ عندك من العاليه لحكاى مُجَّح العالاه، كما كمتُ عندك من الدسه لحكاى قول
الناصه، وقد حكى فى كتابا قول لانا صيه والصغيره، كما حكى أباويل الأزارقه
والحدية، وعلى هذه الأركان الأربعه نُت حارجيه . وكل أسم سواها وإما هو فرع
وبدحه وأستقاف منها، ومحمول سلها، يله كما عندك من المحكم، الخارجه، كما صرنا عندك
من الصرارَة، والناصه، وكيف رصبت أن كان السبع فى عراض الساس أسرع
من المارقه، اللهم إلا أن تكون ردت حكاى عن العيسا رالصرريّة أشع وأجمع،
وأتم وأحكم وأحود صفة، وأبعد عه ورأى قد وهب حى أو ائث هدر ما هويت
باطل أعدائك، ولو كان ذلك لك لكان ساعدك من الكتاب حاصرا، ورمادك على
ما آذعت وأصحا .

وعبتي بكتاب العباسية فهلاً عبتي بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سُدىً بلا قيمٍ أَرَدَ عليهم ، وهملاً بلا رايٍ أَرَبَجَ لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأن تركهم نَشْرَ لا نظام لهم أبعد لهم من المفساد ، وأجمع لهم على المرشد! بل ليس ذلك بك ، ولكنه لما بهرك ما سمعت ، وعللاً صدرك الذي قرأت ، وأبعلك وأبطرك فلم تنجبه للحجة وهي لك معترضة ، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ؛ ورأيت أن سب الأولياء أشقى لدائك ، وأبلغ في شفاء سُقمك ؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة ، وأبعد من النصب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الصناعة ؛ ولو كنت حين فطنت لعجزك وصلت نقصك بتمام غيرك ، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمشوبة في الآجل ، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تُحِطْكَ السلامة ، ولقد سلم عليك المخالف ، بقدر ما أبتلى به منك الموافق ؛ وعلى أنه لم يُبتل منك إلا بقدر ما ألزمته من مؤونة تقيفك ، والتشاغل بتقويمك ؛ وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي : * وهل يضّر السحاب نبح الكلاب * ؟ وإلا كما قال الشاعر :

هل يضّر البحر أمسى زاحرا * أن رمى فيه غلامٌ بحجر

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الأول :

ما ضر تغلب وإلّ أهجوتها * أم بُلّت حيث تناطح البحران

وقال حسان :

ما أبالي أنب بالحنن تيس * أم لحاني بظهر غيب لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حلمانا عنك الى الخوف منك ، وقد قال زُفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفح بفعل العفو سببا الى سوء القول :

فَإِنْ عُدْتَ وَاللَّهِ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِهِ * مَنَحْتُكَ مَسْنُونَ الْغَرَّارِينَ أَزْرَقًا
فَإِنَّ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُضْرَبَ الطَّلِي (١) * وَأَنْ يَغْمَسَ الْعَرِيضُ حَتَّى يَغْرِقَا (٢)

وقال الأول :

وَمَا نَفَى عَنْكَ قَوْمًا أَنْتَ خَائِفُهُمْ * كَمِثْلٍ وَفِيكَ جُهَالًا يَجْهَالُ
فَاقْعَسْ إِذَا حَذِبُوا وَأَحْدَبْ إِذَا قَعَسُوا * وَوَازَيْنِ الشَّرَّ مِثْقَالًا يَمْتَقَالُ

وقال الآخر :

وَضَعَاثِي دَوَائِهَا بَضْعَاثِي * حَتَّى يَمُتَنَّ بِالْحُقُودِ حُقُودَا
وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي سَنَانُ زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَلَا مُعَارَضَةٌ هَؤُلَاءِ : الشَّرُّ بِالشَّرِّ،
وَالْجَهْلُ بِالْجَهْلِ، وَالْحَقْدُ بِالْحَقْدِ، فَإِنْ عِنْدِي مَا قَالَ الْمَسْعُودِيُّ :

فَسَّأَ تَرَابَ الْأَرْضِ مِنْهَا خُلِقْتُمَا * وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْخَشِيرِ
وَلَا تَعْجَبَا أَنْ تَرْجِعَا فُتْسَلِمَا * فَمَا حُشِيَ الْأَقْوَامُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ
فَلَوْ شِئْتُ أَذْلَى فِيمَا غَيْرِ وَاحِدٍ * عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِتْرِ
فَإِنَّ أَنَا لَمْ أَمْرُ وَلَمْ أَنَّهُ عِنَّا * صَحِيحَتْ لَهُ حَتَّى يَلْجَ وَيَسْتَشِيرِي (٣)

وقال الثَّيْرُ بْنُ تَوَلَّبَ :

جَزَى اللَّهُ عَنِّي حَمْرَةَ بَنَةِ نَوْفَلٍ * جَزَاءَ مُغِلٍّ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبٍ
بِمَا خَبَرْتُ عَنِّي الْوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا * عَلَى وَقْدِ أُولِيئِهَا فِي النَّوَائِبِ

يقول : أخرجت خبري الى من يشتهي أن أعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أفتح أثرا، وأبقى وشما، وأصدق قيلا، وأعدل شاهدا، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنه ليس كل من عارض فقد انتصر،

(١) الطلي : الأعاق .

(٢) العريض : الذي يتعرض للناس بالشَّرِّ .

(٣) كذا في الأصل، وفي اللسان في مادة بلجج : تضاحكت حتى يبلج ويستشيري .

وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كَفَيْتَنَا مَوْوَنَةَ المَعَارِضَةِ ، وكَفَيْتَ نَفْسَكَ لُرُومِ العَارِ ،
وهو قوله :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ دُمِّي لِمَا * تَعْرِفُ مِنْ صَفِيحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَاخْشَ سَكُوتِي آذِنًا مُنْصِتًا * فَيْكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ
فَالسَامِعُ الذَّمَّ مُقَرَّرَ بِهِ * كَالْمَطْعَمِ الْمَاكُولَ لِلْآكِلِ
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا * أَسْرَعُ مِنْ مُنْجِدِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ * ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبِيَةِ * حَرْبَ أَخِي التَّجَرِبَةِ الْعَاقِلِ
فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّاهُ * هَجَّتْ بِهِ ذَا خَبَلٍ خَابِلِ
يُضِصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ * عَلَيْكَ غَبَّ الضَّرْرِ الْإِجِلِ

وقد يقال : إِنَّ الْعَفْوَ يُفْسِدُ مِنَ الْإِثْمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ ؛ وقد قال الشاعر :
وَالْعَفْوَ عِنْدَ كَلْبِيبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ * وَبَعْضُهُ لِسَفِيهِ الْقَوْمِ تَدْرِيبُ

فإن كُنَّا قد أسأنا في هذا التقرير والتوقيف ، فالذي لم يأخذ فينا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ ، ولا بِأَدَبِ
الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ولم يَفْزَعْ إِلَى مَا فِي الْفِطَنِ الصَّحِيحَةِ ، أَوْ إِلَى مَا تَوَجَّهَ
الْمُقَابِسُ الْمُطْرِدَةُ ، وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ ، وَالْأَشْعَارُ السَّائِرَةُ ، أَوْ إِلَى الْإِسَاءَةِ ، وَأَحَقُّ بِالْإِثْمَةِ ،
قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأُوهُ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ” لَا تَجْنِ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ ” وَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَأَدَابُ رَسُولِهِ ،
وَالَّذِي أُتْرِلَ بِهِ الْكِتَابُ ، وَدُلَّ عَلَيْهِ فِي حُجَجِ الْعُقُولِ .

أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ

ثم قال في أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ : فَأَمَّا مَا قَالُوا فِي الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ ، ” رَمَيْتُنِي بِدَائِيهَا
وَأَنْسَلَتْ “ . وَأَمَّا قَوْلُ الشَّعْرَاءِ وَذَمُّ الْخَطْبَاءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، وَمَا ضَرَبُوا
فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَالِ ، كَقَوْلِ النَّابِغَةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي شَعْرِهِ :
وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ * كَذَى الْعَرِيكُوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ

وكانوا إذا أصاب إبلهم العُزْكَوُا السليم ليذهب العُزُّ عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم، وكانوا إذا كثُرَتْ إبلُ أحدهم فبلغت الألف فقصوا عينَ الفحل، فإن زادت الإبلُ على الألف فقصوا عينه الأخرى، فذلك المُفَقُّ والمُعَمَّى اللذان سمعتَ بهما قال الفرزدق :

غلبْتُكَ بِالْمَفَقِّ^(١) وَالْمُعَمَّى * وَبَيْتِ الْمُحْتَبَى^(٢) وَالْخَافَقَاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقَّ يطرد عنها العين والسواف والغارة فقال الأول :

فَقَاتُ لَهَا عَيْنَ الْفَحِيلِ تَعِيفًا * وَفِيهِنَّ رَعْلَاءُ الْمَسَامِيعِ وَالْحَامِ

الرَّعْلَاءُ : التي تُسَقُّ أذنها وتترك مُدْلَاةً لِكَرَمِهَا .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية، كقول الرجل إذا بلغت إبله كذا وكذا، وكذلك غنمى ذبحت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة : من نُسِكَ الرَّجِيَّةِ، والجمع عتائر، والعتائر من النساء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال : إنما قلتُ : لِمَ أَذْبَحُ كَذَا وَكَذَا شاةً، والظباء : شاة، كما أن الغنم شاة، بفعل ذلك القُربان كله مما يصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حِزَّةَ الشَّكْرِيُّ :

عَتَاً بَاطِلًا شَدُوخًا كَمَا تُعُ^(٤) . تَرُعُ عَنْ حُجْرِهِ الرَّيِّصُ الظُّبَاءُ

بعد أن قال :

أُم عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْ * نَمَ غَازِيَهُمْ وَمَا الْجَزَاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إما تكدر الماء، وإما لقلة العطش، ضربوا الثور ليقترح الماء لأن البقر تتبعه كما ينبع السؤل الفحل، وكما ينبع أنن الوحش الجمار، فقال في ذلك عوف بن الحرير :

تَمَنَّتْ طَيِّئٌ جُهْلًا وَجُبْنًا * وَفَدَ حَالِيَهُمْ فَبَوَّأَ حِلَالِي

هَجُونِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلَمَى * كَصَرَبِ السَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظُّبَاءِ

(١) في اللسان مادة « فقا » « المعنى » . (٢) كذا في الأصل وفي أسانيف « المختار »

بالحاء المهملة . (٣) السواف : مرض الإبل . (٤) كذا في الأصل وفي أسانيف « ودها » .

وقال في ذلك أنس بن مُدْرِكة في قتله سُلَيْك بن السُّلَكَة :

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ * كَالنَّوْرِ يُضْرَبُ لِمَا عَافِيَ الْبَقْرُ
أَقِفْتُ لِلرَّءِ إِذْ تُغَشَّى حَلِيلَتُهُ * وَإِذْ يُشَدُّ عَلَى وَجْعَائِهَا الثُّفُرُ^(١)
^(٢) ^(٣)

وقال الهَيْبَانُ الْفَهْمِيُّ :

كَمَا ضُرِبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرُ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرُ

ولما كَانَ الشَّوْرُ أَمِيرَ الْبَقْرِ، وَهِيَ تَطِيعُهُ كَطَاعَةِ إِمَائِثِ النَّحْلِ لِلْيَعْسُوبِ سَمَاءَ بِأَسْمِ أَمِيرِ

النَّحْلِ .

وكانوا يزعمون أَنَّ الْحَقَّ هِيَ الَّتِي تَصَدُّ الثِّيرَانَ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى تُمَسِكَ الْبَقْرُ عَنِ الشَّرْبِ

حَتَّى تَهْلِكَ ؛ وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْأَعَشِيُّ :

وَإِنِّي وَإِنْ كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ * لِأَعْلَمُ مَنْ أَمْسَى أَحَقُّ وَأَحْوَا
لِكَائِثُورٍ وَالْجَنَى يُضْرَبُ ظَهْرُهُ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ مَشْرَبَا
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرُ * وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ إِلَّا لِيُضْرَبَا

كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ يُضْرَبُ أَبَدًا لِأَنَّهَا عَافَتِ الْمَاءَ، فَكَأَنَّهُ إِتِمَامًا عَافَتِ الْمَاءَ لِيُضْرَبَ ؛

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَنْصُورٍ الدَّهْلِيُّ فِي ذَلِكَ :

لِكَائِثُورٍ وَالْجَنَى يُضْرَبُ وَجْهُهُ * وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ كَانَتْ الْجَنَى ظَالِمَةً

وَقَالَ نَهْشَلُ بْنُ جَرِّى :

أَتَرَكْتُ عَارِضُ وَبَنُو عَدِيٍّ * وَتَغَرَّمُ دَارِمٌ وَهُمْ بُرَاءُ
كَدَّابُ النَّوْرِ يُضْرَبُ بِالْمَرَاوِي * إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّمَاءُ
وَكَيْفَ تَكَلَّفُ الشَّعْرَى سَهْلًا * وَبَيْنَهُمَا الْكَوَاكِبُ وَالسَّمَاءُ

(١) فِي اللِّسَانِ : « عَصَب » . (٢) فِي الْأَصْلِ « وَإِنْ » وَالنَّصِيبُ عَنِ اللِّسَانِ .

(٣) الثُّفُرُ : السَّرِ الدِّي فِي مَوْخِ السَّرِجِ .

وقال أبو ثوير بن حُصَيْن حين أخذه الحكم بن أيوب ذنب العطرق :

أبا يوسف لو كنت تعلم طاعتي * ونصحي إذا مابعتني بالمُحَلَّق
ولا ساق سراق العرافة صالح * نبي ولا كُلفت ذنب العطرق

وقال خدّاش بن زهير حين أخذ بدماء بني محارب :

أَكُفْتُ قَتْلِي معشِرَ لست منهم * ولا دارهم داري ولا نصرهم نصري
أَكُفْتُ قَتْلِي العيص عيص شواحيط * وذلك أمرٌ لم تُسَفِّ له قِندري

وقال الآخر :

إذا عرّكت عجلُ بنا ذنب طيئ * عرّكتنا بئيم اللات ذنب بني عجل

ولما وجد اليهودي أخا حنِص الضبائي في منزله فخصاه فمات، وأخذ حنِص بن عبس
بجناية اليهودي قال فيس بن زهير : أتأخذنا بذنب غيرنا، وتسألنا العقل، والقاتل يهودي
من أهل تيماء؟ قال : والله لو قتله هيف الريح لوديتموه، فقال قيس لبني عبس : الموت
في بني ذبيان خير لكم من الحياة في بني عامر، ثم أنسا يقول :

أَكُفْتُ ذا الخُصَيْنِ إن كان ظالماً * وإن كنت مظلوما وإن كنت شاطِئاً
خصّاه أمروء من أهل تيماء طابن * ولا يعدم الإنسي والجن طابنا
فهلاً بني ذبيان أمك هابل * رهنت هيف الريح إن كنت راهنا
إذا قلت قد أفلت من شر حنِص * أتاني بأخرى شره متباطنا
فقد جعّات أبأدنا تجتويكم * كما تجتوي سوق العضاه الكرازا

ولما قتل لقمان بن عاد أبنته وهي صُحُور بنت لقمان قال حين قتلها : ألسيت امرأة ؟
وذلك أنه تزوج عدّة نساء وكلهنّ خُنه في أنفسهنّ، فلما قتل أخراهنّ وزل دن الجبل كان
أوّل من تلقاه صُحُور أبنته، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنت أيضاً امرأة ؟ وكان قد ابتلى أيضاً
بأن أخته كانت مُحَمَّقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان : دد ايلة طهري

وهي ليلتك، فدعيني أتم في مضجعك، فإن لقمان رجلٌ مُنِجِبٌ، فعسى أن يقع على فأُنْجِبَ،
فوقع على أخته فحملت بُلُقِيمَ وفي ذلك قول النمر بن تولب :

لَقِيمُ بْنُ لَقْمَانَ مِنْ أَخْتِهِ * فَكَانَ ابْنُ أَخِي لَهُ وَابْتِمَا
لِيَالِي حَقٍّ فَاسْتَحْصَنْتُ * عَلَيْهِ فَعُورٌ بِهَا مُظْلِمًا
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مُحْكَمٌ^(١) * بَغَاءَتِ بِهِ رَجُلًا مُنْجِمًا

فضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان بنته صُحُرا فقال خُفَّاف بن نَدْبَةَ في ذلك :
وَعَبَّاسٌ يُدَبُّ لِي الْمَنَايَا * وَمَا أَذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُحَيْرٍ

وقال في ذلك ابنُ أَدْنَةَ :

أَنْجَعُ تَيْيَامًا بَلِيلًا إِذَا نَأَتْ * وَهَرَانَهَا طُلُمًا كَمَا طُلِمَتْ صُحُرُ

وقال الحارث بن عباد :

قَرَّبَا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنِّي * اقْتَحَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنْ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمُ اللَّهِ * لَهَا وَإِنِّي بِمَجْرَاهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال الشاعر وأظنه ابنُ المقفع :

فَلَا تِلْمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ * فَرَبٌّ مَلُومٌ وَلَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عَذْرَا وَأَنْتَ تَلُومُ * وَكَمْ لَائِمٌ قَد لَامَ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سِنْبَارَ الرومي : فَإِنَّهُ لَمَّا عَلَا الْخَوَرَنَقَ ، وَرَأَى
بُنْيَانًا لَمْ يَرِ مِثْلَهُ ، وَرَأَى ذَلِكَ الْمُسْتَشْرِفَ ، وَخَافَ إِنْ هُوَ أَسْبَقَاهُ أَنْ يَمُوتَ فَيَبْنِيَ مِثْلَ ذَلِكَ
الْبُنْيَانِ لِمَلِكٍ آخَرَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُمِيَ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْكَلْبِي فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
بَعْضِ الْمُلُوكِ :

جزائى جزاه الله شرَّ جزائه * جزاء سِنِّار وما كان ذا ذنب
سوى رصّه البنيان سبعين حجة * يُعلّى عليه بالقراميد والسكب
فلما رأى البنيان تمَّ سحقه * وأض كمثل الطود ذى الباذخ الصعب
فظنَّ سِنِّارُ به كُلَّ حَبْوة * وفاز لديه بالمودة والقرب
فقال اقذفوا بالعُج من رأس شاهق * فذاك لعمرك من أعظم الخطب

وجاء المسلمون يروى خلف عن سلف، وتابع عن سابق، وأحر عن أول، أنهم
لم يختلفوا فى عيب قول الجحّاج : لَأَخْذَنَّ السِّمَى بالسِّمَى والولّى بالولّى، والجارّ بالجارّ،
ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول :

إذا أخذَ البرىء بغير جُرم * تجنبَّ ما يُحاذِره السقيمُ

قال : وقيل لعمرو بن عبّيد إنّ فلانا لما قدم رجلاً ليضرب عنقه ف قيل له : إنّه
مجنون، قال : لولا أنّ المجنون يلد عاقلاً خلّيتُ سبيله ، قال فقال عمرو : وما خلق الله النار
إلا بالحق .

ولما قالت التغلّبية للجحاف بن حكيم فى وقعة اليرس : فحمر الله عمادك ، وأطال سُهادك ،
وأقلَّ رمادك ، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دُمى . وأعالهن تدى ، فقال لمن حوله : لولا
أن تاد هذه مثلها خلّيت سبيلها ، فبأنّ ذلك الحسن فقال : إنّ الجحاف جدوة من نارجهم .
قال وذم رجلٌ عند الأحف بن قيس الكفاة بالسمن ، فقال عند ذلك الأحف : ربّ
ملوم لا ذنب له ؛ فهذه السيرة سرتَ فينا ؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن
ابن حسان :

وإنّ أمراً يمسى ويصبح سائلاً * من الناس إلا ما جنى أسيدُ

وقلت : وما بال أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر . وأرباب التحلّ . والعلماء
بخارج الملل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان العلماء ، يكتبون كتب الضرف والمُلحاة ، وكتب
الفراغ والخلاء ، وكتب الملاهى والمكاهات . وكتب أصحاب الحصومات والمراء . وكتب

أصحاب العصبية، وحمية الجاهلية، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولا لائمة الأدياء وشنف الأكفاء، ومساءة الجلساء؛ فهلاً أمسكت رحمك الله عن عيننا، والطعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان :

وجدنا الحكمة على ضربين : شئ جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشئ جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بدن الشئ العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل، وليس كل دليل مستدل، فشارك كل الحيوان سوى الإنسان جميع الجهاد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان بأن كان دليلاً مستدلاً، ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلالة، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بياناً، وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام : لفظ وخط وعقد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه واقتياده كل من فكر فيه الى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة؛ فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استبحرهما، وينطفان لمن استنطفهما كما ينحير الهزال ويمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن والنصرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر :

فاجوا فأتوا بالدى أت أهله ولوسكوا أنتت عليك الحفائب

وقال آخر :

متى تك في مدو أم دمدني نعبرك العيون عن الملوب

وقد قال العُكْلَى في صدقِ شمه الذئب ، وفي شدة حسه وأسترواحه :

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحُ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ * بِمَثَلِ مِقْرَاعِ الصِّفَا الْمَوْقِعِ

وقال عنترة وهو يصف نعيبَ غراب :

حَرِقَ الْجَنَاحُ كَانَ لَحْيَ رَأْسِهِ * جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلِّعٌ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه : سل الأرض فقل : مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكَ ، وَغَرَسَ أَشْجَارَكَ ، وَجَنَى ثِمَارَكَ ؛ فَإِنْ لَمْ تَجِبْكَ حِوَارًا ، أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا ، فَوْضُوعَ الْجِسْمِ وَنُضْبَتُهُ دَلِيلٌ عَلَى مَا فِيهِ ، وَدَاعِيَةٌ إِلَيْهِ وَمَنْبَهَةٌ عَلَيْهِ ، فَالْجَمَادِ الْأَبْكَمِ الْأَخْرَسِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ قَدْ شَارَكَ فِي الْبَيَانِ الْإِنْسَانَ الْحَيَّ النَّاطِقَ ؛ فَمَنْ جَعَلَ أَقْسَامَ الْبَيَانِ نَحْمَةً فَقَدْ ذَهَبَ أَيْضًا مَذْهَبًا لَهُ جَوَازٌ فِي اللُّغَةِ ، وَشَاهِدٌ فِي الْعَقْلِ ، فَهَذَا أَحَدُ قِسْمَي الْحِكْمَةِ ، وَأَحَدُ مَعْنَيَيَّ مَا اسْتَخْزَنَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْوَدِيعَةِ .

القسمة الأخرى مأودع صدورُ صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف ، وفطرها على غريب الهدايات ، وسخر حناجرها له بضرب النغم الموزونة ، والأصوات الملحنة ، والمخارج الشجية ، والأغاني المطربة ، فقد يقال : إن جميع أصواتها معدلة ، وموزونة موقعة ، ثم الذي سهّل لها من الرفق العجيب في الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفّها ، وكيف فزع لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف ، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتثقيف ، وعن غير تقويم وتلقين ، وعن غير تدريج وتمرين ، فبلغت بعفوها ومقدار قوّى فطرتها من البديه والارتجال ، ومن الابتداء والاقتضاب ، ما لا يقدر عليه حدّاق رجال الرأى ، وفلاسفة علماء البشر يبدؤوا ولا آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكلهم خصالا ، وأتمهم حالالا ، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والاقتدار ، ولا من جهة التفديم فيه ، والتأني له . والترتيب لمقتداته ، وتمكين الأسباب المعينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحس ، الجامع القوّى . المنصرف في الوجود المعتمد في الأمور يعجز عن عمق كثير منها ، زينظر ان نظر

الى ضروب ما يحىء منها كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت السُرْفَةُ ، وكما علَّم النحل ، بل عرّف التنوّط من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجد لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الهمج والحشاش وصغار الحشرات ، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصرف ، وذا التكلف والتجربة ، وذا التأني والمُنَافسة ، وصاحب الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كلُّ شيءٍ دونه في الغموض عليه أسهل ، وجعل سائر الحيوان وإن كان يُحسِّن أحدها ما لا يُحسن أحذق الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يُحسن ما هو أقرب منه في الظن ، وأسهل منه في الرأي ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة ؛ فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ، ولا شيء من الحيوان آختر ذلك ، فأحسنّت هذه الأجناس بلا تعلُّم ما يمتنع على الإنسان ، وإن تعلم فصار لا يحاوله اذ كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدها اذ كان لا يأمل اللحاق بها ، ثم جعل تعالى وعزّه هاتين الحِكمين إزاء عيون الناظرين ، ونجاء أسماع المعبرين ، ثم حثّ على التفكير والاعتبار ، وعلى الاعتاض والأزدجار ، وعلى التعرف والتبيين ، وعلى التوقف والتذكر ، فجعلها مذكّرةً منهبةً ، وجعل الفطر تنشئ الخواطر ، وتجول بأهلها في المذاهب ، ذلك ربّ العالمين ، سبحانه الله ربّ العالمين .

وهذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقه وتنبه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتنفكر في فصوله ، وتذكر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أشائه من مزيج لم نعرف معانيه ، ومن بطلالة لم تدرك غورها ، ولم تدر لم آجتلبت ولأى علة تكلّفت ، وأى معنى أريغ بها ، ولأى جدّ آحتمل ذلك الهزل ، ولأى رياضة تُجشمت تلك البطلالة ، ولم ندر أن المزاج جدّ اذا آجتلب لأن يكون علة للجد ، وأن البطلالة وقار وزمانه اذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ؛ قال أبو شمّر : اذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ؛ وذلك

مثل كتابنا هذا، لأننا إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مُرَّ الحقِّ، وصُعوبةِ الجِدِّ، ونَقْلِ المَوْثُونة وحقيقة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من قد تجرّد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثمرته، وأستشعر من عزّه، ونال من سروره على حسب ما يورث الطول من الكدِّ، والكثرة من السّامة، وما أكثر من يقاد الى حظّه بالسواجير، وبالسّوق العنيف، وبالإخافة الشديدة .

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال :

ثم لم أرك رضىً بالطعن على كلّ كتاب لى بعينه ، حتى تجاوزت ذلك ، الى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال ، وكيف تصرفت بها الوجوه ؛ وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم ، حتى عبت الكلّ بلا علم ، ثم تجاوزت ذلك الى التشنيع ، ثم تجاوزت التشنيع الى نُصَب الحرب ، فعبت الكتاب ونعم الذنرّ والعُدة ، ونعم الجليس والعمدة ، ونعم النشوة والزهوة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والزيل ؛ والكتاب وعاء مليّ علماً ، وظرفٌ حشِيٌّ ظُرفاً ، وإناءٌ تُشَنُّ مُراحاً وجداً ؛ إن شئتَ كان أئين من سحبانٍ وائلٍ ، وإن شئتَ كن أعيا من باقلٍ ، وإن شئتَ صَحَّكتَ من بواדרه . وإن شئتَ عَجِبْتَ من غرائب فوائده ، وإن شئتَ أَلَمَسْتَ بواדרه ، وإن شئتَ شَجَّكَ . واعظه ، ومن لك بواعظٍ مثله ، وبزاجرٍ مُغَرٍّ ، وبناسكٍ فانيك ، وبناطِقٍ أُنْعَسَ . وببارِدٍ حارٍّ ، وفي البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئ :

قُلْ لِهَيْبٍ إِذَا أَتَيْتَ وَسَدَا فَإِنْ أَوْ أَسِيرَ نَسَ سَهْدَا

سَخُنْتُ مِنْ شَدِّ الْهَرُودَةِ حَتَّى صَرْتُ بِمَنْدَى كَأَنَّكَ النَّارُ

لَا يَعْجِبُ السَّامِعُونَ مِنْ صَفِيٍّ كَدِّهِ السَّجُّ بَارِدٌ حَارٌّ

وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبٍ أَعْرَابِيٍّ ، وَبِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ ، وَبِفَارِسِيٍّ يُونَانِيٍّ ، وَبِقَدِيمٍ مَوْلَدٍ ،
وَبِمَيِّتٍ مُتَمَتِّعٍ ، وَمَنْ لَكَ بِنَشْءٍ يَجْعَلُكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَاقِصَ وَالْوَافِرَ ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ ،
وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ ، وَالْعَثَّ وَالسَّمِينَ ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ ، وَالْجَنَسَ وَضِدَّهُ .
وبعد ، فمَن رَأَيْتَ بَسْتَانًا يُجَلُّ فِي رُؤْدُنٍ ، أَوْ رَوْضَةً تُتَقَلَّبُ فِي حِجْرِ ، وَنَاطِقًا يَنْطِقُ عَنِ
الْمَوْتَى ، وَيُتَرَجِّمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ ، وَمَنْ لَكَ بِمُؤْنِسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا
تَهْوَى ، آمِنٌ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْتَمُ لِلسَّرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ ، وَأَضْبَطُ لِلْوَدِيعَةِ مِنْ أَرْبَابِ
الْوَدِيعَةِ ، وَاحْفَظْ لِمَا اسْتُحْفِظَ مِنَ الْأُمِّيِّينَ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمَعْرَبِينَ ، بَلْ مِنْ الصَّبْيَانِ
قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْأَشْغَالِ ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمَيِّزِ الْأَشْخَاصِ ، حِينَ الْعَنَاءُ تَامَةً لَمْ تَقْصُ ،
وَالْأَذْهَانُ فَارِغَةً لَمْ تُقْتَسَمْ ، وَالْإِرَادَةُ وَافِرَةٌ لَمْ تَسْتَعِبْ ، وَالطَّيْنَةُ لَيِّنَةٌ فِيمَا أَقْبَلَ مَا تَكُونُ لِلطَّابِعِ ،
وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ يَتَّحِلْ جَدِيدُهَا ،
وَلَمْ يَفْلُ غَرِبُهَا ، وَلَمْ تُتَفَرَّقْ قُوَاهَا ، وَكَانَتْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى * فَصَادَفَ قَلْبًا فَارِغًا فَتَمَكَّنَا
وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ (١) :

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشِبُّ صَبِيهِمْ * بَيْنَ الْقَوَائِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُنْشَعُ
هَذَا مَعَ قَوْلِهِمْ : التَّعَلَّمَ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقَشِ فِي الْحَجَرِ ، وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ :
تُرْكَنُ رِحْلَةُ الرُّوحَاءِ حَتَّى * تَتَكَرَّرَ الدِّيَارُ عَلَى الْبَصِيرِ
كُوْحِي فِي الْحَجَارَةِ أَوْ وَشُورِمْ - بِأَيْدِي الزُّرُومِ بَاقِيَةَ النُّوُورِ
النُّوُورُ : شَيْءٌ كَانَ يُعْمَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِثْلَ الْخَضِرَةِ الْيَوْمِ .

وَقَالَ آخَرُهُ وَهُوَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقَدُوسِ :

وَأَتَتْ مَنْ أَذْبَتَهُ فِي الصَّبَا - كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرَسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا أَخْضَرَ - بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ « رَلَهَا » : « نَطَقَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « تَمَرَّة » ، وَهُوَ حَقْلٌ صَوَابُهُ مَا اسْتَنَاهَ عَنِ الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ لَا نَ قَنَسَةٍ .

وقال آخر :

يقوم من ميل الغلام المؤدب * ولا ينفع التأديب والرأس أشيب

وقال آخر :

أدبت عيرسى بعد ما هيرمت * ومن العناء رياضة الهرم

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتُبْ شعري فالكاتبُ أعجب إلى من الحفظ ،
إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها
ثم يُنشدُها الناس ، والكاتب لا ينسى ، ولا يُبدل كلاما بكلام ؛

وعبت الكاتب ولا أعلم جارا أبر ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقل جناية ، ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أقل
خلافا وإحراما ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعد من عضية ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ، ولا أقل
صلفا وتكلفا ، ولا أبعد من مراء ، ولا أترك شغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف
عن قتال ، من كتاب ؛ ولا أعلم قرينا أحسن مواناة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضر
مُعونة ، ولا أخف مؤونة ، ولا شجرة أطول عُمرًا ، ولا أجمع أمرا ، ولا أطيب ثمرة ،
ولا أقرب نجح ، ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد في كل إبان من كتاب ؛ ولا أعلم نتاجا
في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان موجوده ، يجمع من التداير
العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آتار العقول الصالحة ، ومجود الأذهان اللطيفة ، ومن
الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون
الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأهم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : إِفْرَأْ وَرَكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَمَّ
بِالْقَلَمِ ، وصف نفسه تبارك وتعالى جده بـ"ن علم بالقلم" كما وصف نفسه بالكرم ، واعتد
ذلك في نعمة العظام ، وفي أياديه الحسام ، وقد قالت : القلم أحد اللسانين .
وقالوا : كل من عرف فضل النعمة في بيان اللسان كان فضل النعمة في بيان القلم

أعرف ؛ ثم جعل هذا الأمر قرآنا ، ثم جعله في أول التنزيل ، ومُستفتح الكتاب ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - أنّ حاجة بعض الناس الى بعض صفة لازمة لطبائعهم ، وخلقهم قائمة في جواهرهم ، وثابتة لا تزالهم ، ومحيطة بجماعتهم ، مشتملة على أدانيهم وأقصاهم . وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يُعيشهم ويُحييهم ، يأخذ بأرماقهم ، ويُصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون على درك ذلك ، والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون على معرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تغب عنهم ، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى الى معرفة الأقصى ، واختلال الأدنى الى معونة الأقصى ؛ معانٍ متضمنة ، وأسباب متصلة ، وحبال متقيدة ، وجعل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنا حاجة من كان قبلنا الى أخبار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقدّمت في الكتب البشارات بالرسول ، ولم يُسخر لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداها قوام وقوت ، والاخرى لذة وإمتاع ، وأزدياد في الآلة ، وفي كل ما أجدل النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنّفين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعد غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وفطرة الإنسانية ، ثم لم يقطع الزيادة عنهم إلا لعجز خلقهم عن احتياها ، ولم يجوز أن يفرق بينهم وبين العجز إلا بعدم الأعيان ، اذا كان العجز صفة من صفات الخلق ، ونعتا من نعت العبيد ، ولم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من يُسخر له ، فأدناهم مُسخر لأقصاهم ، وأجلهم مُيسر لأدقهم ، وعلى ذلك أحوَج الملوك الى السوق في باب ، وأحوَج السوق الى الملوك في باب ، وكذلك الغنى والفقر ، والعبد وسيده .

ثم جعل الله تعالى كلّ شيء للإنسان خولا وفي يده مَدَالا مُيسرا ، إما بالآ خيال له ، والتألف في إراغته واستماله ، إما بالصولة عليه والفك به ، وإما أن آتيه سهوا ورهوا ، وعلى أن الإنسان أولا حاجته إليها احتال لها ، ولما صال عليها ، إلا أنّ الحاجة تفرق

في الجنس والجهة، وفي الخطّ والتقدير، ثم تعبد الإنسان بالفكر فيها، والنظر في أمورها، وبالأعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقيب، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم اليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومعتقدا لمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة، ومداواة الحيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح المائلة، والأجسام الجالدة، والأجرام الساكنة التي لا يتعرف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع، والتحفظ من دواعي الهوى، ولأن الشكل أفهم عن شكله وأسكن اليه وأصعب به، وذلك موجود في أجناس البهائم وضروب السباع، والصبي عن الصبي أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه أنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم يخف، بفعل أصناف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي اليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذي وضع له، وصرف إليه .

وهذه الخصال الأربع : هي اللفظ والخط والإشارة والعقد، والخصلة الخامسة : ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة. ووضح البرهن في لأجرام الجالدة الصامته، والساكنة الثابتة، التي لا تيسر ولا تفهم. ولا تيسر وتتحرك. بل دخل عليها. أو عند ممسك حتى عنها بعد تقييده كان ضا. ثم قسم لأقسامه. ورتب المحسوسات. وحصل

الموجودات ، بفعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، في معرفة العقد إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على نصيب اللامس ، وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط ، ولبطلت معرفة التضاعيف ، ولعمدوا الإحاطة بالباورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المؤونة ، وتنقص المنة ، ولصاروا الى حال معجزة وحسور ، الى حال مضیعة وكلال حد ، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أربح لهم ، وأرد عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا ، ونفع الحساب معلوم ، والخلة في موضع فقدته معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانِ ﴾ وبالبيان عرف الناس القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ﴾ فأجرى الحساب مجرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، وحسبان منازل القمر عرفنا حالات المدة والجزء ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون التقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكتب المدونة ، والاخبار المخلدة ، والحكم المخطوطة التي تحصر الحساب وغير الحساب ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفرج الى موضع استدكار ، ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع ، اذ كما قد علمنا ان مقدار حفظ الناس لمواجل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يغني فيه غناء محمودا ، ولو كلف عامة من يطلب العلم ، ويصطنع الكتب ، ألا يزال حافظا لفهرس كتبه لأعجزه ذلك ، ولكلف شططا ، ولشغله ذلك عن كثير مما هو أولى به ، ففهمك

لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجزداً ، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعاون لك ما كان صياحاً ضرفاً ، وصوتاً مضمّناً ، ونداء خالصاً ، ولا يكون مع ذلك ألا وهو بعيد من المفاهمة ، وعطل من الدلالة ، بفعل الله جل وعزّ اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً ، والكتاب للنازح من الحاجات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر الأجبان ، ولئى الشفاء ، وتحريك الأعناق ، وقبض جلدة الوجه ، وأبعدها أن تلوى بثوب على مقطع جبل ثجاء عين الناظر ، ثم ينقطع عملها ، ويذرس أثرها ، ويموت ذكرها ، وتصير بعد كل شيء فصل عن آتئاء مدة الصوت ، وتنتهى الطرف فى الحاجة ، الى التفاهم بالخطوط والكتب ، فأى نفع أعظم ، وأى مرفق أعون من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا !

وليس لأعقد حظ الإشارة فى بعد الغاية ، ولا للإشارة حظ الخط فى بعد الغاية ، فلذلك وضع الله عز وجل القلم فى المكان الرفيع ، ونزه بذكره فى المنصب الشريف حين قال : **(لَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)** فأقسم بالقلم كما أقسم بما يحيط بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه ، ولا يشق غباره ، ولا يجرى فى حلبته ، ولا يتكلف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجة دائمة راکدة ، وراينة نائبة ، وكانت الحاجة الى بيان القلم أمراً يكون فى الغيبة وعند النائية ، ألا ما خُصّت به الدواوين ، فإن لسان القلم هناك أبسط ، وأثره أعم ، فلذلك قدموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن أتم هو فى منافع البد والمرافق التى فيها ، والحاجات التى تبأنها ، فن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة ، ثم نصيبها فى تقويم القلم ، ثم حظها فى التصوير ، ثم حظها فى الصناعات ، ثم حظها فى العمد ، ثم حظها فى الدفع عن النفس ، ثم حظها فى إيصال الطعام والشراب الى الفم ، ثم النوض والامساح ، ثم انتقاد الدنانير والدرهم ، ثم لبس الثياب ، وفى الدفع عن النفس أصناف أربع : وأصناف الصرب ، وأصناف الطعن ، ثم الضرب التقن ، العود وتحريك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو دامت به ، وكيف

لا تكون كذلك ولما ضرب الطبل والدَّف وتحرّك الصفاقين ، وتحريكُ مخارق خروق المزامير ، وما في ذلك من الإطلاق والحبس ؛ ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العنان والزام والخطام ، لكان ذلك من أعظم الحظوظ .

وقد اضطربوا في الحكم بين العقد والإشارة ، ولولا أن مغزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحب أن يعرفه إخواننا وخطاؤنا ، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أولى بنا منه ، إذ كنت لم تنازعني ، ولم تعب كُتبي من طريق فضل ما بين العقد والإشارة ، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما ؛ وأما قصّدا بكلامنا الى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتاب هو الذي قيد على الناس كُتَب علم الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفة ثقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكته ، وبلغ إذا استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يتبدّثك في حال شُغلك ، ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يحوجك الى التجميل له ، والتدزم منه ؛ ومن لك بزائر أن شئت جعل زيارته غبا ، ووُروده خمسا ؛ وإن شئت لزمك لزوم ظلك ، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مكثف بنفسه ولا يحتاج الى ما عند غيره ، ولا بد لبيان اللسان من أمور ، منها : إشارة اليد ، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص ، اذا كان أخص الخاص قد يدخل في باب العام ، إلا أنه أدنى طبقاته ، وليس يكتفي خاص الخاص باللفظ عما أداه ، كاستفاء عام العام ، والطبقات التي بينه وبين أخص الخاص .

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك ، والصدق الذي لا يغريك ، والرفيق الذي لا يملك ، والمستميج الذي لا يستريدك ، والجار الذي لا يستبطنك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يتحال لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طبعك، وبسط لسانك، وجود بيانك، ونغم ألفاظك، وبيح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصادقة الملوك؛ وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كد الطلب، ومن الوقوف بباب المتكسب بالتعليم، وبالجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقا، وأكرم عرفا، ومع السلامة من مجالسة البغضاء، ومقارنة الأغبياء .

والكتاب هو الذى يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويُطيعك فى السفر كطاعته فى الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر؛ وهو المعلم الذى إن أفنقت لم يحقر، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك؛ ومتى كنت منه متعلقا بسبب، أو معتصما بأدنى جبل، لم تضطرك معه وخشة الوحدة الى جليس سوء؛ ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه اليك، إلا مانعه لك من الجلوس على بابك، والنظر الى المآزة بك، مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعنك، ومن ملابس صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديئة، وجهالاتهم المذمومة، لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن فى ذلك إلا أن يشغلك عن سُخفِ المني، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما أشبه اللعب، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسعُ النعمة، وأعظمُ المنة؛ وقد علمنا أن أمثل ما يقطع به الفزع نهارهم، وأصحاب الكاهن ساعيات ليالهم، هو الشئ الذى لا ترى له فيهم مع النيل أثرا فى ازدياد فى تجربة ولا فى عقل، ولا فى مروءة ولا فى صون عرض، ولا فى إصلاح دين، ولا فى تميز مال، ولا فى تربية صنيعة، ولا فى ابتداء بئعام .

قال أبو عبيدة قال المهلب ابنه فى وصيته : ما تبي لا تقفوا فى الأسواق إلا على

زاد أو زاق .

وحَدَّثَنِي صَدِيقِي لِي قَالَ : قَرَأْتُ عَلَى شَيْخٍ شَامِيٍّ كِتَابًا فِيهِ مَا تُرْغِطُفَانُ ، فَقَالَ لِي :
 ذَهَبَتْ الْمَكَارِمُ إِلَّا مِنَ الْكُتُبِ ؛ وَسَمِعْتُ الْحَسَنَ اللَّوْلُؤِي يَقُولُ : عَبَرْتُ أَرْبَعِينَ عَامًا
 مَا قِلْتُ وَلَا بَتِ التَّكَاثُ إِلَّا وَالْكِتَابُ مَوْضُوعٌ عَلَى صَدْرِي ؛ وَقَالَ ابْنُ الْجَهْمِ : إِذَا غَشِيَنِي
 النَّعَاسُ فِي غَيْرِ وَقْتِ نَوْمٍ وَبُئِسَ الشَّيْءُ النَّوْمُ الْفَاضِلُ عَنِ الْحَاجَةِ ، تَنَاولْتُ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ
 الْحِكْمِ فَأَجِدُ أَهْتَرَاذِي لِلْفَوَائِدِ ، وَالْأَرْيَحِيَّةِ الَّتِي تَعْتَرِينِي عِنْدَ الظُّفْرِ بِبَعْضِ الْحَاجَةِ ،
 وَالَّذِي يَغْشَى قَلْبِي مِنْ سُرُورِ الْاِسْتَبَانَةِ ، وَعِزِّ التَّبَيُّنِ ، أَشَدُّ إِيقَازًا مِنْ نَهْيِ الْحَمِيرِ ، وَهَذِهِ
 الْمَذْمُومَةُ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَهْمِ : إِذَا اسْتَحْسَنْتُ الْكِتَابَ وَاسْتَجَدَدْتُهُ ، وَرَجَوْتُ مِنْهُ الْفَائِدَةَ ، وَرَأَيْتُ
 ذَلِكَ فِيهِ ، فَلَوْ تَرَوْنِي وَأَنَا سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ أَبْصُرُكُمْ بَقِيٍّ مِنْ وَرَقِهِ مَخَافَةَ اسْتِنْفَادِهِ ، وَأَنْقِطَاعِ
 الْمَادَّةِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُصْحَفُ فِي عَظِيمِ الْجَمِّ ، وَكَانَ الْوَرَقُ كَثِيرَ الْعَدَدِ ، لَرَأَيْتُمْ كَيْفَ
 تَمَّ عَيْشِي ، وَكُلُّ سُرُورِي .

وَذَكَرَ الْقَبِيْنِيَّ كِتَابًا لِبَعْضِ الْقَدَمَاءِ فَقَالَ : لَوْلَا طَوْلُهُ ، وَكَثْرَةُ وَرَقِهِ ، لَنَسَخْتُهُ ؛ قَالَ
 ابْنُ الْجَهْمِ : لَكُنِّي مَا رَغِبْنِي فِيهِ إِلَّا الشَّيْءُ الَّذِي زَهَدْتُ فِيهِ ، وَمَا قَرَأْتُ كِتَابًا قَطُّ كَبِيرًا
 فَأَخْلَانِي مِنْ فَائِدَةٍ ، وَمَا أَحْصَيْتُ كَمْ قَرَأْتُ مِنْ صِغَارِ الْكُتُبِ نَخَرَجْتَ مِنْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ .

وَقَالَ الْقَبِيْنِيَّ ذَاتَ يَوْمٍ لِابْنِ الْجَهْمِ : أَلَا تَتَعَجَّبُ مِنْ فُلَانٍ ! نَظَرَ فِي كِتَابِ الْإِفْلِيدِسِ
 مَعَ جَارِيَةِ سَلْمُويَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَدْ فَرَّغَتْ الْجَارِيَةُ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ
 بَعْدُ لَمْ يُحْكَمْ مَقَالَةٌ وَاحِدَةٌ ، عَلَى أَنَّهُ حَرَّ نُحْيِرٍ وَتِلْكَ أَمَةٌ مَقْصُورَةٌ ، وَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى قِرَاءَةِ
 الْكُتُبِ مِنْ سَلْمُويَةٍ عَلَى تَعْلِيمِ جَارِيَتِهِ ؛ قَالَ ابْنُ الْجَهْمِ : قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ مِنْهُ
 شَيْئًا وَاحِدًا ، وَأَرَاكَ تَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ فَرَّغَ مِنْ مَقَالَةٍ ؛ قَالَ الْقَبِيْنِيَّ : وَكَيْفَ ظَنَنْتُ بِهِ هَذَا الظَّنَّ
 كُلَّهُ وَهُوَ رَجُلٌ ذُو لِسَانٍ وَأَدَبٍ ؟ قَالَ : لِأَنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِأَبْنِهِ : كَمْ أَنْفَقْتُ عَلَى كِتَابٍ كَذَا
 وَكَذَا ؟ قَالَ : أَنْفَقْتُ كَذَا وَكَذَا ؛ قَالَ : أَيْمًا رَغِبْنِي فِي الْعِلْمِ أُنِّي ظَنَنْتُ أَنَّي أَفْقُ قَلِيلًا
 وَأَكْتَسَبْتُ كَثِيرًا ، فَأَمَّا إِذَا صِرْتُ أَفْقًا الْكَثِيرِ وَلَيْسَ فِي يَدِي مِنْهُ إِلَّا الْمَوَاعِيدُ فَأُنِّي لَا أُرِيدُ

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى يَكْثُرَ سماعه ، ولا بُدَّ من أن تصير كُتُبُه أكثرَ من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله أَلَدَّ عنده من الإثاق من مال عدوه ؛ ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكُتُب أَلَدَّ عنده من عشاق القيان ، والمستهترين بالبُذيان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رَضِيّاً . وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر لذة اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يُؤمِّل في العلم مالا يُؤمِّل الأعرابي في فرسه .

وقال إبراهيم بن السّندی مرّة : وِدِدْتُ أَنْ الزّنادقة لم يكونوا حُرّصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض ، ولا على تخيير الخبر الأسود البراق ، ولا على استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ ، فإني لم أركورق كتبهم ورقاً ، ولا كالخطوط التي فيها خطأ . وإني غيرت مالا عظيماً مع حبّي للال وبغضّي للغرم ، لأنّ سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سُكْرِ الآفات . وقلت لإبراهيم : إن إنفاق الزنادقة على الكتب كانفاق النصارى على البيع ، ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْمَةٍ ، وكتب فلسفة ، وكانت مقاييس تبيين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعزف الناس أبواب الصناعات ، أو سبيل التكسب والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطْن والأدب ، أو كان ذلك لا يُقَرَّب من غنى ، ولا يباعد من مآثم ، لكانوا ممن قد يجوز أن يُظنّ بهم تعظيم البيان والرغبة في التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فأتوا إنفاقهم في ذلك كانفاق المحوس على بيت النار ، وكانفاق النصارى على صُلبان المذهب . أو كانفاق الهند على سدنة البُدّ ، ولو كانوا العَلَم أرادوا لكان العلم لهم معرضاً ، وكتب الحكمة لهم مَبْدولة ، والطُرُق إليها سهلة معروفة ؛ فما بالهم لا يصنعون ذلك إلّا بكتب ديانهم كما يُزخرف النصارى بيوت عبادتهم ، ولو كان هذا المعنى مُستحسناً عند المسلمين ، وكانوا يرون أنّ ذلك داعية إلى العبادة وباعشة على الخشوع ، لَبَغُوا في ذلك بَعْقُوهم ، لا يبايحه النصارى بغاية الجَهْد .

وقد رأيتُم مسجد دِمَشق حين استجاز هذه السبيلَ ملكٌ من ملوكنا ، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرومه ، وأن الروم لا تسخو أنفسهم به ؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّله بالجلال ، وغطاه بالكرايس^(١) ، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلاؤو والبريق ، وذهب الى أن ذلك الصنيع بجانب لسنة الاسلام ، وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهب للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأن الهال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يفترقه ويعترض عليه .

والذى يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريزية ولا فلسفية ، ولا مشكلة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة ؛ وجله ذكر النور والظلمة ، وتناح الشياطين ، وتسافد العفاريث ، وذكر الصنديد والتهويل بعمود السنخ ، والاخبار عن شقون وعن الهامة والهامة ، وهذر وعي ودعوى وخرافة وسخف وتكذب ، لا ترى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثا مؤقفا ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ؛ فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الطاعة والبُخوع بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والباس لا يحييون إلا دينا أو دُنيا .

فأما الدنيا فاقامة سُوقها وإحضار نفعها . وأما الدين فأقل ما يُطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مغلطة ، ويؤوه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذى يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس انفاقهم عليها من حيث ظننت . وكل دين يكون أظهر اختلافا وأكثر فسادا يحتاج من التوقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرايس جمع كرايس : ثوب من القطن الأبيض وقبل : التوب الخشن ، فارسي معرب .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعاً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده ، واحتفالهم في إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء فكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي : اكتب كل ما تسمع ، فات أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال الخليل بن أحمد : تكثر من العلم لتعرف ، وتقل منه لتحفظ . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليل وحده للصدر ، وأنشد قول ابن يسير :

أما لو أعي كل ما أسمع * وأحفظ من ذلك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعت لقل هو العالم المقيع
ولكن نفسي إلى كل نو * ع من العلم تسمعه تزع
أشاهد بالحق في مجلسي * وعلمي في البيت مستودع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ولا أنا من جمعه أشبع
ومن يك في علمه هكذا * يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافظاً وإعياً * بجمعك للعلم لا ينفع

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتاب ما ليس عليها . إن الكتب لا تُحصى الموتى ، ولا تُحصى الأحمق عاقلاً ، ولا البليد ذكياً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تسجد وتفتق وتُرهب وتُسقي ، ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يدروا . فإن ذلك إنما تصوّر له لشيء اعزاه . فمن كان عاقلاً ذكياً حافظاً غلب قصد أن يتبين أو يلائق أشياء : فلا يتزع عن الدرس والمطاربة ، ولا يدع أن ينزع على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالمًا بخواص ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه ، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيتَه ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلان ناساً قد اشتملوا على سوءة ، وهم جلوسٌ على نُميرةٍ لهم وعندهم طُنبور ، قال : فدَمَرْنَا عليهم في جماعة من رجال الحى ، فاذا فتى جالسٌ في وسط الدار وإذا أصحابه حوله ، وإذا هم بيضُ اللّحي ، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ، فقال الذى كان سعى بهم : السُّوءة في ذلك البيت ، وإن دخلتموه عَثَرْتُمُ بها ؛ قال قلتُ : والله لا أكشف فتى أصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دمٌ يحى بن زكرياء . قال وأنشد رجل يونس النجوى قوله :

أَسْتَوْدِعُ الْعِلْمَ قِرطاساً فَضَيَّعَهُ * فَيُنْسُ مُسْتَوْدِعُ الْعِلْمِ الْقِرَاطِيسُ

قال فقال يونس : قاتله الله ، ما أشدَّ صبايته بالعلم وأحسنَ صيانتَه له ! إن علمك من رُوحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الرُوح ، وضع مالك بمكان البدن .

وقيل لابن داحَة وأنخرج كتاب أبي الشَّمَقْمَقِ وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفتين وبخط عجيب ، ف قيل له : لقد ضيعَ درهمه من تجوّد لشعر أبي الشَّمَقْمَقِ ؛ قال : لا جرم والله إن العلم ليعطيك على حساب ما تُعْطُونَهُ ، ولو استطعت أن أودعه سُويداء قلبي وأجعله مخطوطاً على ناظري لعلت .

ولقد دخلت على إسمحاق بن سامان في امرته ، فرأيت السامانيين بين يديه والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الخيزر . ورأيت فرشته ^(١) ويزته ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرفوف والناظر والمدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيته قط أنخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم . إلا أنه جمع مع النهاية الحجة ، ومع النخامة الحلازة رمع السودد الحكمة .

وقال ابن داحية : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس ، ونزل مقبرة من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلّا وفي يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحدة ؛ ف قيل له : فقد جاء في الوحدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخطوط بعد ذلك تدلّ على قدر منفعة الخط ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿ فِي ضُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

الترغيب في أصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التفكير وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الخط ومقدار الحاجة إليه ، ونازع الشعر قبل الإسلام . وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال :

« إِنَّ عَلَى مَنْ شَكَرَ الْمَعْرِفَةَ بِمَقَاوِي لِنَاسٍ وَصَرَ سِيَاهِهِمْ وَضَارِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ . أَنْ يَحْتِمِلَ ثِقَلَ مَوْئِنِهِمْ فِي مَعْرِفَتِهِمْ . وَأَنْ يَوْنَحِيَ إِشْرَاقَهُ . وَأَنْ جَرَّاءَ فَصْلِ مَا يَسْدَى إِلَيْهِمْ . وَلَنْ يُصَانَ الْعِلْمُ بِمَثَلِ بَذَلِهِ ، وَلَنْ تُسْتَبْقَى الذِّمَّةُ بِهِ بِمَثَلِ سِرِّهِ . عَلَى تَعَرُّفِ عَرَاءَةِ الْكِتَابِ نَلْعُ فِي إِشْرَاقِهِمْ مِنْ تَلَاقِيهِمْ ، إِذْ كَانَ مَعَ التَّلَاقِ يَسْنَدُ الصَّنْعِ . وَكَذَلِكَ الْخَطُّ . وَتَفْرِيطُ الْعَصِيَّةِ ، وَتَقْوَى الْحِمَاةِ . وَعِنْدَ الْمَوَاجَهَةِ وَالْمُقَابَلَةِ يَتَسَدَّدُ حَسْبُ النَّهْيِ ، وَتَهْوِي الدُّرُوسُ . فَذَلِكَ أَسْتَحْيَا الْأَسْتَنْبَاءَ مِنْ أَرْجَوْعِ ، وَالْأَنْفَةِ مِنَ الْخَلْصِ بِعَرَضٍ جَمِيعٍ ذَلِكَ تَحَدَّثَ الْخَطُّ ، وَتَحْزِينُ الثَّبَائِنِ . إِذَا كُنْتَ الْقُلُوبَ عَلَى هَذِهِ الصَّمَةِ ، وَعَلَى هَذِهِ الدِّمَةِ . أَدْنَيْتُ لِي لِمَعْرِفَةٍ ، رَغِمَتْ عَنْ مَوْضِعِ الدَّلَالَةِ . وَلا يَسْتَلِ الْكِتَابُ رِيَاءَةً تَمْنَعُ مِنْ دَرَسِ الْغَيْبِ . وَوَادِعَةً لِمَخْجَأِ الْبَلَاءِ الْمُرْتَحِ . لِيُصْغَرَ مِنْ مُنْفَرِدِ

بفهم معانيها ، لا يباهى نفسه ، ولا يُغالبُ عقله ، وقد عدم من له يباهى ، ومن أجله يغالب ؛ والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بأمر :

منها ، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب ؛ ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ؛ وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويفنى العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حِكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مُستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قائلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن نُدركه إلا بهم ، لقد خسّ حفظنا من الحكمة ، وضعف سببنا الى المعرفة ؛ ولو أُحِثُّنا الى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرننا ، ومنهى تجرِبَتنا لما تُدرّكه حواسُّنا وتشاهده نفوسنا ، لقد قلّت المعرفة ، وقصُرَت الهمة ، وانتقصت المنة ، وعاد الرأي عقيما ، والخطر فاسدا ، ولكلّ الحدّ ، وتبدل العقل . وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأشرف منها خطراً ، وأحسن موقعا ، كُتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الأبراج والصحف والمهاريف والمصاحف ، فقد قال الله عز وجل : **رَأَيْتُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ** ، وقال : **مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ؛ ويقال لأهل التوراة والإنجيل : **أهل الكتاب** . وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا نجد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدنا ، كما أنّ من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا . فيما يتنظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصالح الدهر ، وهوى النجم الثمينة ، رهب ربح العلماء ، وكسد العي والجھل . وقامت سور البيا والعلم . والإنسان ليس يجد في كل حال إنسانا

(١) المهارف جمع مهار ، وهو ربح راسا من يربح بالجمع وعمل ثم كتب فيه ، ربح ربح .

يُدرِّسه ومُقوماً يُنقِّه، والصبر على إهمام الرِّضِّ شَدِيدٌ، وصرف النفس عن مُغالبة العالم أَشَدُّ مِمَّا هُمَا .

والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عبثاً، وما يحتاج إليه فائماً . وما أكثر من قوط في التعلم أيام نحول ذكره وأيام حدائنه سسه . ولولا جيا د الكتب وحسنها ، وميسنها ونخصرها ، ثم نحركت همهم هؤلاء لطالب العلم ، ومارعت الى حب الأدب ، وألف من حال الجهل وأن تكون في عمار الحسنو لدخل على هؤلاء من الصرر والمصره والجهل وسوء الحال ما عسى ألا يمكن الإحار عن مفداره إلا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : تفقهوا قبل أن تُسودوا . وقد يحسد الرجل يطلب الآثام وتأوويل القرآن ومحاسن الفقهاء حميين سَمَه ، ولا يعد فقهاء ولا محصل قاصيا ، وما هو إلا أن يتطرق في كسب أبي حنيفة وأشياء أبي حنيفة . ويحفظ كتب الشروط في مقدار سه أو ساتين حتى يتم سانه فَنُظِّمُ أنه ناب بعض العمال ، والآخرى ألا يتم عمله من الأيام إلا السدح حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار . أو لَدَه من المُدَان .

ويبيح لمن كتب كتابا ألا يكسه إلا على أن لاس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم
بالأمور ، وكلهم متفرع له ، ثم لا يرضى بذلك حتى راح كانه يعث ويحتير . ولا يثق
بالرأى المطير ، فان لأعداء الكتاب فتنة ونغمة ، فإذا سكنت الطبيعة وهدأ الحركة ،
وراحب الأحلاط ، وعادب النفس وافرء ، أعد المصروفه وبوئف عند فصوله بوقف
من يكون وزن طمعه في السلامه أمص من ريد خوفه من العيب . وسبقه معنى قول
الساعر

إِنَّ الْحَدِيثَ هُوَ الْقَوْمُ حَلَوُهُ حَتَّى كَوْنِهِمْ عَنِّي وَكَارِ

[illegible]

عشرة أسواط فيضربُ مائة ، لانه ابتدا الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكونُ أنَّ الصواب في الإقلال ، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في غضبه ، فأراه الغضب أنَّ الرأي في الإثثار ؛ وكذلك صاحب القلم ، فما أكثرَ من يتبدى الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة . والحفظ مع الإقلال أمكن ، وهو مع الإثثار ابعد .

واعلم أنَّ العاقل إنَّ لم يكن بالمشيع فكثيراً ما يُعثر من ولده ويَحْسُن في عينه منه القبيح في عين غيره ، فليعلم أنَّ لفظه أقرب إليه نسباً من ابنه ، وحركته أَمْسُ به رَحماً من ولده ؛ لأنَّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته ، ومن عين جوهره فصلت ، ومن نفسه كانت ، وأما الولد كالحظَّة يَتَخَطَّها ، وكالنَّخامة يَقذفها ، ولا سواءٌ إخراجك من نفسك شيئاً لم يكن منك ، وإظهارك حركةً لم تكن حتى كانت منك ؛ ولذلك نَجِدُ قِنَّةَ الرجل بِشعره وقِنَّتَه بكلامه وكتبه ، فوق قِنَّتَه بجميع نَعَمَتِهِ .

[illegible]

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لَصَحَّاحِ الْعَبْدِي : ما الإيجاز ؟ قال أن يجيب فلا تُبْطِئَ ، وتقول فلا تُثْخِطَ ؛ قال معاوية : أو كذلك تقول . قال صَحَّاحٌ : أظنني يا أمير المؤمنين ، لا تُثْخِطُ ولا تُبْطِئُ . فلو أن سائلا سألك عن الإيجاز فقلت : لا تُثْخِطُ ولا تُبْطِئُ وبحضرتك خالد ابن صفوان لما عَرَفَ بالبديهة وعند أول وهلة . أن قولك لا تُثْخِطُ مُضْمَنٌ بالقول ، وقولك لا تُبْطِئُ مُضْمَنٌ بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوه ورووه ؛ ولو أن قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ اظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طُومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاظه ولا يَرَدُّد وهو يُكْتَفَى في الإفهام بسطه ، فما فَضِّلَ عن المقدار فهو الخطل .

وقلت لأبي الحسن الأَخْفَشَ : أنت أعلم الناس بالحق، فلمَ لا تجعل كتبَكَ مَفْهُومَةً
كلَّها؟ وما بالما نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالما تَقْدِّم بعض العوِص وتؤخِّر بعض
المفهوم؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبِي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها
هذا الوضع الذي تدعوني إليه قاتَّ حاجاتهم إلىَّ فيه . وأما غايَةُ المأالة ، فإذا أضع
بعضها هذا الوضع المفهوم استدعَوْهم حلاوة ما نعيموا إلى التماس فهمه . لم يفهموا . وأنا
قد كسبتُ في هذا المديراذ كنت إلى التكتُّب دَهِيساً ، وأمكن ما بل برايم النظام رفلان
وفلان يكتبون الكتب لله بزعيمهم ، ثمَّ دحدها سئل . هـ رافلهه رحمن زرد رِسْذَه عِناينه .
فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول له أن وسف السقي كتبه - - - - - حكي سائل من ربيعة
برين لاه اعلم يتقدم اليه رجلا والى - - - - -
ذلك خطا ولغوا - - - - - في عشر - - - - -
- - - - -

وجَهلاً بالسياسة وما يَصْلُح لكلِّ دهرٍ ، ووجدنا الناس اذا خَطَبُوا في صَلَاح بين العشائر اُطالوا ، واذا اُنْشَدوا الشعر بين السَّامِطِينَ في مدح الملوِك اُطالوا ؛ فلإِطالة مَوْضِعٌ وليس ذلك بِحَطَلٍ ، ولِلإِقلال مَوْضِعٌ وليس ذلك مِن عَجْزٍ .

ولو لا أَنِّي أَتَكَلَّ على أَنِّكَ لا تَمَلَّ باب القول في البعير حتَّى تَخْرُجَ الى الفيل ، وفي الذَّرة حتَّى تَخْرُجَ الى البُعوضة ، وفي العقرب حتَّى تَخْرُجَ الى الحَيَّة ، وفي الرُّجُل حتَّى تَخْرُجَ الى المرأة ، وفي الذَّبَّان والنَّحْل حتَّى تَخْرُجَ الى الغِرْبَان والعِقبان ، وفي الكَلْب حتَّى تَخْرُجَ الى الديك ، وفي الذَّبَّ حتَّى تَخْرُجَ الى الصَّبُع ، وفي الظِّلْف حتَّى تَخْرُجَ الى الحافر ، وفي الحافر حتَّى تَخْرُجَ الى الخُفِّ ، وفي الخُفِّ حتَّى تَخْرُجَ الى البُرْثَن ، وفي البُرْثَن حتَّى تَخْرُجَ الى الخَلْب ؛ وكذلك القولُ في الطير وعامةِ الأصناف ، رَأَيْتَ أَنَّ ذلك يُوجب المَلالَ ، وَيُعقِبُ الفَتْرَةَ المانعة من البلوغ في الفهم ، وتَعْرِفُ ما يُحتاج منه الى التَعَرُّفِ ، فرَأَيْتَ أَنَّ جُمْلَةَ الكُتَّابِ وَإِنْ كَثُرَ عدد ورقه ، أَنَّ ذلك ليس بِمَا تَمَلَّ من كثرةِ قراءته أَبداً وتَعَدُّ على فِيهِ بِالإِطالة ، لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ كُتَّاباً واحداً فَانَّهُ كُتِّبَ كَثِيرَةٌ ، وكلُّ مصحفٍ منها أَمَّ على حِدَةٍ . فَإِنْ أَرَادَ قِراءَةَ الجميع لم يَطُلْ عليه الباب الأوَّلُ حتَّى يَهْجُمَ على الثاني ، ولا الثاني حتَّى يَهْجُمَ على الثالث ، فهو أَبداً مُسْتَفِيدٌ ومُسْتَطْرِفٌ ، وبعضه يَكُونُ جَماعاً لبعض ، ولا يَزَالُ نِشاطُهُ زائداً ، ومتى خَرَجَ من آي القرآن صار الى أَثَرٍ ، ومتى خَرَجَ من أَثَرٍ صار الى خَبَرٍ ، ثم يَخْرُجُ من الخَبَرِ الى شَعَرٍ ، وَمِنَ الشَّعَرِ الى نَوادِرَ ، ومن النَوادِرِ الى حِكَمٍ عَقْلِيَّةٍ ومَقابِلِ سِدَادٍ ، ثُمَّ لا يَتْرِكُ هذا الباب فَعَلَهُ أَنْ يَكُونَ أَثَقِلَ ، والمَلالُ اليه أُسْرِعَ ، حتَّى يَقْضَى بِهِ الى مَرْحٍ وفُكاهَةٍ والى سُخْفٍ وخُرَافَةٍ . ولست أَرَاهُ سَخِيفاً إِذْ كُنْتُ إِثْمًا اسْتَعْمَعْتُ سِيرةَ الحِكماءِ ومَأدِبَةَ العُلَماءِ ، ورَأَيْنا الله تَبَارَكَ وتعالى إِذا خاطَبَ العربَ والأَعْرابَ اُتْخِرَجَ الكلامُ مُخْرَجَ الإِشارةِ والوَحْيِ والخَدَفِ ، واذا خاطَبَ بَنى إِسْرائِيلَ نُوحِيَ عَنْهُمْ جَمْعُهُ بِمِيسُوطٍ زَادَ في الكَلِمِ . فَادْبُوبُ الصِّمْلِ اتِّبَاعَ أَتَمِّ العُلَماءِ والأَحْذَاءِ

على مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة . وقال ابن يسير في صفة الكتب في كلمة له :

أَقْبَلْتُ أَهْرُبُ لَا أَلُو مُبَاعَدَةً * فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ فَلَمْ يُخَصِّنِي الْأَهْرَبُ
يَقْصُرُ أَوْسٍ مَا وَالَتْ خَنَادِفُهُ * إِلَى التَّوَاوِيسِ فَاَلْمَاخُورُ فَالْخَرِبُ
فَأَيُّمَا مَوْزِلٍ مِنْهَا أَعَصَمْتُ بِهِ * فَرَنْ وَرَأَيْ حَيْثُمَا مِنْهُمْ الْطَلَبُ
لَمَّا رَأَيْتُ بَأْتِي غَيْرُ مُعْجِزِهِمْ * فَوْتَنَا وَلَا هَرَبًا قُتِرْتُ أَحْتِجِبُ
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ جَذَلًا * جَارًا لِبَوَّةٍ لَا شَكْوَى وَلَا شَغْبُ
فَرَدًّا نَحْدَتْنِي الْمَوْتَى وَتَطِيقُ لِي * عَنْ عِلْمٍ مَا غَابَ عَنِّي مِنْهُمْ الْكُتُبُ
هُمْ مُؤَنَسُونَ وَالْأَلْفُ غَنِيَتْ بِهِمْ * فَلَيْسَ لِي فِي أَنْيَسٍ غَيْرِهِمْ أَرْبُ
لِلَّهِ مِنْ جُلَسَاءٍ لَا جَلِيسُهُمْ * وَلَا عَشِيرُهُمْوُ لِلشُّوْرِ مُرْتَقِبُ
لَا بِإِدْرَاتِ الْأَدَى يَخْشَى رَفِيقَهُمْ * وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ ذَرِبُ
أَبْقَوْا لَنَا حِكْمًا تَبَقَى مَنَافِعُهَا * أَنْتَرَى اللَّيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَأَتَشَعَّبُوا
فَأَيُّمَا أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدَتْ يَدِي * يَوْمًا إِلَيْهِ فَدَانٍ مِنْ يَدِي كُتُبُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْأَنْوَارِ رَفَعُهَا * إِلَى النَّجَى ثِقَاتٍ بِرَّةٍ تُجِبُ
أَوْشِئْتُ مِنْ عَرَبٍ عِلْمًا بِأَوَّلِهَا * فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْبَتْنِي بِهِ الْعَرَبُ
أَوْشِئْتُ مِنْ سِيرِ الْأَمْلَاقِ مِنْ عَجَمٍ * تُنْبِي وَتُخْبِرُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْوُ * وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقَبُ
يَا قَائِلًا قَصَرْتُ فِي الْعِلْمِ نَهْيَهُ * أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فَيَا قَالَ يَنْتَسِبُ
إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ بَانُوا بَعْلَهُمْ * خِلَافَ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَا مَاتَ مِنَّا أَمْرٌ أَبْقَى لَنَا أَدَا * كَوْنُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ كُنْكَسُ

وقال أبو وجرة وهو يصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستان وسقا :

راحت بستان وسقا في حقيبتها * ما حلت حملها الأدنى ولا السددا
ولا رأيت قلوفا قبلها حلت * ستين وسقا ولا جابت بها بلدا

وقال الرازي :

تعلمن أن الدواة والقلم * تبقى ويفنى حادث الدهر الغم

يقول كتابك الذي تكتبه على يبق فناخذني به وتذهب غنمي فيما يذهب . ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجوز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد واسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة قبل المساء .

وذلك مشهور في الحام الهدي : اذا جعلت بردا قال الله جل وعز ، وذكر سليمان ومملكه الذي لم يؤت احدا مثله ، فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوَلَا ذُبحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي رَسُولًا مُبِينًا ﴾ . فلم يلبث أن قال الهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا عَرْشُ عَظِيمٍ ﴾ . قال سليمان : ﴿ أَذْهَبَ يَكْأَبُ هَذَا فَأَقِمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عِفريت ومن بعض من عنده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أبهى وأنبأ وأكرم وأنعم من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب . وقالت ملكة سبأ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهٍ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يريد بعض الحلة الكبار وبعض الأدباء والحكماء أن يدعو بعض من يجري مجراه في سلطان أو أدب إلى مأدبة أو ندام أو خروج إلى ممتزة أو بعض ما ينسبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلان فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى وأنبه وأبلغ ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم ألا يكتب الكتب إلى كسرى وقيصروا والنجاشي

والمُقَوِّس وإلى بنى الجَلَنْدَى وإلى العَبَاهِلَةِ من حَمِير وإلى هَوْدَةَ بن على وإلى الملوك العظماء والسادة الثَّجَبَاءَ لفعل ولوجَدَ المُبْتَغِ المعصومَ من الخطأ والتبديل ، ولكنه عليه السلام علم أنَّ الكتاب أشبه بتلك الحال ، وأليق بتلك المراتب ، وأنَّه في تعظيم ما حواه الكتاب ، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعها الكتب لفعل ولكنه تعالى وعزَّ علم أنَّ ذلك أتمُّ وأكمل ، وأجمع وأنبَل ؛ وقد يكتُب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يتساكَل أو يتجرى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يتخرمه ويحتمه ، وربما لم يرضَ بذلك حتى يُعَنِّونه وُحُظُّه .

قال الله جل وعز : **أَمْ لَمْ يَبَيِّنْ بِنَايَ مُحَمَّدٍ مُؤْمِنٍ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ، فذكر مُحَمَّدٌ موسى الموجودة ومُحَمَّدٌ إبراهيمَ البائدة المعدومة ليعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانية تَوَرَّثَ البناتِ العينَ وتَوَرَّثَ البنين الدين ؛ وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤونة بالكفاية وكانت تقول : لا توزنوا الآبن من المال إلا ما يكون عوناً له على طاب المال . وأغذوه بحلاوة العلم وأطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال . ويرى أنه العدة والعتاد ، وأنه أكرم مُستفاد ، وكانوا يقولون : لا تَوَرَّثُوا الآبن من المال إلا ما يسد الخلة ، ويكون له عوناً على درك الفضول إن كان لا بد من الفضول ، فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فسادها ، وإن كان صالحاً كان فيما أورشنوه من العلم ، وبقيم له من الكفاية ما ينسبه الحال ، فإن الحال أفضل من المال ، ولأنَّ المال لم يزل تابعا للحال ، وفد لا يتبع الحال المال ، وصاحب الفضول بعرض فساد وعلى شفا إضاعة مع تمام الخنكة واجتماع القوة ؛ فسا ظنكم بها مع غرارة الحداثة وسوء الاعتبار وبلغة التجريب ؛ وكانوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعسة ، وأحاج . بأصل المتفعة وعملها في حبها . وفي ذلك التحذيرة الحسنة ، وأعطاك عاجل التغير وأحاج . وفلاسر . راضيه . راضيه . ذلك إلا كراه الكتب الفيسة المستهلمة على بنابيع العلم . راضيه . الأدم . مخرنة الصناعات وفرائد الإرفاق .

وحجج الدين الذي بصحته وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتتلج الصدور، ويعود القلب معمورا، والعزاسخا، والأصل فسيحا، وهذه الكتب هي التي تريد في العقل وتسحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه وتنفي الخبث عنه، وتفيدك العلم وتصادق بينك وبين الحق، وتعودك الأخذ بالثقة وتجلب الحلال وتكسب المال. ووراثه الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للمورث وكثر عند الوارث، إلا أنه كثر لا يجب فيه الزكاة ولا حق السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أخذ منها كان ذلك الكثر مائعا يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكورا في الحكماء ومُنوّها باسمه في الأسماء، وإماما متبوعا، وعالما منصوبا، ولا يزال الوارث محفوظا، ومن أجله محبوبا ممنوعا، ولا تزال تلك المحبة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى ورثته كتابا وأودعته علما ففد ورثته ما يغل ولا يستغل، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار، ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن يثار، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها نخرج، وسواء أفدته علما أو ورثته آلة علم، وسواء دفعت إليه الكفاية أو ما يحلب الكفاية، وإنما تجرى الأمور وتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء تحييب للأحياء، ونحيا لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأب جامعا بارعا وكانت موارينه كتبنا بارعة، وآدابا جامعة، كان الولد أجدر أن يرى النعل خطأ وأجدر أن يسرع التعلم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له، وأجدر أن يسرى إليه عرق من نجله وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطالب للكتب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأباء مقدار السعل بجمع الكتب. والاحتلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وإنما تُفسد الكفاية من تمت آدابه، وتوافت إليه أسبابه، فأما

الحَدَّثَ الْفَرِيرَ، وَالْمُنْقُوصَ الْفَقِيرَ، نَحِيرَ مَوَارِيثِهِ الْكَفَايَةَ إِلَى أَنْ يَلْبِغَ التَّامَّ، وَيَكِلَ لِلطَّلَبِ .
نَحِيرَ مِيرَاثٍ وَرَّثَ كَتَبٌ وَعِلْمٌ، وَخَيْرَ الْمُورَثِينَ مَنْ أَوْرَثَ مَا يَجْمَعُ وَلَا يُفَرِّقُ، وَيُصَرِّ وَلَا
يُعْمِي، وَيُعْطِي وَلَا يَأْخُذُ، وَيَحْسُدُ بِالْكُلِّ دُونَ الْبَعْضِ ، وَيَدْعُ لِكَ الْكَتَرِ الَّذِي لَيْسَ
لِلسُّلْطَانِ فِيهِ حَقٌّ، وَالرَّكَازَ الَّذِي لَيْسَ لِلْفُقَرَاءِ فِيهِ نَصِيبٌ، وَالنَّعْمَةَ الَّتِي لَيْسَ لِلْحَاسِدِ فِيهَا
حِيلَةٌ، وَلَا لِلصُّوْصِ فِيهَا رَغْبَةٌ، وَلَيْسَ لِلنَّصَمِ عَلَيْكَ فِيهِ حُجَّةٌ، وَلَا عَلَى الْجَارِ فِيهِ مَوْوَنَةٌ .

وَأَمَّا دِيمَقْرَاطُ فَإِنَّهُ قَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ كِتَابٍ عِلْمٌ وَضَعَهُ
أَحَدٌ مِنَ الْحِكَمَاءِ ثَمَانِيَةَ أَوْجِهٍ، مِنْهَا الْهِمَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ، وَالنَّسْبَةُ وَالصَّحَّةُ، وَالصَّنْفُ وَالتَّأْلِيفُ،
وَالْإِسْنَادُ وَالتَّنْدِيرُ، فَأَوَّلُهَا أَنْ تَكُونَ لِصَاحِبِهِ قِيَمَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا وَضْعٌ مَنْفَعَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ
نِسْبَةٌ يَنْسَبُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَكُونَ صَحِيحًا، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى صَنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الْكُتُبِ مَعْرُوفًا بِهِ،
وَأَنْ يَكُونَ مُؤْتَلَفًا مِنْ أَجْزَاءِ نَحْسَةٍ، وَأَنْ يَكُونَ مُسْنَدًا إِلَى وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ الْحِكْمَةِ، وَأَنْ يَكُونَ
لَهُ تَدْبِيرٌ مُوصُوفٌ . فَذَكَرَ أَنْ أَقْرَاطُ قَدْ جَمَعَ هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ الْأَوْجِهَ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ
كِتَابُهُ الَّذِي يُسَمَّى «أَفُورِيسْمُوا» تَفْسِيرُهُ: كِتَابُ الْفُصُولِ . وَقَوْلَاكَ وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِ الْكَلْبِ
مَعَ لَوْمٍ أَصْلَهُ ، وَخُبْتُ طَبْعَهُ ، وَسُقُوطُ قَدْرِهِ ، وَمَهَانَةُ نَفْسِهِ ، وَمَعَ قَلَّةِ خَيْرِهِ وَكَثْرَةِ شَرِّهِ ،
وَأَجْتِمَاعِ الْأَهَمِّ كُلِّهَا عَلَى آسْتِسْقَاطِهِ وَآسْتِسْفَالِهِ ، وَمَعَ ضَرْبِهِمُ الْمَثَلِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَمَعَ
حَالِهِ الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا مِنَ الْعَجْزِ عَنْ صَوْلَةِ السَّبَاعِ ، وَأَقْتِدَارِهَا ، وَمِنْ تَمَنُّعِهَا وَتَشْرِفِهَا
وَتَوْحُّشِهَا ، وَقِلَّةِ إِسْمَاحِهَا ، وَعَنْ مَسَالِمَةِ الْبَهَائِمِ وَمُوَادَعَتِهَا ، وَالتَّمَكُّينِ مِنْ إِهَامَةِ مَصْلَحَتِهَا ،
وَالِاتِّفَاعِ بِهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي طَبْعِهَا دَفْعُ السَّبَاعِ عَنْ أَنْفُسِهَا ، وَلَا الْإِحْتِيَالِ لِمَعَاشِهَا ، وَلَا
الْمَعْرِفَةِ بِالْمَوَاضِعِ الْحَرِيْزَةِ مِنَ الْمَوَاضِعِ الْمُخَوِّفَةِ . وَلِأَنَّ الْكَلْبَ لَيْسَ بِسَبْعٍ تَامٍ وَلَا بِهَيْمَةٍ تَامَةٍ
حَتَّى كَأَنَّهُ مِنَ الْخَلْقِ الْمُرَكَّبِ ، وَالطَّبَائِعِ الْمُلَفَّقَةِ ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُجْتَلِبَةِ ، كَالْبَغْلِ الْمَتَلَوِّنِ فِي أَخْلَاقِهِ
الكَثِيرِ الْعِيُوبِ الْمَتَوَلِّدَةِ عَنْ مِزَاجِهِ ، وَتَشْرِطِ الطَّبَائِعِ مَا تَجَاذِبُهُ الْأَعْرَاقُ الْمُتَضَادَّةُ وَالْأَخْلَاقُ
الْمُتَفَاوِتَةُ ، وَالْعُنَاصِرُ الْمَتَبَاعِدَةُ ، كَالرَّاعِيِّ مِنَ الْحَمَامِ الَّذِي ذَهَبَتْ عَنْهُ هِدَايَةُ الْحَمَامِ ، وَشَكَلَ
هَدِيرَهُ وَسُرْعَةُ طَيْرَانِهِ ، وَبَطَلَ عَنْهُ عُمْرُ الْوَرَشَانِ ، وَقُوَّةُ جُنَاحِهِ ، وَشِدَّةُ عَصَبِهِ ، وَحَسَنُ

صوته ، وشجا حلقه ، وشكل لحونه وشدة إطرابه ، وأحتماله لوقع البنادق ، وجرح الخالب .
وفي الراعي أنه مُسرول مُنقل ، وحدث له عَظَمَ بدن وثِقَلَ وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه .
وكذلك البغل خرج من بين حيوانين يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما ،
وهو لا يعيش له ولد وليس بَعِيق ، ولا يَبِيقُ للبغلة ولد وليس بعاقرة ؛ فلو كان البغل عَقِيا
والبغلة عاقرا لكان ذلك أزيدَ في قوتها وأتمَّ اشتتها ، فمع البغل من الشبق والتعظ ما ليس
مع أبيه ، ومع البغلة من الشؤس وطلب السِّفاد ما ليس مع أمها ؛ وذلك كله قدح في القوة
ونقص في البنية ، وخرج عُمر موله أعظمَ من غراميل أعمامه وأخواله ، فترك شبههما ونزع
الى شيء ليس له في الأرض أصل ، وخرج أطولَ عُمرًا من أبويه وأصبرَ على الأثقال من
أبويه ؛ أو كابن المذكرة من النساء ، والمؤنث من الرجال ، فإنه يكون أخبث نتاجا من البغل
وأفسد أعراقا من السَّمع ، وأكثر عيوبًا من العِسابر ، ومن كلِّ خَلْقٍ خُلِقَ إذا تركب من
ضد ، ومن كلِّ شجرة مُطعمَةٌ بخلاف ؛ وليس يَعْتَرِي مثل ذلك الخِلَاسِيَّ من الدَّجاج ،
ولا الوردانيَّ من الحَمَامِ ؛ وكلَّ سَعَفٍ دخل على الحِلْقة . وكلَّ رِقَةٍ عَرَضَتْ للحيوان ، فعلى
قدر جنسه وعلى وزن مِقداره وتمكّنه يظهر العَجْز والعيب . وزعم الأصمعيّ أنه لم يسبق
الحلبة فرس أهْضَمَ قط . وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بَلَقاء .

والهداية في الحسام والقوة على بعد الغاية إنما هي للصحة من الخضر . وزعموا أن
الشياطين كلها ضعفاء وقصص ، والشدة : كل لون دخل على لون . وقال الله حل وعز : (قَالَ إِنَّهُ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ذَوَلْ يُزِيزُ الْأَرْضَ رَأْسُهَا) فسق الحربة مسنة لآسية فيا . وزعم عثمان
ابن حكيم أن البراءة من الموت أسرا حال أبيه وأرد خصال أمة فتنجمع

(١) صبح که اسپین و کادیب و العین المیده را دست مراصع وهو سبع مرکب فيه ستة الصع وقوف وحرارة البت وحده راسه - سرال لریح - ص ١٦٦ - (٢) السار کسر العین والمالین الساکنه والذی سباده رقیق مرابضه - ص ١٦٦ - جمع حاد اسوا ابته یح ٢ ص ١٣٩ -
(٣) احمره - لریح مرص مرصه - واثین داحتین هیده واورسه (٤) الوردانی
سره امهه - لریح مرص مرصه - واثین داحتین هیده واورسه

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي ، وأنه اذا خرج كذلك لم يُنجع فيه أدب ولا يطمع في علاجه طيب ، وأنه رأى في دور نفيف قتيّ اجتمعت فيه هذه الخصال ، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبرُ ذنب كان ينسب اليه .

وزعمت أنّ الكلب في ذلك كان الحُنثى الذي هو لا ذكر ولا أنثى ، أو كان الحصى الذي لما قُطِع منه ما صار به الذكر فخلا خرج من حدّ كمال الذكر يفقدان الذكر ، ولم يكمل لأن يصير أنثى للغريزة الأصلية وبقية الجوهرية ، وزعمت أنه بصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحرّ ، فخرجته من حدّ الخل ، ولا يدخله في حدّ النبيذ . وقال مرداس بن خذام :

سَقِينَا عَقَالًا بِالنَّوِيَةِ شِرْبَةً * فَمَالَتْ بُلْبُ الْكَاهِلِيَّ عِقَالِ
فَقُلْتُ اصْطَبَحْتُهَا يَا عِقَالُ فَإِنَّمَا هِيَ الْخَمْرُ خَلَّتْ لَهَا بَحْيَالِ
رَمَيْتُ بِأَمِّ الْخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ * فَلَمْ يَنْتَعِشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالِ

بفعل الخمر أُم الخلل قد يتولد عنها ، وقد ينولد عن الخل إذا كان خمراً مرة الخمر .

وقال سعيد بن وهب

هَلَّا وَأَنْتَ بِمَاءٍ وَجْهَكَ تُسْتَهِي رُوذُ السَّبَابِ قَلِيلُ شَعْرُ الْعَارِضِ
فَالْآنَ حِينَ بَدَتْ بِجَذِّكَ لِحْيَةً * دَهَبَتْ مِلْحُكَ مَلءَ كَفِّ الْقَابِضِ
مَلَّ السَّلَافَةُ عَادَ خَمْرُ عَصِيرِهَا * بَعْدَ اللَّذَازَةِ خَلَّ حُمْرُ حَامِضِ

ويصير أيضا كالسعر الوسط والغناء الوسط ، والنادرة الفائرة التي لم تخرج من الحرّ الى البرد فتضحك السنّ ولم تخرج من البرد الى الحرّ فتضحك السنّ .

باب الرسائل

١ - الفصول المتخبة من الرسائل المختارة في كل فن^(١)

كتب رجل الى صديق له .

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التي كانت فيهم ، وإنك قد كنت أخذت في مَدرجتهم فأوفيت على غايتهم ، ثم آخلتك الهوى ببعض جديلتك وجودك ، من لباس فضلك الذي كنت تطول به على أكفائك ، وتملك به أعنة كافة جندك ، وألقيت مالك على شر عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره عنك .

فصل - قيل : إن مروءة الرجل في نفسه تسب لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عُرف له ، وبقي في الأعقاب والأصحاب ، ولقي يوم الحساب .

فصل - إن حق الله على المسلمين أن ينظروا في دينهم بالنصيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بدل الهوى بالتقوى في قلوبهم ، وماتت سورة الغضب فيهم لأحلامهم ، وسكنت العامة الى عدلهم وذات لإنصافهم . وإذا كان للحسن من الحق ما يقنعه ، وللظالم من النكير ما يقمعه ، بذل المحسن الحق عليه رغبة ، وذلل المسيء بالحق عليه رهبة . فأقول ما أمرك به رجاؤه الله وتقواه . فأما رجاؤه فإن تحسن به في الصنع إذا أطلعت ، ويكون لك وقاية إذا آتته مطمئنا . وأما تقواه فإن تكون له فيما أمرك به ونهاك عنه مراقبا ، فإن يقية المؤمن تزيد في أنسراح صدره ، وإن شدة خوفه ترد هواه على عقله .

(١) سلا عن اخبار الميرزا والدرر من صيدو .

(٢) ايجية : سادة راحة بالصريقة .

فصل — تَبَّه اِذَا نُبِّهْتَ، وَأَذْكُر اِذَا ذُكِّرْتَ، وَأَنْتَفِع فَقَدْ وُعِظْتَ، وَأَسْمِع فَقَدْ نُودِيتَ، نَبِّهَكَ الْوَعِيدُ، وَحَذِّرَكَ الزَّاجِرُ، وَأَمْرَكَ نَهَاكَ الْكِتَابُ، وَنَعْتَكَ آثَارُ الْمَوْتِ، وَدَعَاكَ إِلَى الْجَنَّةِ مَلِيءُ جَوَادٍ، فَالْجِدْ الْجِدَّ، فَقَبِلِ الْمَهْجَرَ يُرِيحُ الْمَذْلَجَ .

فصل — مَا نَظَرْتُ فِي مَعْرُوفٍ عِنْدَ أَحَدٍ، فَوَجَدْتُهُ قَصُرَ عَنْ أَمَلِهِ وَكَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ مِنْهُ، إِلَّا عِدَدُهُ سَيِّئَةً لِي عِنْدَهُ، لِأَنِّي ذَوَّقْتُهُ مَا أَحَبُّ، ثُمَّ مَنَعْتُهُ إِيَّاهُ، وَكَأَنِّي قَصَدْتُ لِإِشْخَاصِ قَلْبِهِ . وَلَا نَظَرْتُ فِي مَعْرُوفٍ عِنْدَ أَحَدٍ فَوَجَدْتُهُ قَدْ تَنَاهَى عِنْدَ تَنَاهَى أَمَلِهِ وَكَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ مِنْهُ، إِلَّا رَأَيْتُنِي فِي ذَلِكَ وَاتَّرًا لِنَفْسِي، لِأَنَّهُ كَفَى عِيَالَهَا وَإِزْرَاءَ بَهَا، أَنْ أَقْنَعُ ... فَضِلْ نَتَّخِذْهُ بِمَثَلِ مَا أَقْنَعُ رَجُلًا مِنْ فَضْلِ يَتَّخِذْهُ عَلَيْهِ .

فصل — مَا أَنْتَ مِنْ يَعْزَمُ مِنْ جَهْلٍ بِهِ، وَلَا تُحَسِّسْ مِنْهُ بَادِرَةً زَلَّةً، وَلَا يُقَابِلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا عَرَفَ خَيْرَهُمَا فَآثَرَهُ، وَشَرُّهَا فَاجْتَنِبْهُ . وَقَدْ رَأَيْتَ مَا سَاقَتْ إِلَيْكَ الطَّاعَةُ مِنْ حَظِّ الْعَاجِلَةِ، فَلَا تُتَعَرِّضْ لَزَوَالِ مَا أَنْتَ فِيهِ، فَتُخْشِرَ الْحَظَّيْنِ، وَتَتَدَمَّ فِي الدَّارَيْنِ؛ فَقَدْ رَأَيْتَ مِنْ عَائِدِ الْحَقِّ كَيْفَ صَرَعَهُ اللَّهُ وَبَسَطَ يَدَ وَلِيِّهِ عَلَى سَفْكِ دَمِهِ، وَإِحْلَالَ النِّقْمَةِ بِهِ، فَصَارَ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الْأُمْنِيَّةِ مِثْلًا، وَجَمِيعِ الْخَلْقِ غَايَةً وَأَمَلًا، فَكُرَّةً فِي الْإِعْتِبَارِ، وَعِظَةً لِلْأَبْصَارِ . فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَخَتَرَ، وَذَهَبَ عَنِ الْحَقِّ وَأَذْبَرَ . وَأَنْتَ الْيَوْمَ مُحْكَمٌ فِي أَمْرِكَ، مُخَيَّرٌ فِي رَأْيِكَ، تُدْعَى إِلَى حَظِّكَ بِالْخَطِّ الْجَزِيلِ بِتَدَلُّلٍ . فَاهْتَبِإْ مَا قَدْ هَدَفَ لَكَ وَهُوَ مُمَكِّنٌ لِيَدِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ أَهْمَلْتَ وَتَرَاخَيْتَ . لَمْ يَكُنْ بِالْحَقِّ وَوَلِيَّهُ وَحِشَةً إِلَيْكَ، وَمَضَتْ أَحْكَامُ اللَّهِ فِي نَصَرِهَا وَتَأْيِيدِهَا عَلَى أَذْلَالِهَا^(١) . وَصَفِرَتْ يَدُكَ بِمَا لَا يُسْتَرْفَ لَكَ بِمِثْلِهِ، وَأَخْطَرْتَ بِدَمِكَ وَأَسَلْتَهُ أَخْبَثَ مَسِيلٍ وَأَضَلَّ سَبِيلٍ، حَيْثُ لَا تَبْكِي عَلَيْكَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .

(١) بِأَضَى فِي الْأَصْلِ . وَلَعَلَّهُ : أَنْ أَقْنَعُ نَهَى بِفَصْلِ اتَّخَذَهُ بِمَثَلِ مَا أَقْنَعُ رَجُلًا أَح .

(٢) عَلَى أَذْلَالِهَا : عَلَى وَجْهِهَا وَطَرَقَهَا .

فصل — الناس رجالات : عالم لا غنى به عن الازدياد، وجاهل به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما يبيده من الأمور معداً ، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادراً وفيّاً .

فصل — إن أنت عطّلتنا من أمورك ، وأعفيت ظهورنا من أنفالك ومؤونتك ، وتركنا أغفالا في ولايتك من تهيبك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلة من لا خير عنده ، وجعلت نفسك أسوة من لا معين له ، وكفى بذلك ظلماً .

فصل — إن إعلامي إياك ... غير محدّد شيئاً ، ولكنه أقرب من الجميل في معرفة عذر المعتذر ، وأحمل للأئمة على المسيء المقصر .^(١)

فصل — الذي آتّمدا عليه من رأيك ، وثيق به من جميل نظرك ، قد خلطني بأهل صنائعك ، والخاصة من ثقاتك ، وبسط أمل فيك الى غاية خير يُرتجى ، أو جزيل حظ يؤمّل .

فصل — ليس يسوغ لأحد في الأمير أمل ، ولا يتوجّه اليه منه رغبة ، ولا يلزمه في قضاء حقه ، ودانة مؤنته إلا وفضله مستغرق لها .^(٢)

فصل — من أحمّد الأمور وأجل المذاهب ، ما كان آخره موصولا بأوله ، ومؤدياً بدؤه الى حمّد عاقبته ، حافظ على الأمور التي حَسُنَ فيها عند أمير المؤمنين أترك ، مستقيلاً فيها لكثير ما يكون منك ، مُعتدّاً بها في النعم عندك ، والإحسان الواصل اليك ، فيما بوفقت الله له منها ويخصّصك به من الفضل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك ، ويستتممه في النعمة فيك .

فصل — قد كان يجب أن تجعلنا بمتابعة النعم علينا في خاصّة الشاكرين لفضلك ، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات إلينا في عادة الشاكرين لك .

(١) يباصر في لأصل . واعل الكفة المتروكة «بحاجتي» . والظاهر أن كلمة «محدّد» محذوفة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصل — عِلْيَى بِمَا بَنَى اللَّهُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ الْأَمِيرِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ، وَجَمَلَ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِ، وَبَتَّ الْفَضْلَ عَلَى مُتَمَيِّسِي فَضْلِهِ، يَبْعَثُنِي عَلَى الْكِتَابِ فِي مِثْلِ مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ فِيهِ، مِنْ ظُلَامَةِ مَظْلُومٍ يَسْتَعِيزُ فِيهَا بَعْدَهُ، وَحَاجَةِ مُلْهَوْفٍ يَرْجِعُ فِيهَا إِلَى فَضْلِهِ، فَاجْمَعْ إِلَى مَا أَلْتِمَسُ مِنَ الثَّوَابِ فِي ذَلِكَ مُوَافَقَةً رَأَى الْأَمِيرُ، وَإِذْ كَارَهُ مَا يَجِبُ أَنْ يَذْكُرَ بِهِ، فَزَادَ اللَّهُ الْأَمِيرَ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَوْزَعَهُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا مَا يُوجِبُ لَهُ تَتَابُعَهَا عِنْدَهُ، وَتَرَادُفَهَا لَهُ.

فصل — أَنْتَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِنْ أَحْتَمَلِ الصَّنِيعَةِ، وَقِيلَ الْأَدَبِ، وَصَدَقَ الْخَيْلَةَ وَخَاصَّ عَلَى الْإِحْنَةِ وَحَسَنَ الظَّنِّ، فَاسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ وَقَدِمَهُ جَمِيلُ مَذْهَبِهِ وَآثَارِهِ، وَجَرَتْ عَلَى قَصْدِ السَّبِيلِ طَاعَتُهُ، وَاسْتَدَّتْ عَلَى السَّرِيرَةِ وَالْعَالَانِيَةِ مُصَاحَّتُهُ، فَاصْبَحَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَنَاهَى فِي بَرِّكَ وَتَكْرِمَتِكَ، إِلَّا رَأَاكَ مُسْتَحَقًّا لَهَا وَلِمَا فَوْقَهَا، وَلَا يَرْفَعُكَ إِلَى دَرَجَةٍ إِلَّا رَأَاكَ أَهْلًا لِأَشْرَفِ مَنَاهَا، صُنْعًا مِنْ اللَّهِ لَكَ بِمَا وَقَفَّكَ لَهُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَوَهَبَ لَكَ مِنْ جَمِيلِ مَرَاتِبِهِ، وَالْمَكَانِ مِنْهُ وَالْأَثَرِ عِنْدَهُ.

فصل — فَضَّلْ مِشَارَكَتَنَا إِيَّاكَ فِي مَحْبُوبِ الْأُمُورِ وَمَكْرُوهِهَا يَحْمِلُنَا فِي السَّرُورِ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَكَ — بِخِدْدِهَا اللَّهُ لَكَ — وَيُوجِبُ الشُّكْرَ بِمَا يَكُونُ لِحَقِّهَا قَاضِيًا، وَلِلزَّيْدِ فِيهَا مُوجِبًا.

سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ — شُغْلُكَ يَقْطَعُنَا عَنْ مَطَالَبَتِكَ بِالْحَقِّ فِي جَوَابَاتِ كُتُبِنَا إِلَيْكَ، وَصَدَقَ مَوَدَّتَنَا لَكَ يَمْنَعُنَا مِنَ التَّقْصِي فِي الْحُجَّةِ عَيْدٍ. — وَمَنْ يَكُفُّكَ أَنْ رَأَيْتَ فَإِنَّهُ لَا يَفِي بِكَ إِلَّا لَكَ، صَلَاحُ إِخْوَانِكَ وَالتَّعَاهُدُ لَهُمْ مِنْ بَرِّكَ، بِمَا يُسَبِّهُ فَضْلَكَ وَالنِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ فَيْكَ.

وَفُلَانُ بَنِي وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ أَقْدَمَهُ بِهَا عَلَى الْأَخْوَةِ بِأَنَّ هَمَّهَ قَرَبَ مَا بَيْنَ الْمَوَدَّةِ وَالْقَرَابَةِ، وَقَدْ بَلَوْتُهُ عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا، فَلَمْ يَزِدْنِي أَحْتِبَارَهُ إِلَّا اخْتِيَارًا لَهُ، وَلَا أَعْلَمُ بِالْعَسْكَرِ جَلِيلًا إِلَّا وَهَوَى صَدِيقٍ، يَشْكُرُ بِشُكْرِهِ وَيُوجِبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمِنَّةَ مِمَّا آتَى إِلَيْهِ بِفَاةٍ مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِهِ فَاسْتَأْعِلَ عَنْ قَضَاءِ حَقِّهِ، وَلَا أَتَأَخَّرُ عَنْ مَعْرُوفِ أَسَدِي لَهُ. — فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ

تَحْلَهُ بِالْهَلِّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ بِنَفْسِهِ وَسَلَفِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ سَوْقَ الْإِحْرَارِ أَنْفَقَ مِنْهَا عِنْدَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ؛ أَبِى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَقْيَمِكُمْ وَرَحِمَ مَاضِيَكُمْ .

فصل — إِنَّ أَحَدًا لَيْسَ بِمُسْتَخْلَصٍ شَيْئًا مِنْ غَضَارَةِ عَيْشٍ إِلَّا مِنْ بَيْنِ خِلَالِ مَكَارِهِ ، فَمَنْ آتَنَظَرَ بِعَاجِلِ الدَّرَكِ آجَلَ الْإِسْتِقْصَاءِ سَلَبَتْهُ الْأَيَّامُ فُرْصَتَهُ ، لِأَنَّ مِنْ صِنَاعَتِهَا السَّلْبَ ، وَمِنْ شَرَطِ الزَّمَانِ الْإِفَاتَةَ .

فصل — إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ جَلَّ فَضْلُهُ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى تَعْدَادِهِ اجْتِهَادٌ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَكَانَ الْأَمِيرُ يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْنَا ، وَيَسْتَوْجِبُهُ مِنَّا .

فصل — قَدْ أَصْبَحَ الْمُخْتَلِفُونَ مَجْتَمِعِينَ عَلَى تَقْرِيزِهِ وَمُدْحِهِ ، حَتَّى إِنَّ الْعَدُوَّ يَقُولُ أَضْطَرَارًا مَا يَقُولُهُ الْوَلِيُّ آخْتِيَارًا ؛ وَالْبَعِيدُ يَثِقُ مِنْ إِنْعَامِهِ عَلَيْنَا بِمَا يَثِقُ بِهِ الْقَرِيبُ خَاصًّا .

فصل — الْمَائِلُونَ إِلَيْهِ بَيْنَ نَعَمٍ مُكْتَنِفَةٍ مِنْ تَالِدٍ بِهِ يَسْتَدِيمُونَهُ ، وَطَارِفٍ مِنْهُ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَمَوَاهِبَ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَفَوَائِدَ مُتَرَادِفَةٍ ؛ هِيَ بِمَسْوُطَةٍ بِهِ إِلَى بَرَكَةِ أَيَّامِهِ ، وَعُلُوِّ حِظِّ^(١) مَنْ أَتَصَلَ بِهِ ، فَزَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَزَادَ أَوْلِيَآءَهُ بِهِ وَبِرَكَّةِ دَوْلَتِهِ .

فصل — اعْتَمَدْتُ أَحَا لَا يُدْتَمُّ إِخَاؤُهُ ، وَلَا تُشْكَرُ أَحْوَالُهُ ، عَلَى بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا ، وَاتِّصَالِ الْمَكَاتِبَةِ وَأَنْقِطَاعِهَا ؛ تَجِدُهُ مُتَصَرِّفًا مَعَكَ فِي الْخُطُوبِ الَّتِي يَطْرُقُ بِهَا الزَّمَانُ ، وَيَدَا لِكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُبْتَحَنُ فِيهَا الْإِخْوَانُ .

فصل — أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَطُولُ بِهِ فِيهِ مِنَ الْجَلَالَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعْيُونِ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ مَوْصُولًا بِالْإِنْسَاءِ فِي مُدَّتِهِ ، وَالْإِدَامَةِ لِعَزِّهِ وَسَلَامَتِهِ ، وَالْأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وَكَلِمَتِهِ .
أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ — عِنْدِي فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، فَإِنْ كُنَّا مِنْ شَأْنِكَ فَقَدْ آذَنَّاكَ .

فِي صِفَةِ حَرْبٍ — كَانَتْ لَكُمْ الْكَرَّةُ ، وَعَلَيْهِمُ الدَّبْرَةُ ؛ فَحَمَلُوا حِمْلَةً كَاذِبَةً ، أَتْبَعْنَاهَا بِأُخْرَى صَادِقَةً .

فصل في هدية — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيون مَقَالِي ، دفترًا ظريف المعاني ، شريف المباني ، صحيح الألفاظ ، يَلْدُّ بأفواه الناطقين ، وَيَلِين على أسماع الصّامتين .

فصل في شفاعاة — لفلان قَبْلَكَ حاجة ، ليس يحتاج فيها الى مَعْدَلَتِكَ وَنَصِفَتِكَ المبسوطتين لمن لا يتوسَّل بِمُخْطَطِكَ ومعرفتكَ ، ولكِنَّه يريد ما في ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المذخورين للخاصَّة والإخوان .

فصل لرجل تميمي — ضَعُف حالي يدعوني الى كثرة الطلب ، ومَعْرِقِي بِجَمِيل رأيك تحجزني عن الإلحاح عليك ، خوفًا أن أكون جاهلاً بعنايتك ، وحسن نظرك ، والكرم يستحي بعضه لبعض ، ويبعث بعضه بعضًا ، ودين حيلته الغير على العقود ، فبعثه كرمه للنهوض ، أودعاه هواه الى المنع ، بجأه عقله على البذل ؛ وحالي جانحة لدى فضلك ونعمة الله عليك من سدَّ خَلَّتْها ، ومدَاوَاةِ عِلَّتْها بِجَاهِكَ الواسع ، وَرِفْدِكَ النافع .

أحمد بن يوسف — قد بَدَلَتْ لَنَا من نفسك أَعَزَّ مَبْدُول وَأَنْفَسَه ، والمودَّة التي كلما يُجْعَد من صاحبها ، فهو لها نافع . وثَقُتْنَا بِكَ واستنمنا الى ناحيتك ، على أحسن ما أكَدَ الله بيننا وبينك . وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يَطُلْ فَأَتَمَّلْ منه ما يراءه أهل الوفاء والمخالصة ، ويقصِّر في المحافظة عليه وعلى أَكْثَرِ منه ، من دُخِلَتْ نَيْبَتُهُ . وَضَعُفَتْ خُلَّتُهُ .

فصل — قد أَصْبَحْتَ لخاصَّةِ عُدَّة ، وللعامة عَصْمَة ، ولالأنام نقة في مناصحتك .

فصل في الصفح لأبي علي — ابْنُ الذي قَرَطَ مِنْكَ ، وإن تجاوزَ مني ما أَرْضَاهُ لَكَ ، لم يَبْلُغْ ما يُغْضِبُنِي عَلَيْكَ ؛ وحيث انتهى ما يحالفني من قولك وفعلك ، فإن وراءه تَعَمُّدًا مِنِّي لِإِسَاءَتِكَ وَصَفْحًا عَنْ زَلَّتِكَ ؛ فَإِنْ تَأَمَّنَّا لَا نَحْكَ ، وَإِنْ يَسُوْ ظَنُّكَ فَإِنَّمَا نَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحِهِ مِنْكَ .

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهدي في هدية استقلها :

بلغني استقلالُكَ لِيَا الطِفْتُكَ ، والذي نحن عليه من الأنس . مهل علينا قَلَّةَ الحشد لك في البر ، فأهدينا هديةً مَنْ لَا يَحْتَشِمُ إِلَى مَنْ لَا يَغْتَمُّ .

كتب عَقَّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله في شفاعه :

إِنَّ الله اتَّجَبَكَ مِنْ جَوْهَرَةٍ كَرَمٍ وَمَنْبَتٍ شَرَفٍ، وَقَسَمَ لَكَ خَطَرًا شَهْرَتُهُ الْعَرَبُ وَتَحَدَّثَتْ بِهِ الْحَاضِرَةُ وَالْبَادِيَةُ، وَأَعَانَ خَطَرَكَ بِقُدْرَةِ مَبْسُوطَةٍ، وَمَنْزِلَةِ مَلْحُوظَةٍ؛ بِجَمِيعِ أَكْفَائِكَ مِنْ جَمَاهِيرِ الْعَرَبِ، يَعْرِفُ فَضْلَكَ، وَيَسْرَهُ مَا خَارَ اللهَ لَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَدَالَهُ الزَّمَانُ وَلَا سَاعِدُهُ الْحَظُّ؛ وَأَنْتَ أَحَقُّ مَنْ تَعَطَّفَ عَلَى أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ، وَعَادَلَهُمْ بِمَا يُبْقِي لَهُ ذِكْرَهُ وَيُحْسِنُ بِهِ نَشْرَهُ، مِثْلُكَ . وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ فَلَانًا، وَهُوَ مِنْ دِينِيهِ قَرَابَتِي، وَذَوِي الْهَيْئَةِ مِنْ أَسْرَقِي، وَعَرَفَ مَعْرُوفَكَ؛ وَأَحْبَبْتُ أَنْ تُكَلِّسَهُ نِعْمَتَكَ وَتَصْرِفَهُ إِلَيَّ وَقَدْ أودعني وإياه ما تجده بَاقِيًا عَلَى النَّشْرِ، جَمِيلًا فِي الْغَيْبِ .

فصل في التوديع

أَسْتَدْعِي اللهَ الْأَمِيرَ بِأَحْسَنِ وَدَّاعِهِ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَ لِي كَنْفَهُ وَحِرْزَهُ، فَقَدْ أَكْرَمَ الْمَشُورَى، وَأَحْسَنَ الْإِتِّبَاعَ؛ فَأُطَالَ اللهُ لَهُ الْبَقَاءَ، وَأَدَامَ عَلَيْهِ النِّعْمَاءَ .

في الصفح

بَلَّغْنِي كِتَابَكَ، تَذَكَّرْتُكَ إِلَيْكَ بَوْضَعِي عَنْكَ مَوْجِدَتِي، وَرَدَّيْتُ لَكَ إِلَى أَحْسَنِ مَا عَاهَدْتُ مِنْ مَنْزِلَتِكَ عِنْدِي؛ وَقَدْ حَلَلْتُ مِنَّا الْحَلَّ الَّذِي خَطَطْنَاكَ فِيهِ بَأَنْفُسِنَا، وَأَدْخَلْنَاكَ مِنْهُ مِدَاخِلَ أَهْلِ ثِقَتِنَا؛ وَلَسْتُ تَوْقِي مِنْ جِهَالَةٍ بِمَا أَنْتَ فِيهِ، وَلِبَعْضِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ التَّجَارِبِ تُسْتَفَادُ بِمَثَلِهَا الْعِبَرُ، وَيُتَنَفَّعُ بِهَا فِي عَطْفِ الْأُمُورِ .

جواب في فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قَتَلَ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ :
قَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابُكَ بِمَا أَبْلَى اللهُ فِي مِذْرِهِ السَّوَاءَ، وَأَنَّهُ لَمَّا عَظَّمَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَلْهَمَهُمُ الْحَدِيدَ، عَادُوا بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، قَدْ أَكْذَبَ اللهُ ظَنُونَهُمْ، وَخَذَلَ تَحْرُجَهُمْ، وَقَتَلَ إِمَامَ ضَلَالَتِهِمْ؛ وَحَفِظَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا ضَيَّعُوا مِنْ حَقِّهِ، وَحَاطَ لَهُ مَا أَبَاحُوا مِنَ الْغَدْرِ فِيهِ؛ وَقَدْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ يَجْعَلَ مِنْ شُكْرِ اللهِ عَلَى نِعْمِهِ، الصَّفْحَ عَنْهُمْ، وَتَعَمَّدَ حَرَمَهُمْ

وأن يعمهم من عدله ، بما يردّ به الجاهل عن جهله ، والغوي عن غوايته ؛ ويعلمون مكانه من الله ، واستجابته لعزّه ونصره ؛ وأنه الخليفة المتّق ، والإمام المتألف ؛ وأنه يُقْتَم العفو في الطاعة ، على المجبة في العقوبة ، والحسبة في الاستصلاح ، على القوة في التأييد ؛ فأمسك عنهم بيدك ؛ فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّ الله ، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابه .

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر ، قلّدها عنان الهجر ، لم يكن أقرب منا الى الذنب ، ونحن نردّ عليك من نفسك ، ونأخذ لنفسك منك ، حتى يكون تركنا إياك ، وعذرنا فيه وافرا .

فصل — الحمد لله على البلية التي طال أمدّها ، وبعد ما بين طرفيها .

آخر — آفقت في الثبّت أناة ذوى الحجى ، وقدمت المقدم من الأناة على العجلة ، وأطعت في أمرك النظرة ، واتميت الى العُدرة والمعرفة ، فملكّت ما ملكك ، وحكمت على الذى حكم عليك ، فأخذت مثل الذى أعطيت .

فصل — بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها ، والخيرة بعد الله عز وجل .

فصل اعتذار

لو كان الناس يقضون الحقوق التي تجب عليهم ، ويحافظون على الأمور التي تلزمهم ، لقلت الائمة ، وخلصت المودة ، وارتفعت أسباب العتاب ؛ ولكنهم عجزة منقوصون ، يضعفون عن العلم ، بأكثر ما تدركه عقولهم ، وتوقعهم عن ذلك أشغال لا يجب بها المذر ، ولا تستحق الإيثار ؛ ولم أزل عاتباً على نفسى فيما ضيّعت من مكاتبتك . مع معرفتى بفضلك ، وموقع ذلك عندك ، وما اعتذارى اليك ، سوء ظنّ بك . ولا مخافةً للامتك ؛ ولئن فعلت ما ظلمت ؛ غير أنّى أحببت أن أكفيك المؤونة ، فيما عسيت أن تقبض عنه من مقايستى ومعاتبتى ؛ وأنا أحب أن تقبل العذر ، وتعين على مستقبل البرّ .

فصل - أنت في زمان إن لم تغالط أهله ، وتختلهم على ما في أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل إلى شيء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يقتسه من محاسنك شيء ، إلا رأى في مساوئ غيرك عوضا منه ؛ فكان بذلك أثلج ، وإليه أسكن ؛ فعليك بالصبر ، فإن غايته إلى خير ، وأقل ما فيه أنك صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولعاً يظفر أو يدلل .

إلى المأمون من عامل

قل من يسارع إلى بذل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مُضراً به ، وقل من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسبب مكتسبه ؛ وإذا تفرق الحق في أيدي جماعة فطوبى له ، تشابهت في الكثرة لبدله ، وتعاونت على دفعه ومنعه ، بالحيل والشبهة قولاً وفعلاً ؛ واحتاج المبتلى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة في مدافعتها .

ابن الكلبي

كان خبر ما أبلاك الله في فلان بعد أمانه ما عزمت عليه من الأمان ، خبراً عظم مكانه من أمير المؤمنين ، وحسن موقعه من الدين ؛ ثم ردف خبرك بإذعانه عند ما عضه من بأسك ، ومسه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عقد الأمان ؛ وإنك بذلت له ما طلب لا لرهبه بقيت في ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إباؤه ما عرضت عليه في أول أمره ذخيرة حظ فيما كشفت عنه البلوى من محمود أثرك ، واجتمع لك في ذلك حظان : الظفر آتراً ، والدرك لما حاولته أولاً ، فلا زلت على نصيبك من الخط ، مؤيداً بالنصر والمعونة ، والحمد لله على ما حقق من الظن ... من هذه النعمة على يدك وبسعيتك .

(١) بياض في الأصل . وليس الكلمة المذكورة «وآق» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة؛ فلم أرق قليلا أجمع، ولا إيجازا أكفا من إطناب، ولا اختصارا أبلغ في معرفة وفهم منه؛ وما رأيت كتابا على وجازته، أحاط بما أحاط، وضربت ظني في فلان فعظم ذلك سرورى، وقد يُستعطف الظالم، ويُستعجب المتجنى؛ وفي رفقك وعلمك بالأمور ما يُصلح الفاسد، ويُذلل الصعب، ويُقيل المدبر؛ ولا يمتنع جور من جار عليك، من الاعتقاد في الحجة عليه، والأخذ بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك منقصة ولا غضاضة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستبصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل — أنا في حال عافية، لتجاوز الى حال نعمة، والحمد لله حتى يرضى، فقد أرضى؛ فاقما ما أشرت به، وخبرت من إمضاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرضا لبعضه أن يتعدى،^(١) وذكرت أدب فلانية، وعندنا لفلانة الطمع المستقبل مع الإنعام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عندنا قل ولا جل، ولو كان ما استحلنا حبسه صفقة كف، ولا تغميض طرف؛ وذكرت أنه لا يستغنى مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيرة عتيده، وما بان علينا فقد أحد من كان قبلها في دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختالنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزءك، وحاط لي فيك ما أحب منك، وكفاك المهم وكفانيه بك، فما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي ورتى، والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعدمنيك الله ولا النصيحة منك.

فصل — قال أبو جعفر الكرمانى للحسن بن سهل ووعده شيئا فأبطأ عليه :
أما أعيرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك؛ وأعلم أت فعلك يُرني على قولك،^(١) وأت إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن يلحقه المتأخر

عنه، وإلا فدلّني على ما أقول اذا سألتني من بعثته على شكرك، عما بلغه من الحظ على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما ينبغي، فقال : فافعل ما ينبغي أقله .

عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على ظمأ مني اليه، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم مني على ما مسستني به ، من جفائك ، على كثرة ما تابعت من الكتب ، وعديمت من الجواب ، فكان أول ما سبق الى من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا بما تجدد لي من رأيك ، في المواصلات بالمكتبة ، ثم تضاعف المسرة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال في الهيئة ؛ ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج ، في ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلّص مما أنا مُحلّصك منه ، بالإغضاء عن إلزامك المحجة ، في ترك الابتداء والإجابة ؛ وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة ، لأجسدك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ؛ ويقنعني منك في كل شهر كتاب ، ولن [تُلزم] من نفسك في البر قليلا ، إلا ألزمت نفسي عنه كثيرا ، وإن كنت لا أستكثر شيئا منك ؛ أدام الله مودتك وثبت إخاءك ، وأستراح لي منك ؛ فرأيك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك موقفا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكد الله من حرمتي بك ، ووصل من الشعب يبنى ويملك . اجعله ذخيرة ليوم الحاجة ، وعدة عند مليّ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها ، وكثرة معاريض بفاعمها ، في اخترام الأنفس في خواصها . ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهدها ، ويفر من الأشياء عليها ؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه ، ولا حياة يُستعان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى ، والتسليم لأمره في كلّ ما أتى . والسكران الى الأموة التي نرج الله سبأها ، وخفف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة ، وهي متروكة في الاصل .

بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في مواطن الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية .

وله في المطر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمه المَطَرَةُ التي أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادت لنا بعدها من الله عائدةً رحمةً، بَوَلَّى مَطَرٌ أَنْزَلَهُ اللهُ بِأَحْسَنِ مَا رَأَيْنَا مِنَ الْمَطَرِ وَأَبْلَا جَوْدًا، لَا يَفْتَرُ غَزِيرَهُ وَلَا يَرْعَى جَوْدَهُ، إِلَّا إِلَى دِيْمَةٍ عَنْ دِيْمَةٍ، يَتَرَانِي إِلَيْهَا يَسِيرًا رِيثًا تَعُودُ، فَأَقَامَتِ عَلَيْنَا سَمَاءَهُ مُسْتَهْلَةً بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ ثُمَّ أَتَقَطَّعَ مَطَرُهَا بِسُكُونٍ مِنَ الرِّيحِ، وَقُتُورٍ مِنَ الْقَتْرِ، وَفَضْلٍ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٍ، يَشْرِبُهُ رَحْمَتُهُ، وَيَبْسُطُ بِهِ رِزْقَهُ، فَاسْبِغِ النِّعْمَةَ، وَأَوْسِعِ الْبَرَكَةَ، وَأَوْبَقِ بِحَمْدِ اللَّهِ مَعَارِفَ الْخُصْبِ وَالْحَمَى . وَاللَّهُ مَجْمُودٌ عَلَى آلَائِهِ وَمَشْكُورٌ عَلَى بَلَائِهِ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سُقْيَاهُ وَرَحْمَتِهِ، بَعْدَ الَّذِي أَقْبَلْتُ بِهِ السَّنَةَ الْبَرِيَّةَ وَالْقَحِطِ وَعَدَمِ الْإِمْطَارِ، وَشِدَّةِ مَا بَلَغَ النَّاسُ مِنَ الْفَنُوطِ وَسُوءِ الظَّنُونِ .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فَإِنَّ أَعْظَمَ الْأُمُورِ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ حَقًّا أَمْرَانِ: مِنْهُمَا الْإِخَاءُ فِي الدِّينِ، فَهُوَ سَبَبُ وَصِيَّةِ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْأُلُفَّةِ وَالْمَحَبَّةِ الَّتِي أَتَقَطَّعَتْ بِهَا قَرَائِنُ الْقُلُوبِ مِنْ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، فَاتَّصَلَتْ بِمَحَابِلِهِمْ مَرَاتِرُ حُبِّهَا . وَتَقَطَّعَتْ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَاطِفَاتُ وَصْلَانَا؛ وَهُنَّهَا بِمَجَامِلَةِ حَمِيلِ الْأَعْدَاءِ، وَحَفِظْتُ مَا يَحِقُّ لِأَهْلِ حَسَنِ الْبَلَاءِ؛ ثُمَّ الصَّنَائِعُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَوَاقِعِهَا فَضَائِلُ بِقَدْرِ مَا جَرَتْ بِهِ أَسْبَابُهَا وَلُطْفَتْ دَاخِلُهَا .

فصل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاقُ الجميلة . ويزيد في أسبابها أو أواصر المودة؛ وقد جعلك الله في صناعتك مُقَدِّمًا، وَفِي مَوْذَنْكَ مُتَفَضِّلًا؛ فَلَا زَالَتْ عَنْكَ نِعْمُ اللَّهِ، وَلَا بَرِحَتْ سَكَنًا لِإِخْوَانِكَ، وَأُنْشَأَ وَمَوْضَعًا لِمَا تَسْتَمِيحُونَ مِنْ مَعْرُوفِكَ، وَيَسْتَمِيرُونَ مِنْ يَدْبَرِكَ .

فصل - إنَّ لك من قلبي لموضعا معمورا بالموثقة والثقة ، والاسترسال
والأنسة ، فلا يُخرج فلانا من سعة جميل برك ، الى عُقبي استحقاقه .

آخر

قد طالبت الصباية اليك ، وللدهر عَقْبٌ عائدة بالنفع والصنع ، ولا سِيما لمن كان على
مثل شاكلتك في أدبك وفضلك وإنصافك لإخوانك وِرْكُ بهم ، وما توجهه على نفسك
لهم مما يَقْصرون عن شَأوك فيه .

الكلبي

كان أسلافنا تقارضوا دُيوننا من الصفاء يَسْتَأْذِنُها كُلَّ عَقِبٍ من صاحبه ، وقد أورثونا
موثقة لا نَعِجُزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أعين كاتب الخيزران

ليس يكون منك شيء وإن حَسُنْ ، إلا وحُسْنُ ظني بك يَلْغُه ، فاستمَّ أحسنَ ما كان
منك ، يتم لك أحسنُ ما يُحِبُّ مني . ولا يَمْنَعُكَ الا كُتْفَاءُ بِحَالِكَ اليومَ من طلب الزيادة
في غد ؛ فإنه لَقَلَّ شيءٌ لا يزيد إلا نَقْصَ ، والزمان يحقِّ الكثير ، كما يربو على الزيادة القليل .

ابن الكلبي

أنت من أطول بمكانه وأنيق بجميل رأيه ، وأعتمد على رِفْده ، وأرجو دَرْكَ كُلِّ فضيلة
به ؛ ومما أحب علمه مَقَرَّ نعم الله عز وجل لديك .

على بن عبيدة الى ابن الكلبي

وصل الله أيام عُمرى باتِّباع موافقتك ؛ ولولا موعد أخذ على ، لأطعُتك فيما أمرت به ،
مُتَّبِعاً مع إجابتك سرورَ نفسي برؤيتك في السلامة .

أما بعد ، إني أصبحت وقد استفرغ الأمبر مني كُلَّ موثقة ونصيحة ، وهبلغ جهدي
وطاقتي فيما عرفتُ له فيه موافقة .

فصل — فَإِنَّ الَّذِي شَعَبَ اللَّهُ بَيْنَنَا مِنَ التَّوَاصِلِ وَالتَّكَاتِبِ ، يَدْعُونِي إِلَى مُتَابَعَةِ الْكُتُبِ إِلَيْكَ فِي تَعَهُّدِ حَقِّكَ ، وَإِنْ كَانَ الْخَبْرُ عَنْ ظَاهِرِ الْحَالِ قَلْبًا يُغْنِي ، فَإِنَّكَ لَهُ مِنَ الْأَنْسِ وَالْمَوْقِعِ فِي الْكُتُبِ مَا لَيْسَ لِمُسْتَعْرِضَاتِ الْأَخْبَارِ .

فصل — قَدْ كُنْتُ أَعْلَمْتُ الْأَمِيرَ انْقِطَاعَ بَنِي فَلَانٍ إِلَى فَلَانٍ ، بِأَهْوَائِهِمْ وَبَصَائِرِهِمْ وَشِرَاءِ مَا قَبِلَهُ بَغِيرِهِ ، وَمَا كَانَ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي حَمَلُوا بِأَصْرِهَا ، وَيَبْقَى لَنَا أَجْرُهَا وَذِكْرُهَا وَنَافِقَتُهَا وَسَابِقَتُهَا ؛ فَنَحْنُ عِدَّةُ الْأَمِيرِ وَخَبَايَاهُ وَذَخَائِرُهُ ، وَمَنْ يَأْمَلُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَلَا مُتَخَطِّى لَهُ عَنْهُ وَلَا مُقْتَصِرٌ دُونَهُ .

عُمَارَةٌ

بَلْغَنِي كِتَابُكَ بِصِفِّ كَذَا . فَإِنْ رَأَيْتَ أَلَّا تَعْتِمِدَ عَلَى مَا لَصِقْتُ [بِهِ] مِنْ عَذْرِكَ ، وَأَطَعْتَ فِيهِ الْهَوَى مِنْ قَبُولِ عَفْوِكَ ، وَتَجْعَلُنِي أَحَدَ مَنْ يُسَرُّ بِسُرُورِكَ ، وَتُشْرِكُهُ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِكَ ، فَإِنِّي أَحُدُهُمْ وَأَوْسَطُهُمْ عِنَايَةً بِمَا عَنَّاكَ وَتَوَسَّطًا لِمَا عَمَّاكَ ، فَعَلْتُ .

فصل — وَالِدَتِي مِنْ دَارِكَ إِذِ الدَّارِ جَامِعَةٌ وَالْحَبْلُ مُتَّصِلٌ ، إِذْ نَحْنُ فِي الْإِسْتِيفَاءِ بِالْخَبْرِ وَالْعِلْمِ بِدُخْلَةِ الْحَالِ ، بِمَنْزِلَةٍ مِنْ كَأَنَّهُ يُعَانِي مَنْ يَسْتَأْذِنُ إِلَيْهِ وَيَصُوبُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، حَتَّى نَأْتِيَ النُّوَى ، وَأَنْتَ فِي اللَّقَاءِ وَالْإِنْظَارِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ مَنْ لَا يُسَكِّ فِي صِفَاءِ غَيْبِهِ ، وَصَدَقَ إِخَانُهُ .

فصل — مُشَارَكَتُنَا إِيَّاكَ فِي مَحَبُوبِ الْأُمُورِ وَمَكْرُوهِهَا يَحْلُلُنَا مَحَلَّكَ فِي السَّرُورِ بِالنِّعْمَةِ يَحْدِّدُهَا اللَّهُ لَكَ ، وَيُوجِبُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْنَا مِثْلَ الَّذِي يُوجِبُ عَلَيْكَ . فَوَصَّلَ اللَّهُ كُلَّ نِعْمَةٍ يَهْبِئُهَا لَكَ مِنَ الشُّكْرِ بِمَا يَكُونُ لِحَقِّهَا قَاضِيًا ، وَلِلزَّيْدِ فِيهَا مُوجِبًا .

سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ

كُتِبَتْ عَلَى شُغْلٍ فِي قِطْعٍ مِنَ الْقِرَاطِاسِ ، وَلَمْ يَقْطَعْ بِي حَسَنُ الظَّنِّ بِكَ فِي قَبُولِكَ الْعِذْرِ ، وَتَحْسِينِكَ مَا أَنْتَ أَهْلٌ لِتَحْسِينِهِ ؛ فَإِنَّكَ تَقْبَلُ دُونَ حَقِّكَ ، وَتَهَبُ الذَّنْبَ فِيهِ ، فَيَكُونُ شُكْرُكَ (١) فِي الْأَصْلِ : « ... وَسَرَاهُ مَا قَبِلَهُ ... » : (٢) فِي الْأَصْلِ « عَلَيْهَا ... » وَهُوَ لَا يُؤَدِّي الْفَرْضَ الْمُرَادَ .

جاريا على سبيلين، كلاهما يُبين لك عن فضلك، ويوجب لك مالا يَقْصُرُ معه إلا مغبونُ
الحظ خسيسُ النصيب .

فصل — وقد ظهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أدلُّ شاهدٍ على
حسن مُنْقَلَبِهِ ، وردَّ اليك من رأيه وتفقدته ما أرجو أن يكون فيه أعظمُ العِوض . والله
أسأل أن يتولى لك أمورك في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تمَّ الله علينا وعليك النعم ، وأَجَزَلُ لنا ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى
أجرى بيننا وبينك لطيف مَوَدَّة ، وخاصَّ أخوة ، غيرَ أنَّ المعرفة قد تُنْجِدُ بعد الخبرة ،
والثقة إنما تعرف بعد التجربة ، وقد أَحْبَبْتُ أن يعلمَ مَنْ قَبْلَكَ ^(١) الذي أحدث الله لك من
حال دولتك ، وأن يُعْلَمَ هل أَبْقَتْ لنا منك النعمة سعةً ، أم تَرَكْتَ لنا منك صَفْحَةً نَعْرِفُ
بها عهدك ونأملُ بها وصلك ؟ فإن أصحاب السلطان ، بحال بلوى في التغيُّر والانتقال ،
إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة . فإن كنتَ على ما رَجَوْنَا من الوفاء ، وحسنِ
الحفظ للمودة والإخاء ، فمثلُك لم يرض لنفسه إلا بأجمل الأخلاق وأوفقيها للسداد . وإن
حجزك عن ذلك ما تَأْتِي به الأقدارُ في مُتَصَرِّف الليل والنهار ، نَعْدُركَ بما نَعْدُره به أهل
السلطان ، اذا غيَّرتهم الحال ، وتكررت شنائلُهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

إعلم أني اليك مشوق ، وأنَّ صِلَةَ الإخوان كَرَمٌ ، وخير الصَّلات ما لم يكن لها وجه
إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ؛ فإن الذي يكتب إخوانه على حال
الرغبة يكفي القائل كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصِّحَّة ، وإن شاء وضعه
للرغبة . والرغبة أهنكهما به . والذي يكتب إخوانه على حال الضرورة ، فقد يستقطع الصِّلَةَ ^(٢)

(١) ان المصنف : ص ٥٠ .

(٢) ان المصنف : ص ٥٠ .

(٣) ان المصنف : ص ٥٠ .

(١) عند الحَدَثِ مخافةً لَمَلامةٍ من الناس على القطيعة الشَّعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإنَّ الذى لا مَوَدَّةَ له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتَابُ على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إِلَّا صِحَّةَ الإِخاءِ والشُّوقِ الى المحادثة بالكِتَابِ ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ، ولا يُوضع منك الرغبة فى الإِطلاع . إِيَّاكَ أن تعتَلَّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصِلَةَ الإِخوان أعظم الخاصَّة بك خاصة . وإنما أمرنا فى كل هذا كأمرِك فى الذى يَسْتغنى مِن خاصَّتِكَ تلك التى لنا . فإن لنا مالِك ، وهذه التى لنا لك ؛ أليس ماسرَّتَا سَرَك وما سلبناه حظًا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفِّقنا وإِيَّاكَ . وأنت أبا يوسف .

هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفتُ لأبى سعيد ، غير أنه سألنا أمرًا لم يسألناه قطُّ ، فله فضل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضلُ المنزلة عليك فى اللائمة . ولن أدعَكَ والفعل ، دون أن تَشْفَعَه بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحُسنى لنا ولك .

فصل - أثنى كتابُكَ ، فأُنعِمْتُ أن يَسرَّنِي بِسلامتِكَ ، وما حاق فيه كرمُ بَرِّكَ ، ولطيفُ عِنايتِكَ ، ما لم أَفِقدْ فى حالةٍ مِنْ حالاتِكَ . فكان الكِتَابُ مُصدِّقًا لما سلف ، مُبَشِّرًا بما يَسْتأنف ، مُذَكِّرًا منك عهدًا موصو

مثاله طرفى وقلبي ، مُلصِّقًا ذِكْرُهُ بلسانى وقلبي . فلا عِدَمَتِكَ . بل أمتعنى الله بك فاطال ، وكثرنى ببقائك .

فصل - أثنى كتابُكَ فطامن قلبى وطرفى ، بعد ما كان شاخِصًا اليه ، مُتَشَوِّقًا الى رؤيته ، ثم ملائنى سرورا ما رأيتُ فيه من آثارِ بَرِّكَ وكريمِ تَفَقُّدِكَ . وأفضل ما عندى منك قَبْلَهُ ، مما إنْ ذَكَرْتُهُ ، فللاستراحة الى الذِّكْر ، وإنْ أَمسَكْتُ ، فللعجز عن الشُّكْرِ . فأما الضميرُ فمبْنى على الإقرار بفضلك ، والنيةُ خالصةٌ بِشُكْرِكَ . وقليل ذلك لك ، فأعطاك الله فاطاب ، ووهب فأبزل .

(١) فى الاصل : « مخافة السلامة من الناس ... » . (٢) فى الاصل بياض . (٣) فى الأصل : « فالاستراحة ... » .

فصل - وصل الى كتابك فُيْل لي حين نظرت الى أثر يدك تجرى قلبك في بطن صديقتك، أنك ماثل بين عيني: أنظر الى شخصك وأسمع من لفظك، فابتمت ذلك مني طربا شائقا، وصباة هيجت الأحران وذكَرت الإخوان. وكنت من إخواني الذين أنفَر بسلامتهم للود الذي أجرى الله بيننا وبينك، فتواصلنا بحرمته، وتعاطفنا بوصله.

فصل - إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَاقِبَةَ كُلِّ نِعْمَةٍ وَإِنْ عَظُمَتْ ، تَبَعًا لِأَوَّلِهَا ، وَجَعَلَ الشُّكْرَ عَلَيْهَا سَبِيلًا لِنَمَائِهَا وَمُوجِبًا لِأَحْسَنِ الزَّيَادَةِ مِنْهَا .

فصل في شكر — فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ لِلْغَيْرِ مَعْدِنًا ، وَلِلْفَضْلِ مَوْضِعًا ، فِيمَا حَمَلْتَهُ نَفْسَكَ
من ثقل أعباء المُرُوءَةِ ، وَحَمَلْتَهَا عَلَيْهِ مِنْ عِظَامِ الْمَكَارِمِ ، حَتَّى صِرْتَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ ،
مُنْتَهَى كُلِّ أَمَلٍ وَغَايَةَ كُلِّ رَغْبَةٍ . ثُمَّ أَهْبَسْتَ النِّعْمَةَ لِبَاسَ التَّوَاضُعِ ، وَنَاسَبْتَ فِي الْأَخْلَاقِ
مَنْ سَبَقَتْ بِهِ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، حَتَّى كَانَتْهُمْ فِي النِّعْمَةِ لَكَ شُرَكَاءُ . وَتَحَنَّنْتَ عَلَى الْأَقْرَبِينَ
وَالْمُتَقَرِّبِينَ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَكْفَاءِ ، حَتَّى كَانَتْهُمْ لَكَ وَلَدًا ، وَأَجْبَرْتَ نَفْسَكَ حِينَ سَاعَدَكَ
الدَّهْرُ ، عَلَى طَبِيعَةِ التَّقَرُّبِ إِلَى الْعَامَةِ ؛ فَكُلُّهُمْ يُدْلِي إِلَيْكَ بِدَاوِرِ رَغْبَتِهِ . وَيَتَنَاحَ مِنْكَ مَتَاحَةُ
فَضْلٍ ؛ فَلَا عِدِمَتْ أَلَا نَزَالَ تُنْعِشُ سَقْفَتُهُ ، وَتُقِيلُ عِزَّهُ ، وَتُسَدُّ خِلَالَهُ ، وَتُنِيلُ أَمَلَهُ ؛ وَلَا
عِدِمَ مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ مِنْكَ ، أَنْ يَسْتَتِمَّ هَذِهِ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ وَعَلَى نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ مِنْ سَعَادَةِ الْعَامَةِ
أَنْ يَجْعَلَ سَازِهَا عِنْدَ خِيَارِهَا . وَمِنْ الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ عَلَيْهَا الْمَوْجِيعُ هَذَا ، أَنْ يُحْصَى شَرَاؤُهَا
بِمَوْضِعِ رَغْبَاتِهَا .

فاسلم كلاك الله بهذه النعمة . غير مُنْغَص بها ، ولا مُكَدَّر عليك صفوها ، حتى تُسَلِّمَ النعمة العاجلة الى النعمة الباقية ؛ وإنا وإن سلمنا أن من سأن الدهر العَدْران في العواقب فقد علمنا أنك فيما أمدى الله اليك من النعمة ، ود أديت حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيهم ، فكنت أنتز من نال فضلك ، كرما في السناء ، ورضا في الآخرة ، غير مَطَّوِّلٍ لِمَا نال . ولا مَتَّعِصِعٍ لِمَا تَحْذَرُ . فإنا تجرى شكر الماضي منك ، ورجاء الباقي ،

۱ / ر ا ی ص : "نیکوکاران و ..."

فَنرى تَضْيِيعاً منا في عَقْدِ الرأى ، وإِزْراءَ بنا في وِثاقِ الأمور ، أَلَّا نَمْتَحِكْ مِنْ أَنْفُسِنَا مَوَدَّةَ الولدِ ورقَّةَ الوالد . وإذا أعطاك أمرٌ ثمرةَ فؤاده ، فقد فَرَّغَ اليك من جميعِ حَقِّكَ ، لأنَّ ذاتَ يدِ امرئٍ في البذلِ أهونُ عليه من ذاتِ نفسه في الشكرِ . وكفى لامرئٍ من امرئٍ أن يستولى عليه حتى لا يَدَعَ لغيره فيه فضلاً . وكفى بك لنا من غيرك . وكثيرٌ منا أن تقوى على أداءِ أدنى صنوفِ حَقِّكَ ، غير أن أوثقَ أمورنا فيك عند أنفُسِنَا أَلَّا نَسَامَ النظرَ الى فِئائِكَ بِهَاجِنٍ بك إن بَرَزْتَ ، وعاذرين لك إن شُغِلْتَ .

فصل — إنَّ الهدى والضلالةَ يقسمان دُولَ الأزمنة ، لغيرِ كرامةٍ للباطل ، ولا هوانٍ للحق . وأهلُ الحقِّ كيف تصرفت أحوالهم في كرامةٍ من الله عز وجل ، ونعمةٍ بين دولةٍ تكون لهم ، يَقومون لله فيها بحَقِّه وَيُظهِرون هُداةَ دينه ، ودولةً تكون للباطل ، يكونون فيها كُهوفاً للخيرات ، ومَعْدِناً للחסنات ، يستكِنُ الحقُّ في صدورهم ، ويأوى البرُّ والصدقُ اليهم ، فهم بين يَوْحَى صبرٍ وشكرٍ ، ليس أحدهما دون صاحبه في الفضل .

وأهلُ الباطلِ كيف تصرفت أمورهم بين سُخْطِ الله وعقوبته ، لأنَّ الله تعالى لم يجعل في الباطلِ قَرَجاً لأهله ، وإن كانت لهم دولةٌ كانت إِملاءً واستدراجاً ، وكانوا فيها على مَدْرَجَةِ هَلَكَةٍ وسبيلِ نِقْمَةٍ ؛ وإن كانت الدولةُ لأهلِ الحقِّ ، كانوا فيها بين ذلٍّ وضمٍّ ، وخوفٍ وجزعٍ ، وقد سَدَّتْ عليهم المطالعُ ، وضائق عليهم الأرضُ بما رَحَّبَتْ . ففى أىِّ يومئِهم مستراحهم : أيوم دولتهم ، وهم لا يَسْكرون النعمةَ ولا يقطعون أسبابَ النِقْمَةِ ؟ أم يوم علوِ الحقِّ عليهم ، وهم لا يَصْبِرُونَ على الحِنةِ ولا يُبْصِرُونَ من العمى ؟ وأهلُ الحقِّ بين حَالِي غِيْطَةٍ وحسبةٍ ، وأهلُ الباطلِ بين حَالِي إِملاءٍ ونِقْمَةٍ .

فصل فى صفةِ الجند — إنَّ الغالبَ على أهواءِ جماعةٍ من فِئامِ أولياءِ الأميرِ وجنودهِ إعظامُ الأميرِ ومعرفةُ فضله ، والتَقَرُّبُ الى الله تَجَبُّبَهُ ومُنَاصَحَتُهُ وطاعته ، ومُعَادَاةُ عدوه ؛ وتلك نعمةٌ يَتَعَدَّونها ويتقربون الى الله بها ، ويتوسَّلون الى الأميرِ بِخِزْيِ قومِ خالفوا .

فصل - حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإن ذلك أَرْضَى لربك ، وأجمع للألفة ، وأقومُ لعمود الخلافة الذي سَدَّ الله دعائم الإسلام وأُسَ الدين به . وأعلم أنَّ مَنْ حاط الله دينه ، ورمَتْ عن قُوقه الجماعة ، وعادى أَهْلَ النُقْض لها ، ابتعثه الله آمناً من هول الحساب وضيق المحشر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكُنْ لله بحيث افترض عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكاتبه

لست بما صرَفْت الى من معروفك بأسر مني ، بما أهديت الى من قضاء الحق عنك ، وقلة ذوى الحرمة بك ، لأنك قد تصل مَنْ لا يثق ولا يأنس إلا بمن يَعْتَمِد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يُساوره في أمر حَدَث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عَزِيمَةٍ في رأيه ، وأَصَالَةٍ في عقله ، بمستغني عن مُكَاشَفَةِ أَهْلِ الرَّأْي ؛ اتوزع الله عزَّ وجلَّ ، أفسام الفضل في خلقه ، وإشراكه إياهم ، في عطاياه ؛ فَرَأَيْكَ في كذا .

رَكِبَ ابراهيم بن المهدي الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد

الى إسحاق بن ابراهيم الموصلي

عندي مَنْ أَنَا عَبْدُهُ ، وَحُجَّتْنَا عَلَيْكَ ، إِعْلَامُنَا إِيَّاكَ .

توسّل

توسّل رجل الى رجل بمحمّد بن عبد الملك وأدعى قرابته منه ، وبلغ ذلك مجّداً فكتب الى المتوسّل اليه :

بلغني أنَّ رجلاً ادعى قرابتي ، وأورد عليك سَبَاباً ذكر أنه مني ؛ وما أنكر أن ينتفع بي مَنْ تَوَسَّلَ بنسبي ، إلا أنه مَنْ ادعى قرابته ، ولا قرابة له ، كان استعمال الشفاعه في أمره أَوَّلَى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل
أسعدك الله بحاربتك، التي بذلت فيها مجهجتك، ومُهَجَّ مَنْ هو موصول بك منّا .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدل لك : من صديق مؤمل، أو حميم راج، إن منعتهما شمتاك
(١) وبهتاك، وإن أعتبهما لاهيه اغتالاك .

محمد بن مسعر

قال : كنت أنا ويحيى بن أكرم عند سُفْيَان، فبكى سُفْيَان، فقال له يحيى : ما يبكيك
يا أبا محمد؟ قال :

بعد مجالستي مَنْ جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبليتُ بمجالستكم ؛
فقال له يحيى : فُصِيْبَةٌ مَنْ جالستَ منهم بمجالستهم إياك بعد أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم أعظم من مُصِيبَتِكَ بنا ؛ فقال : يا غلامُ، أظنَّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مهران على بعض خلفاء بني أمية — وأحسبه عمر بن عبد العزيز — فقال
له وقد قعد في أحرّيات مجلسه : عِظْنِي، فقال له : إنك لمن خير أهلِكَ إنْ وقِيتَ ثلاثاً، قال :
ماهن؟ قال : السلطانُ وقدرته، والشبابُ وغِزته، والمالُ وقِيتته، فقال : أنت أولى بمكانى
منى فارتفع إلى؟ فأجلسه معه على سريره .

ابن وهب في الاعتذار

أو لم تعذرْكَ لم نَعذرْ أنفسنا بقطيعتك، فكُنْ لنا في لائمة نفسك، كما تكّأ لك في عذرِكَ .

وفي مثله

ليس في الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفي عائدتك فضل عن إساءتها، فمن أين يسقط
بين فضلك والاعتذار !

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقل لهم كثيره في عظيم حقوقهم .

فصل — لئن عميتُ عن الرأي فيك، لقد أبصرته بك .

فصل — تغيب فأشتاق، ونلتقي فلا أشتى .

٢ — فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كتبت به في التحميد لله عز وجل في أوائل الفتوح وأواخرها وأوائل الكتب التي فيها توحيد الله عز وجل .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والربوبية، والمنفرد بالبقاء والقدرة، والمتجبر بالكبرياء والعظمة؛ ذي الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى؛ الأول بلا غاية، والآخرة بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلامشیر، وقضى في الدهور بلا ظهير، وسمك السماء بقدرة، وبنهاها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين أصطفاهم لمجاورته، وجبلهم على طاعته، ونزههم عن معصيته،

وجعلهم حملة عرشه، وسكان سماواته، ورسله الى أنبيائه، يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لَا يَفْتُرُونَ؛ ودحا الأرض وبسطها لكافة خلقه، وقسم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات، فهم في قبضته يَتَقَلَّبُونَ وعلى أفضيته يَجْرُونَ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر توحيد مفرد

الحمد لله العليّ مكانه، المنير برهانه، التامة كلماته، الشافية آياته، والحمد لله وليّ أوليائه وعدو أعدائه.

وصدر توحيد

الحمد لله الغالب الذي لَا يُقَلَّبُ، والمُقْتَدِر الذي لَا يُعَان، والمُنْتِجِز وعده، والمؤيّد أوليائه، والخاتم بالفَلَج^(١) والظهور لهم، والمُدِيل من أعدائه، ومُحِيط دائرة السوء بهم.

ولكاتب خزيمة بن خازم في فتح الصنارية توحيد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى الْمَلَكُوتِ والقُدْرَةِ، والجَبْرُوتِ والعِزَّةِ، والسلطان والقوة؛ أهل المحامد كلّها، ومدبر الأمور ووليّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميّتها ومحبيها، وباعثها ووارثها؛ الذى أَوْجَبَ على نفسه بما نَفَذَ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجّته، وإزهاق باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيّته، المكذّبين بكتبه ورُسُلِهِ، بلغ بذلك أمره، ونطق به كتابه؛ فإنه يقول تبارك اسمه فى المُنَزَّلِ من فرقانه: **يَبْلُغُ نَقْذِفُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قِدْمَهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**.

وتوحيد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المِنِّ الظاهرة، والنجح الموهبة؛ الذى قطع بينه وبين عباده المَعْدِرَةِ، ورادف عليهم اليقينة، ومُهَلِّمَةَ النَّظَرَةِ؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم

(١) ملج: حلب وطفه. يدلّ على فلاح عن حصمه. أى سب وطره.

المكتوب، وما ذنر لهم من ثواب الآخرة بالتَّجْعِ المطلوب؛ فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شقّ في الرحمة؛ يختص بها أهلها المستفيعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال؛ المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفوت ما لا يُرْتَجِع.

وتحميد لإبراهيم بن العباس في فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعَزِّ الحقِّ ومُذِيلَه، وقَامِعِ الباطل ومُزِيلَه، الطالبِ فلا يفوته مَن طلب، والغالب فلا يُعْجِزُه مَن غلب؛ مُؤَيِّدِ خليفته وعبدِه، وناصرِ أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوتَه، وأعلى بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقّه، وجاهد بهم أعداءه، وأثار بهم سبيله؛ حمداً يَتَقَبَّلُه ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسواغ نعمائه.

التحميد الثاني

الحمد لله الغالبِ ذى القُدرة، والقاهرِ ذى العِزة؛ الذى لم يقابل بالحقِّ باطلاً في موطنٍ من مواطن التّحاکم بين عباده، إلّا جعل أولياء الحق منهم حُرْبَه وجُنْدَه، وجعل الباطل بهم فلا منكوباً، ودَحِيضاً زَهُوقاً؛ إن نهَضَ به أوليأؤه كانت مراصدُ عواقبه مُفَرَّقَةً ما جُمِعَ، ومُتَبَرَِّةً ما أُعِدَّ، وقائدةً بأشياعه إلى مَصْرَعِ الظالمين، حتّى يكون الحقُّ الطالبُ الأعزَّ، والباطلُ المطلوبُ الأذلُّ؛ وأولياءُ الحقِّ الأعْلَنُ يداً وأيدا، وأشياعُ الضلالِ الأخْسَرُ ين أعمالا وكيدا؛ قضاءً الله وسُنَّتَه، وعادةً الله وإرادتَه، في الفِئمة المنصورة أن تعز فلا تُرام، وأن يُمكن لها في الأرض كما مَكَّنَ للذين من قبلها؛ وفي الفِئمة الناكبين عنه، أن تَزَلَّ فتكون كَلِمَتُهَا السُّفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

وتحميد له مبتدأ مقام بين يدي خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أَيْدٍ يُحْصَى، والآخر بلا أَمْدٍ يَفْنَى؛ الظاهر خَلْقَةً بعِزَّتِه، العزيز في سلطانه بعِظَمَتِه، الفرد في وحدانيته بقدرته، المدبّر في ملكه بجبروته؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها مَحْوِياً، واتصل بها فلم يك من علمها خَلِياً، وهو فيها غير مُسْتَكِنٍّ،

ومعها غيرُ مُتَّاسٍ في لُجج البحار ، ومفاوز القفار ، وشواخ الجبال ، وكُثبان الرمال ؛ مع كُلِّ خَلْقٍ ، وفي كُلِّ أَفْقٍ ، وعلى كُلِّ شَرَفٍ ومكان ، وفي كُلِّ وقتٍ وأوانٍ ؛ موجود إذا طُلِبَ ، وقريبٌ حيثُ نُدِبَ ؛ عالمٌ خَفِيَّاتِ الغيوب ، وخَطَرَاتِ القلوب ، وما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من تَجَوُّى ثلاثةِ الأَهورا بَعضُهم ، ولا خَمْسَةِ الأَهورا سادُسُهم ، ولا أَدْنَى من ذلك ولا أَكْثَرَ إلَّا هو معهم ؛ وما تَسْقُطُ من ورقةٍ إلَّا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٌ في ظُلُمَاتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس إلَّا في كِتَابِ مِيقَاتِهِ .

وتحميد ثامن يتلو الأول

الحمد لله اَلْمُتَعَالَى عن تشبيه الجاهِلين ، وتحديدِ الواصِفينَ ، وتكليفِ الناعِتينَ ؛ يُوصَفُ لا بِالْعَرَضِ والطول ، وَيُنْعَتُ بغيرِ الشَّيْخِ اَلْمُتَوَلِّ ، وَيُحَدِّدُ لا بِالخَلْقِ المَعْدُودِ ، والجِسمِ المَوْجُودِ ؛ بل يُتَنَاهَى من وصفه ، الى ما دَلَّ عليه من صُنْعِهِ ، وَيُوقَفُ عليه من نَعْتِهِ ، على ما أَخْبَرَ بِهِ عن نفسه ؛ وكيف يُوصَفُ مَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ، وَيُحَدِّدُ مَنْ لَمْ يَحْدِهِ بَلَدٌ ؛ أَوْ يُشَبَّهَ بِغَيْرِ ذِي أَعْضَاءٍ ، أَوْ يُكَيَّفَ بِغَيْرِ ذِي أَجْزَاءٍ ؛ لَوْ رُئِيَ أَوْصِفَ ، وَلَوْ وُصِفَ لَمَثَّلَ ، وَلَوْ مَثَّلَ لَكَانَ لَهُ نَظِيرٌ ؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، لَا تُحِثُّهُ الْأَقْطَارُ . وَلَا يَحْوِيهِ قَرَارٌ ؛ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ؛ لَا يوصفُ أولاهُ ، وَلَا يُدْرِكُ أَثَرَاهُ ، وَلَا يُعْرَفُ مُنْتَهَاهُ ؛ عَظُمَ أَنْ يَحْصِرَهُ وَهْمٌ ، وَجَلَّ أَنْ يُدْرِكَهُ فَهْمٌ ، وَامْتَنَعَ مِنْ أَنْ يَخَالَهُ عِلْمٌ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ لَيْلٌ وَلَا يَوْمٌ ؛ وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

وتحميد ثالث

الحمد لله الَّذِي أَلْهَمَنَا مِنَ الْإِقْرَارِ بِرُبوبِيَّتِهِ . وَالْإِيمَانِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَأَنَّهُ غَيْرُ ذِي صَاحِبَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْهَا مِنْ وَحْشَةٍ ، وَلَا وَلَدٍ يَتَكَثَّرُ بِهِ مِنْ ضَعْفِ قَلَةٍ ، وَلَا شَرِيكَ يَعْاوَنُهُ مِنْ عِجْزِ قُدْرَةٍ ، وَلَا ظَهِيرٍ يَكْفِيهِ لَمَلَالِ قَرَّةٍ ، مَا جَعَلَ لِمَا بِهِ أَوْتَقَى الْأَسْبَابَ لَدَيْهِ ، وَأَرْجَى الْوَسَائِلِ

اليه ؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير يَحْمَد ما أخضعنا الاعتراف فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التي استحكت السُّخْطَةَ على أهلها ، وحَلَّتْ النِّقْمَةُ بمن فارقها ؛ ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه ، بَسَطَ اليها آمالنا وأحسن عليها أطماعنا بكرم عفوه ، وعظيم جأله ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ؛ إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت عليهم ، بترينه لهم شياطينهم ، ورائت على أفئدتهم ... وما ظلمته قُرْبَاؤهم الى الناس من كل طمع يُجْدَى وخبر يُنْجَى ؛ جزاء بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، إنا لله لا يَغْفِرُ أن يشرك به ، ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشْرِكْ بالله فقد حَبِطَ عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وتحميد يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي ابتدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تقديره ، وصنوف تدبيره ، وتصاريف أموره ؛ مُجْجَا وَاخْجَا ، وآيات بينة ، وعبرا شافية ؛ تَشْهَدُ له بعزة القدرة ، ونفاذ الحول والقوة ؛ تخلق مدبرا بلا مَشُورَةٍ أحد ، سبعا دحاهن على الماء على غير سَنَدٍ ؛ مبسوطات في تكائف أجزائهن ، على معين ماء مسخر من تحتهن ، فخر خلأهن أنهارا ، وقدر فيهن من المعاش أقواتا ، وجعل لهن من الجبال أوتادا ، ثم آستوى الى السماء وهي دُحَانٌ ، فقال لها وللارض أئتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين . ففطر من الدخان في خفته على الهواء سبعا ، جعل يبينهن من الجو مُتَسَعَا ، سبع سموات طباقا مَرْتَفِعَات ، بلا دعائم قبلها ولا علاقات ، يُسْكِنُ بقدرة أن يرتفعن فوق ما حبسن عليه ، وأن يهوين الى قرار دون ما رفعهن اليه ؛ فأنفن صنعها ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة ، والشهب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ وسخر الشمس والقمر علما للبهتدين ، وسراجا للبصيرين ، ورجوها للشياطين ، وأوقاتا لاختلاف السنين ، ومعرفة لكل حين ؛ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل

سابق النهار وكل في فلك يسبحون ؛ فقضاهن سبع سموات في يومين ، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إتما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ بلا معاناة لقول ، ولا ضعف من حول ؛ ثم أسكنهن من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وبهتاناً ؛ يسبحونه بالليل والنهار لا يفترّون ولا يسأمون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .

وتحميد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعز دينه وأكرم بطاعته أوليائه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، فجعل جنده منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالين ؛ نهج بهم سبيله ، وأقام بهم محبته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهر بهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ؛ وأعلى كلمتهم ، وأبد نصرهم ، وآلف لهم وبهم ، وتمكن لهم في الأرض ، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لخلفائه ، المتمكن لحزبه ، المنتقم بهم ممن صدف عنه ، مؤيدا دينه بالصر ، ليظهره على الأديان ، وحفه بالعر ، فلا أتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وجوده بالفالج فهم الأعلون إن استنصر بهم ، والأعزّون إن كادهم ؛ والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمد يؤازر نعمه ، ويمتري بنثله فواضله ومزيده .

وله في فتح ابن البغيث لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلائيه ، وهادى أوليائه ، وأولياء الحق وحرى الهدى ، الذين أقام بهم سبل لرشاد . ونصب بهم مآهج الدين ، فظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وله صدر كتاب الخميس في تمجيد الله وتمجيده

أما بعد ، فالحمد لله الذى جلت نعمة ، وتظاهرت منته ، وثابتت أباديه ، وعم إحسانه ؛ إليه كل شئ وخالقه ، وبارئه ومصوره ؛ والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال فى كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهر فوق عباده ، المتعالى عن شبه خلقه ، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، خلق العباد بقدرته ، وهدهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل الى معرفته بما نصب لهم من دلائله ، وأراهم من عبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال جل جلاله : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلام التى جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، ويسر لهم خواطرمهم وفكرهم ، والهيئة التى هياهم لها ليقع الأمر والنهى عليهم ؛ فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يُحْشِمهم ما يقصر عنه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقوا به رمته ورضوانه ، والخلود فى النعيم المقيم ، والظل المديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعوهم الى طاعته ، ويبينون لهم هُده ، ويوضحون لهم سبيله ؛ ويهدونهم الى رحمته ، ويعدونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويسطون لهم توبته ، ويحذرونهم شخطه ، ويبينون لهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواظمه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَاظِمٌ ﴾ . وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بتمهم اليهم بالحجج الظاهرة ، ولأعلام النبوة . والسواهد الناطقة ، التى أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوضح

بها دليلهم ، وأثابهم عمل سواهم ، ليكون أدعى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأؤكد
للحجة على من أبى ذلك منهم .

ومحمد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرا بخراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنور
والبرهان ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمرء والطول على أهلها ، قبل
استحقاقهم لمثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ،
دليلا هاديا لهم الى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى
أقتنوا علم موارد الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكوا على ما بطن بما ظهر ، وعلى
ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمه ، ومثقف صنعته ، وحاجة مزايل
خلقه ومتواصله ، الى القوام بما يلهمه ويصاحبه ، على أتله بارثا هو أنشأه وابتدأه ، ويسر
بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ، فى تصرف أحوالهم ،
وفنون انتقالها ، وما يظهرون عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم ، وتمت به
أدواتهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم . حتى صاروا الى الخلقة المحككة ، والصورة المعجبة ،
ليس لهم فى شىء منها تطفئ يتيهمونه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى
ذِكْرُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ أَلَمْ يَخْلُقْكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ
مَا شَاءَ رَبَّكَ ﴾ . وما يتفكرون فيه من خلق السماء ، وما يحيرى فيها من الشمس والقمر والنجوم
مُسَخَّرَاتٍ على مسير لا يثبت العالم إلا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاح الحرث
والنسل ، وإحياء الأرض ، وإفراح النبات والأشجار ، وتعاور الليل والنهار ، ومزج الشهور
والأيام ، والسنين التى تُحصى بها الأوقات ، ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات
السقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والثامها ، ونحر الانهار ، وإرساء
الجبال ، ومن الثام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشاء الخلق وحدوده بعد أن لم يكن ،
مترقيا فى السماء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم تحاره مُتْقَضِيا الى آخر الفناء ، ولم يكن له

مُفْتَسِحٌ عِدَدٌ ، وَلَا مُنْقَطِعٌ أَمَدٌ ، وَمَا زِدَادٌ بِنَشْوَى ، وَلَا تَحِيْقُهُ تَقْصَانٌ ، وَلَا تَفَاوَتْ عَلَى الْأَزْمَانِ ؛ لِأَنَّ مَا لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، غَيْرُ مُمَكِّنٍ لِلاحْتِمَالِ لِلتَّقْصِ وَالزِّيَادَةِ ؛ ثُمَّ أَجْرَى فِيمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى ذِكْرِ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا اخْتَصَمَ بِهِ مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ أَوَّلًا ، ثُمَّ إِلَى ذِكْرِ الْمَأْمُونِ وَدَوْلَتِهِ .

وتحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا ، بالأرض المبسوطة ، والسما المرفوعة ، والرياح المسخرة ، والأمطار النازلة ، والأوقات القائمة ، والمنافع الدائمة ، والدين المبين ، والأدب القويم ؛ حمداً يكون إليه صاعداً ، ولديه نايماً ، ولملكوته مالئاً ، والحمد لله حمداً يثبت رضوانه ، ويورث إحسانه ، ويوجب مزيدَه ؛ فهو المنعم المحمود ، والمتطوّل المشكور ؛ لا إله إلا هو لا شريك له ، كما شهد الله وملائكته قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وتحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لدينه ، وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمذل لأعدائه وأهل البدعة والضلالة ؛ الذي لم يجمع بين حقّ وباطل ، وأهل طاعة ومعصية ، إلا جعل البصرة والقلج والعاقبة لأهل حقه وطاعته ، وجعل الخزي والذلّة والصغار ، على أهل الباطل والخلاف والمعصية ؛ حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب به لأمر المؤمنين وأهل طاعته الريادة التي وعد من شكره ، والحمد لله على ما يتوسّل من إعزاز أئمة المؤمنين ونصره وإفلاجه وإظهار حقه ، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سطواته ونهجه ونسه . فما رلى أمير المؤمنين من مؤالاة من والاه . وعداوه من بنى عليه وعاداه ؛ لا تكفه في شيء من الأمور لي نسه ، ولا إلى حوله وقوته ومكيدته . فإنه لا حول ولا قوة لأئمة المؤمنين إلا به .

وتحميد في آخر فتح

الحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهل الكفر ،
المتزل بهم من بأسه ، وثقمته وجوانحه ؛ الذي لم يجمع بين أهل حقه ، وباطل عدوه ، في موطن
من مواطن التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفر ، وأفرغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ؛
وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه ، وأهل الكفر ، حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ،
ويحسن به المزيد .

وتحميد في فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتح العليم ، الذي خصّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمّ النعمة ؛ وأحسن الولاية ،
وأعظم الكفاية ؛ وحفظ ما استرعاها ، وأعزّ أوليائه ، وقمع بالمدّة أعداءه ، وجعل حسن
العاقبة له ولأهل طاعته ، ودائرة السوء على أهل معاندته ؛ حمدا يحسن به القضاء ،
وتريد به النجاء .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يدرك خيراً إلّا برحمته ، ولا ينال الفصل إلّا بنعمته ؛ وليّ التسديد
للحسنات ، والعصمة من السيئات .

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه . العزيز سبطه ، الباتن كلماته ، السافية آياته ، الماوذ
قضاؤه ، الصادق وعده . الذي قدر على حلقه بملكه ، وعزّ في سماواته بعظمه ، ودبر الأمور
بعلمه ، وقدرها بحلمه ، على ما يشاء من عزّمه ؛ مُتديدا لها بإنسانه إياها ، وقدرته عليها ،
واستصغاره عظيمها ، نافذة إرادته فيها . لا تجرى إلّا على تقديره . ولا تنتهي إلّا الى تحيله ،
ولا تقع إلّا على سبق من حتمه ، على كلّ ذلك بلطفه وقدرته . وصرى وحيه . لا معدل
لها عنه ، ولا سبيل لها غيره . ولا علم أحدٌ بخفاها . وعادها إلّا هو . وبه يقول في كتابه
الصادق : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) الى آخر الآلة .

ونحميد ثا

الحمد لله الذى علا بالحبب التى استتر بها عن جميع خلقه ، وأستغنى بها عنهم لما توحد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة ، رعوفا عليهم بمنه ومُتَطَوِّلا وهو فيما يُمَضَى من أقداره ، مفصلا لهم بابتدائه خلقهم فى أحسن تقويم ، وإعطائه إياهم عاجل كل خير مقسوم ، وتسخيره لهم جميع ما فى السموات والأرض ، وبَسْطه لهم فى معاشهم أوسع الرزق ، وإسباغه عليهم فيها أفضل النعم التى لَطُفَتْ فبطنت ، وعظُمت فظهرت ، وليست فعمت ، وانتشرت فجالت ، وكثرت فلا يحصيها عاد ، وجرئت فلا يؤدّى حق ما آفترض منها شاكر ، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يَقْصِرْ بهم فى إكرامه وتفضيله إياهم على عاجل ، فإنه مُضْمِلٌ زائل مما أعطاهم إياه ولم يكُلْهم فى معرفة خالقهم تبارك وتعالى ، ومُتَوَلَّى النعم عليهم ، والاحسان اليهم ، والارتياش لهم ، ولا فى مُبْتَنَى سبيل طاعته ، وأداء حقه ، وشكر نعمته ، واستيجاب غبطة المعاد اليه الى أن يعُوا ذلك بعقولهم ، والنظر فيه بألبابهم ، والتصرف له على أهوائهم ؛ فإنه لو أُلْجَأَ ذلك اليهم ، وأُفْرِدَهم فيه الى أنفسهم ، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم ، لحارت عنه منهم الأبصار ، ولتاهت فيه منهم العقول ، ولأضلّهم عن قصده العَمَى ، ولمال بهم الى غيره الهوى ، ولا استحكم عليهم شرك الردى ؛ ولكنّه بعث فيها أنبياءه الهادين ، يدعونهم الى الصراط المستقيم ، بنوره المُنْضَى ، ودينه القويم ، وآياته البينة ، وكُتِبَ الفارقة التى بين فيها حُجَابَةٌ ومَكْرُوهَةٌ ، وطاعته ومعصيته ، وثواب الفريقين فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذّرهم فيه من سُخْطِهِ ، ونزل بهم فيه من نِقْمَتِهِ ؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وكَشَفَ لهم الجهالة ، وهدى من الضلالة ، وبصرهم سبيل الحق ، وبين لهم معالم الإسلام ، ليرجع جائز ، ويقصد زائع ، ويعرف جاهل ، وليعبد الرب بما وحّد به نفسه ، وليستبين العلم ، وليستضىء الحق ، وليتغنى من الله الثواب بزومه دينه الذى ترفع . وأداء فرائضه التى قرّض . وإيثار طاعته التى أوجب ، ويكون لله

الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفّوها بعد استبانتهم لهم ، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم ، فانه يقول : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ .

لأنس بن أبي شَيْخ

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالعقول حجته ، الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أمينا فوق له ، ومبلغا فآدى عنه ففتح به المنكر ، وتألف به المذير ، وثبت به المستبصر ، الى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشرعة دينه ، ثم أورثكم عهدَه وخصمكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى .

ولعبد الحميد في فتح

يُعَظَّمُ فِيهِ أَمْرُ الْإِسْلَامِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أما بعد ، فالحمد لله الذي أصطفى الإسلام ديناً رضى شرائعه ، وبين أحكامه ونور هُدهاه ، ثم كَفَّه بالعز المؤيد ، وأيده بالظفر القاهر ، وآزره بالسعادة المنتجة ، وجعل من قام به داعيا اليه من جُنْدِه الغالين ، وأنصاره المستطين ، كلما قهر بهم مَؤَاوِنَا أورهم رِبَاعَتَم المأمولة ، وأموالهم المثريّة ، ودارهم الفسيحة ، ودولتهم المطولة ، امرا حتمه على نفسه ؛ ثم جعل من عاندهم وأبتغى غير سبيلهم مُسْلِمًا قد آسَتهوته ذِلَّةُ الْكُفْرِ بظلمِها ، وَحَيَرَةُ الْجَهَالَةِ بِجَوَارِها ، وتيه الشقاء بمغاوِيه ، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباءً ، ازداد الحق اليهم آزِلًا فَا ، وعليهم عُكُوفًا ، وفيهم إقامة ، الى أن يحلّ بهم عِزُّ الغلبة ؛ وَنَجَاةُ المتجاوز ؛ راغبين فيما شوقَهم اليه ، مُحَافِظِينَ على مآذِهم له ، قد بذلوا في طاعة الله دماءَهم ، وقيلوا المعرض عليهم في مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجَنَّةَ . محمودٌ صبرُهم ، مسهلٌ بهم عزُّهم ، في خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذي أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أمته ؛ أن اختار لموارِيث نبوته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نهوض به وشج عليه ، ومُنافسة فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذي تمّ وعده لرسوله وخليفته في أمة نبيه مسدداً

له فيما أعظم عليه . والحمد لله المعز لدينه ، المتولي نصر أمته بنبيه المتخلي من عاداهم وناوهم ، حمدا يزيد به من رضى شكره ، وحمدا يعلو حمدا الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف ، وجلت أياديه فلا تحصى ، الذى حملنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرغب ، إنه على كل شىء قدير .

ولبعد الحميد أيضا

أما بعد ، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه ، وأرتضاه ديناً ملائكته ، وأهل طاعته من عباده ، وجعله رحمة وكرامة ونجاة وسعادة لمن هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقربين ، وحزبه الغالبين ، وجنده المنصورين ، وتوكل لهم بالظهور والقلج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعل من خالفه وعزب عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقلين ، وأولياءه الشيطان الأخسرين ، وأهل الضلالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من الذل والصغار ، وما تجل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الأليم ، إنه عزيز ذو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيماً ، وفضله تفضيلاً ، فلم يبق ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا إمام لأهل حق مهتد إلا دان به ، واتصل الى ولاية الله بما هداه له منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى ، تغاشم ولا تظالم ، ولا تحاسد ، ولا تقاطع ولا تدابر ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتباز والتراحم ، والتواد والتناصف ، قلوبهم متفقة ، وأهواؤهم مؤلفة ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطة ، أعوانا على الحق ، وإخوانا فى الدين ، ألفت الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبهم ، فقال فى كتابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه فما بينهم . وكذلك كان أسلاف الحق قبائهم . فى بواد وتبازهم . وتواصلهم وتعاونهم ، بذلك دان أهل السم ، فله يختلفوا فيه . ولم يرغبوا عنه ، ولم يحتذوا مثالا غيره ، وبه يدن

الله الباقون من خلقه ، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنة مسنونة ، وشريعة متبوعة ، لا يتبعون بها بدلاً ، ولا يريدون عنها حولا ، فاهل طاعة الله اهل سلامة في دنياهم ، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم ، لم تقطع الولاية فيما بينهم ، لا تقطاع الدنيا عنهم ، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم ، بجمعهم في داره وجواره ، كما ألف في الدنيا بين قلوبهم ، وعصم بالإسلام ألقتهم .

تحميد

الحمد لله المنيب على حمده وهو ابتداءؤه ، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمثني بالإيمان وهو عطاؤه .

ولقائه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفضله ، وشرّفه وعظمه ، وأعلى منزلته ، وجعل أهله القائمين به ، والحامدين عليه ، وأولياءه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين ، والظهور على الدين كله ولو كره المشركون .

ولزيد بن علي رحمة الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النعم بالشكر ، والشكر بالمزيد ، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة ، وأن تركه خطيئة مهلكة ، وأؤمن بالله إيماناً نفى إخلاصه الشرك ، ويقينه الشك ، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء ، ومفزع أهل التوكل .

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه ، وأنبيائه ورسله ، وشرّفه وعظمه ، وأناره ، وأظهره ، ونزهه وأعزه ومنعه ، ولم يقبل غيره ، ولم يجعل حُسن الجزاء إلا لأهله ، الذين كتب لمن أسعده بالوليعة فيه منهم الرضوان والمغفرة والرأفة ، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والدامة ، والدلة والصغار في الآخرة والأولى ، والممات والمجأ ، إذ يقول الله عز وجل : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١٠﴾

والحمد لله الذي اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوته ، واختاره له من رسالته ، وحباه بفضيلته ، وأجابه من أفضل عمائر العرب ، وأشرفها مناصباً ، وأعرقها حسباً ، وأكرمها نسباً ، وأوراهها زناداً ، وأرفعها عماداً ، فبعثه بالنور ساطعاً ، وبالحق صادداً ، وبالهدى آمراً ، وعن الكفر زاجراً ، وعلى النبيين مهيمناً ، وإلى سبيل ربه داعياً ، وبالكتاب عاملاً ، فبلغ عن الله الرسالة ، وهدى من الضلالة ، وانتاش من الهلكة ، وأنهج معالم الدين وأدى فرائضه ، وبين شرائعه ، وأوضح سنته ، ونصح لأئمة ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تمجيد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لظاهر حقه وإنفاذ سابق قضائه فيمن ذرأ وبراً من عباده ، بإدخال من أراد أن يدخل في رحمته ، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه ، بابتدائه خلقهم ، ومظاهرتهم الآلاء عليهم ، وإحسانه البلاء عندهم ، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم ، ديناً رضيهم لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله ، فآتمن على وجه من لم يرض إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به نفسه ، وأظهر به نوره ، وأراد أن يسلو به عباده ، تحقيقاً لما سبق به علمه ، وإنفاذاً لما جرت به مقاديره ، أن بعث لِمَا شرع من دينه ، وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين ، من ارتضى واختار من أنبيائه ورسله المجتبين ، لتبليغ رسالته وإظهار حقه ، وأسئله^(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي أطلعت عليهم وعمتهم ، ليعبد مخلصاً له ، محموداً بما استحمد به إلى خلقه ، مشهوداً له بما أشهد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغ لِمَا أُرسلوا به ، والنصيحة لمن أُرسلوا إليه ، غير مختلفين فيما بعثوا له ، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه ، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أول ، فيصدق بذلك بعضهم بعضاً ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فحضت رسل الله وأنبيأوه على ذلك سالكين منهاج الحق وسبيله ، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى

طاعته ، هادين مهدين غير مبخوسين شيئا مما كانوا أهله في المنزلة عند الله ، والقربة منه ،
والوسيلة إليه ، هم وهن آمن بهم وعززهم ، وأتبع النور الذى أنزل معهم ، حتى تقضت
بهم الأعمار ، وتقطعت بهم الآثار ، وتحرمهم الاجال .

وكذا لأبى عبيد الله

الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمة قدمها لعباده قبل خلقه إياهم ، واستجابهم إياها
منه ، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تحديده وحيه ومتابعة رُسله رحمة
تلافهم بها بعد تقديمها ، ومِنَّةً ظاهرها عليهم قبل استجابهم لها . تطوُّلاً على العباد بالنعماء ،
وإعذاراً اليهم بالخجج ، وتقديماً بالوعد . وإنذاراً إليهم عواقب سخطة في المعاد .

واحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على قرة من الرسل ،
وطموس من معالم الحق . ودروس من سبل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه
ومقاديره . أن يجتبي لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه ، القاهرين لمن
ابتغى سبيلاً غير سبيله . فعظم حرمه ، ووسع حوزته . وصدع بأمره ، وجاهد عن حقه
في حومات الضلالة وظلمات الكفر . باخلاق المبين ، والسراج المنير ، ثم جعله مصدقاً لمن
سبقه من الرسل ومجنداً لمن بعدهم له وهدى ورحمة . ثم جعل لدينه وظائف وظيفها على
أهله ، ونرائع شرعها لهم لا يكتفى منهم إلا بها . وجعل أدائها إليه ، واعتصامهم بها إماماً
لدينه . ونظاماً لموره . وهدى له خلفه . واستجاباً لمن وعد عليه من توابه ، وأمناً لما أوعده من
خالفه من عقابه . فليس يسبح أهل الإيمان لله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضله وأجره ،
وجعل لهم عزه وعلوّه . وخيار لهم لعبه والعاقبة على من فارقه فيه إلا معرقها . وأداؤها
بما يستكمل به حدودها . وممات من كذ وكذ .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخلد

الحمد لله الذى اختر لإسلام نبيه لنفسه . ورضى أن يعبدَه من في سمواته من الملائكة
المقرئين . ومن في أرضه من النبيين والمرسلين ، ومن آمن بالنور الذى هداهم له من الثقلين ،

واختار لرسائله في سابق علمه ، والذكر الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميد

الحمد لله المتكبر في جبروته المتعزّز بسلطانه . المتعالى في سمواته ، المحتجب عن خلقه ، فلا تُدرّكه في الدنيا أبصار الناظرين ، ولا تُحيط به أوهام المتوهّمين ، ولا تبغّه صفات الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب . ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

تحميد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذى فصل بين الحق والباطل ، فنفذ قضاؤه في خلقه ، وحكم فيهم بحكمه على إرادته ، يقضى بالنصر والتأييد ، والعزّ والفلاح ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوقيم والخزى والصغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادةً جاريةً باقيةً ، وسنةً ماضيةً ، لا رادّ فيما قضى منه إقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمداً صلى الله عليه بكراماته ، واصطنعه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، بما أحلّ وحرم ، ورزق وسخط ، وأمر به ونهى عنه ، وجعله خاتم النبيين والمهيمن عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخر الكتب المصدق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تحميد فى الإسلام وما آمن به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم . وهو فى صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ ليدن الله الذى ارتضاه لنفسه . ولين اصطفاه من حاتم ، واجتباه من عباده وجعله معلماً بين الهدى والضلالة . وفرقانا بين الحق والباطل ، وحاجرا بين الكفر والإيمان ، وظائف وظيفها على أهلها . وسرّائع سرّعها لهدم . ففعل أداها الله ومعرفتها . ، ومحافظتهم عليها ،

واعتصامهم بها قواما لدينه ، ونظاما لنوره وثباتا لحقه ، واستجابا لما وعد من ثوابه ، وأمنا لما أوعد من عقابه ؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الذين ستمهم المسلمين بالإسلام ، وأحرز لهم فضله وعزه ، وأصار لهم الغلبة على من خالفهم وفارقهم بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله ، والتكذيب بكتبه ورساليه ، ودلتهم فيه قرباؤهم ، وقادتهم إليه أهواؤهم ، من الملل الضالة ، والأديان المجموعة ، التي لم ينزل بها من الله سلطان ، ولا كتاب ولا برهان ، إلا معرفتها وأداؤها بما يستكمل من حدودها ومعالمها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد . فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وقدر الأمور بعلمه ، وأنفذ على ما مضى من مشيئته ، من غير أن يكون له ظهير في ملكه ، أو معين على ما يرى من عجائب خلقه ، واحتذاء منه على سابق من صنعة غيره ، فوحد نفسه بما تفرد به دون غيره من خلقه ، ليُعبد مُخلصاً مبرأ من الأنداد ، إتماماً لنوره ، وتعزيزاً لتوحيده . وتأييداً لدينه ، وإعلاءً لمن أعظم به ، وإفلالاً لمن حاله وعدده وعبد غيره . وإحقاقاً لكلماته . فإنه يقول : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ، الْآيَةُ . بِذَلِكَ أَنْزَلَ كُتُبَهُ ، وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ . وَأَخْرَجَ بِهِمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ السَّامَةِ . وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ . يَدْعُو آخِرَهُمْ إِلَى مَا سَبَقَ إِلَيْهِ أَوَّلُهُمْ ، مِنْ عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ . لَا يَسْنُو حَشَوْنَ مِنْ قِلَّةٍ ، وَلَا يَقْتُونَ مِنْ كَثْرَةٍ ؛ يُعْزِمُ اللَّهُ بِقُوَّتِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُمْ بِعَمْدِهِ ، وَيَنْصُرُهُمْ بِصُرَّتِهِمْ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ تَعَالَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا خَصَّ بِهِمْ ، وَجَعَلَهُ مُصَدِّقاً لَهُمْ ، وَهَيِّجَهُ عَلَيْهِمْ ، وَحَنَمَ بَيْنَهُمْ بَعْدَهُمْ . مَيَّصَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَيَجَاهِدَ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ . فَضْهِدْ بِهِ رُؤُوسَ حَقِّهِ . وَرَهَقْ عُدُوَّهُ ، وَأَنْجِزْ لَهُ مَا وَعَدَهُ . وَتَمِّمْ بِذَلِكَ النِّعْمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَهُ . فَإِنَّهُ يَقُولُ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ .

تحميد في فتح

الحمد لله الفتح اعجم . ارحمن ارحم . العزيز حكيم . الذي أعزَّ لإسلام بقدرته ، وأيده بنصره ؛ فلم يَجِدْ فِيهِ مُجَادٍ . وَيَسَّعَ فِي تَسْتِيتِ لِكَلِمَةِ وَنَسَقِ الْعَصَ سَاعٍ ، وَيُوضِعُ

فى الكفر والمعصية مُوضَّعٌ ، ويمتنع من قضائه وإرادته مُمتنعٌ إِلَّا أَذَلَّهُ الله وقصمه ، وأصرع
خذه ، وأنعس جدّه ، وضلل سعيه ، وعجل بواره واستئصاله ؛ حمدا دائما لا انقطاع له ،
ولا نفاذ لمذته .

تحميد ثامن

والحمد لله الذى اختار الإسلام وشرفه ، وكرمه وطهره ، وأظهره وأعزّه ، وفطر عليه
ملائكته ، وبعث به أنبياء ورُسُلَه ، واختار له خيرته من خلقه محمدا صلى الله عليه ، فبعثه
برسالته ، وأكرمّه بوحيه ، وأصطفاه على خلقه ؛ يُبشِّرُ بالجنة مَنْ أطاعه ، ويُنذِرُ بالنار مَنْ
عصاه ؛ وجعله دينه القيم الذى لا يقبل دينا غيره ولا يُثيب أحدا إِلَّا عليه .

تحميد فى فتح

الحمد لله العزيز فى ملكوته القاهر فوق برّيته ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وأنفذ فيهم
إرادته ومشيئته ، وقدّر كلَّ شيءٍ وأتقنه وأحكمه ، وأحاط علما به ؛ فلا يعزب عنه مثقال
ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إِلَّا فى كتاب مبين .

الحمد لله الذى ابتدع الخلق لا من شيء ، وجعل الليل والنهار كهفاً ومَسَجَناً لكل
حيٍّ ؛ بقدرته تتجرت البحار ، وجرّت لمواقيتها الأنهار ؛ فدار وتطارّد الليل والنهار ، لا إله
إِلَّا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمد لله الذى فات بعظمته أبصارَ المرتئين ، وعلا بمجده عن خَطرات الحاسيين ،
وأحتجب بأستار جبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين ؛ فلم تحوهِ الحكمة ، ولم
يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية ، ولا أدركه هاجس تبعيض ولا كُلية ، ولم يُنسب
إلى زياده فى حين ، ولا إلى تقصير فى شهور ولا سنين ، فكلُّ أمره — عزّ جلاله —
تمامٌ ودوام ، وكلّ صفات صمعه اعتدال وكَمالٌ ؛ وكلُّ ما دونه يحتكم فيه الفناء والزوال ،
ليس كمثله شيءٌ وهو السميع الصبر .

والحمد لله الذى عرّفنا ربوبيّته إلّامّا ، ونهّج لنا سُبُلَ طاعته مِنّا وإكراماً ، وتعبّداً بفرضه تقويماً وتعليماً وأمتناناً ؛ فقامت علينا وعلى الخلق مُجَبَّةٌ ، بالصادع بأمره ، والمُبَلَّغُ لرسالته ، والمُجَاهِدُ فيه حقَّ جِهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعزّ دينه ، وأظهر تَمَكُّينه ، ونصرَ وِلَّيه ، وخدّلَ عدوّه ، وأوقع بأسه ونَقَمته بمحلّ الفرية ، وجُرئومة الضلالة ، ومنّاخ الشرك ، ومَرَكز الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سَفك الدماء ، والمثلة بالأسرى ، وقِلّة المُرَاقبة والأرعواء .

تحميد

الحمد لله حمداً يكون رضاه منتهاه ، والمزِيدُ من فضله جزاءه . والحمد لله حمداً اليه يتناهى حمد الحامدين ، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحصى نعمائِهِ ، ولا تُجْزَى آلاؤه ، ولا يُكَافَأُ بلاؤه ، ولا يُبْلَغُ شكرُهُ إلّا بمَنّهِ وتوفيقه ؛ حمداً يرضاه ويتقبّله ، ويذكرُ لَدَيْهِ ، ويوجب ما تَأْذَنُ للشاكرين مِن يَدِهِ .

تحميد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، ذى المَنِّ والإِنعام ، والجلال والإكرام ؛ الذى أَصْطَفَى الإسلامَ دِيناً ، وَأَصْطَفَى لَهُ مِنْ عِبَادِهِ أَهْلاً هَدَاهُمْ لَهُ ، وَأَكْرَمَهُمْ بِهِ وَبَيَّنَّ لَهُمْ مَا يَأْتُونَ ، ولم يتركهم فى رَيْبٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، ولا شُبْهَةٍ مِنْ دِينِهِمْ ؛ فله المَجْهَةُ البالغة لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

والحمد لله الذى ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأتّجبه لتبليغ الرسالة ، وبعثه إلى خَلْقِهِ كافّة ، قَبْلَ رِسالته ، وصدّع بأمره ، وقام فيما بعثه له بحَقِّه ، ثم أنجز له وعده ، وأتمَّ له كَلِمَتَهُ ، وأظهر دين الإسلام به على الدِّينِ كُلِّهِ ولو كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

تحميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأول الآخِر ، الظاهر الباطن ، الولي الحميد ، القوى العزيز ؛ الذى لا يَقْدَرُ العبادُ قُدْرَهُ ، ولا يُحْصُونَ نِعْمَهُ ، ولا يبلغون شكرَهُ ؛ المحيط بكلِّ شَيْءٍ عِلْماً ،

وَأُحْصِيَ كُلُّ شَيْءٍ عِدْدًا ؛ فَلَا يُعْجِزُهُ كَبِيرٌ ، وَلَا يَعْزِزُهُ صَغِيرٌ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تحميد

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَوَحِّدِ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، قَادِرًا قَاهِرًا أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ
عِدْدًا ، وَمَلَأَهُ عَظَمَةً ، وَوَسَّعَهُ عَدَلًا ، وَأَتَقَنَهُ صُنْعًا . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ بِالْحَقِّ مَنْ أَطَاعَهُ ،
وَأَذَلَّ بِالْبَاطِلِ مَنْ عَصَاهُ ، وَجَمَلَ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ حِرْزًا حَرِيْزًا ، وَمَوَثَّلًا مُنِيفًا ؛ فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ
أَهْلِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ ، وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ ، إِلَّا تَوْحِيدًا بِالصَّنْعِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَأَنْجَحَ سَعْيَهُمْ ،
وَأَعْلَى كَلِمَتِهِمْ ، وَأَفْلَحَ حُجَّتَهُمْ ، وَأَنْزَلَ بِأَهْلِ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ عَنْهُ ، الرَّادِّينَ لِأَمْرِهِ الدَّلَّةَ
وَالصَّغَارَ فِي عَاجِلِهِمْ وَآجِلِهِمْ ؛ حَمْدًا يَكُونُ لِمَزِيدِهِ مُوجِبًا ، وَلِحَقِّهِ مُؤَدِّيًا .

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أَمَّا بَعْدُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمِيدِ الْحَمِيدِ ، الْفَعَّالِ لِمَا يَرِيدُ ؛ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ ،
وَأَمْضَاهُ عَلَى مَشِئَتِهِ ، وَدَبَّرَهُ بِعِلْمِهِ ، وَأَظْهَرَ فِيهِ آثَارَ حِكْمَتِهِ الَّتِي تَدْعُو الْعُقُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ،
وَتَشْهَدُ لَذَوِي الْأَلْبَابِ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَتَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي مَالِكِهِ فَيُنَازِعَهُ ،
وَلَا مَعِينٌ عَلَى مَا خَلَقَ فَتُلَازِمُهُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ؛ فَلَيْسَ يَتَصَرَّفُ عِبَادَهُ فِي حَالٍ إِلَّا كَانَتْ دَلِيلًا
عَلَيْهِ ، وَلَا تَقَعُ الْأَبْصَارُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانَ شَاهِدًا لَهُ ، بِمَا رَسَمَ فِيهِ مِنْ آثَارِ صُنْعِهِ ، وَأَبَانَ فِيهِ
مِنْ دَلَائِلِ تَدْبِيرِهِ ، إِعْذَارًا بِحُجَّتِهِ ، وَتَطَوُّلاً بِنِعْمَتِهِ ، وَهَدَايَةً إِلَى حَقِّهِ ، وَإِرْشَادًا إِلَى سَبِيلِ
طَاعَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؛ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ ، الْمَلِكِ الْجَبَّارِ ، الَّذِي أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ وَأَخْتَارَهُ ، وَآرَضَاهُ
وَطَهَّرَهُ ، وَأَعْلَاهُ وَأَظْهَرَهُ ؛ بِفَعْلِهِ حُجَّةُ أَهْلِهِ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ ، وَوَسِيلَتُهُمْ إِلَى الْمَصْرِ عَلَى [مَنْ]
عَادَ فِي حَقِّهِمْ ، وَأَبْتَنَى غَيْرَ سَبِيلِهِمْ ؛ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَى حَقِّهِ ، وَيَهْدُونَ إِلَى سَبِيلِهِ ،

بالآيات التي يبينون بها عن المخلوقين ، ويوجبون بها الحجّة على المخالفين ؛ حتى آتته كرامة الله إلى خاتم أنبيائه ، وحامل كتابه ، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم ؛ على حين فترة من الرسل ، واختلاف من الملل ، ودثور من اعلام الحق ، واستعلاء من الباطل ، والناس عاندون عن سبيل ربهم ، يتسافكون دماءهم ، ويحلولون ما حرّم الله عليهم ، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ؛ وأيده بالبرهان الواضح ، والحجج القواطع ، والآيات الشواهد ؛ وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته ، وأعدل الشواهد على نبوته ؛ إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مرّ الأيام ، وكثرة الأعداء والمنازعين ؛ يتحدّاهم به في المواسم ، ويقصّدُهم بحجّته في المحافل ؛ ولا يزدادون عنه إلّا حُسورا وعجزا ، ولا تزداد حجّة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوا ؛ ثمّ أيده بالنصر بأنصارٍ ألف بينهم بطاعته ، وجمعهم على حقه ، ولمّ شعّهم بنصرة دينه ، بعد الشقاق المتصل بينهم ، والحرب المُفرّقة لجماعتهم ؛ كما قال عزّ وجلّ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقدم اليه وعده بالنصرة والتمكين ؛ فجعله بُشرى للمؤمنين ، وحجّة على الكافرين ، ودليلا على ما بعثه به من الدّين ؛ فهزم بالقليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم ، وغلب بضُعْفائهم أهل القوّة ممّن ناوَاهم ؛ فقلّ به حدّهم ، وفُضّ جموعهم ، وأفتتح حصونهم ، وحرّز معاقلهم ؛ وأظهر بحجّته ونصره عليهم ، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم ، والله لا يُخلف الميعاد .

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظّمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ؛ الذي لا يُعجزه شيء ولا يمتنع منه ، ولا يُدفع قضاؤه ولا أمره ؛ ﴿ وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ، ودبر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما آختر وأصطفى منها عزّمه ؛ بقدرته منه عليها ، ومملكة منه لها ، لا مُعقّب لحكمه ، ولا شرك له في شيء من الأمور ، بحاق ما ينشاء ويختار . ما كان للناس الخيرة في نبيء من أمّورهم ، سبحانه الله وتعالى عما يسرّكون .

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما آختر من الأمور دينَه الذى أَرْضَىٰ لنفسه ولمن أراد كرامته من عبادِه، فقام به ملائكتُه المقربون ، يُعْظَمون جلاله ، ويُقَدِّسون أسماءه ، ويزكرون آلاءه ، لا يَسْتَحْسِرُونَ عن عبادته ولا يَسْتَكْبِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ؛ وقام به مَنْ آختر من أنبيائه وخُلَفائِه وأوليائه فى أرضه ، يُطِيعُونَ أمرَه ، وَيَذُبُّونَ عن تحارمه ، وَيُصَدِّقُونَ بوَعْدِه ، وَيُوفُونَ بعهده ، وَيَأْخُذُونَ بحَقِّه ، وَيُجَاهِدُونَ عدوَّه ؛ وكان لهم عند ما وعدهم مِنْ تصديقه قولهم وإفلاجه حجتهم ، وإعزازِه دينهم ، وإظهاره حقهم ، وتمكينه لهم ؛ وكان لعدوِّه وعدوِّهم عند ما أوعدهم من خزيه ، وإحلاله بأسهم ، وأنتقامه منهم ، وغضبه عليهم ، مضى على ذلك أمرُه ، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى ، وهو ممضيهِه ومنقذه على ذلك فيما بقى ، ليم نوره ولو كره الكافرون ؛ ولِيُحَقِّقَ الحق ويُنْظِلَ الباطل ولو كره المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِي فى الأمور ولا يَدْبِرُها غيره ، ابتدأها بعلمه ، وأمضاها بقدرته ، وهو وليها ومنهاها ، وولى الخيرة فيها ، والإمضاء لما أحبَّ أن يُمِضِيَ منها ، يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الفتاح العليم ، العزيز الحكيم ، ذى المَنِّ والطول ، والقدرة والحول ، الذى لا تُمَكُّك لما فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته ، ولا راد لأمره فى ذلك وقضائه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

والحمد لله المُنِيبُ بحمده ومنه ابتداءه ، والمُنِيعُ بشكره وعليه جزاؤه ، والمُنْتَنِي بالإيمان وهو عطاؤه .

لا خـ

الحمد لله الذى يَنْظُولُ بالنعم مُبْتَدِئًا ، وَيُعْطِي الخير مَنْ يَشَاءُ وَيُثِيبُ عليه .

تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر :

الحمد لله الذي نشر رحمته في بلاده ، وبَسَطَ سَعَتَهُ على عباده ، الذي لا يَزَالُ العبادُ منه في رزقٍ يَقتسمونه ، وفضلٍ يَنتظرونه ، لا يَنقُضُهُ ما قَبْلَهُ ، ولا يَنقُضِي ما بَعْدَهُ .

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وَلِيَّ الحمد ، وأهلِ الشَّاءِ والمجد ، خالقِ الخلق ، ومُدَبِّرِ الأمر ؛ المسيح على عباده والمُوجِبِ عليهم حُجَّتِهِ ؛ فليسوا يرجون إِلَّا سَعَةَ فَضْلِهِ ، ولا يَحْذَرُونَ إِلَّا ما أَجْرَحُوا من مَعْصِيَتِهِ ؛ لما سبق من جَزِيلِ إحسانه ، وتظاهر من أَمْتانته ، وتَقَدَّمَ به الإِعْذارُ والإِنْذارُ ، اللذان لا يَسْتَحِيفُ بما عَظُمَ منهما إِلَّا مَنْ أَسْتَحْوِذَ عليه الشَّيْطان ، وأَسْتَوَلَى عليه الخُذْلان ، وقاده الحَيْنُ الى مواردِ الهَلَكَةِ .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي أَصْطَفَى الإسلامَ ديناً فَطَّهَرَهُ وَأَسْنَاهُ ، وأَظْهَرَهُ وَأَعْلَاهُ ؛ وزَيَّنَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ ، ونَفَى عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ ، وجعلهُ الى مَذْخُورِ كرامته سبباً واصلاً ، وسببلاً نَهْجاً ، وبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم لِيَهْدِيَ مَنْ كانَ حَيًّا ، وَيَحِقِّ القَوْلَ على الكافرين .

تقريضه في الخليفة

الحمد لله الذي أَصْطَفَى أُمَيرَ المؤمنين لخلافته ، وتَلَفَّى الأُمَةَ بِسُلْطانِهِ ، فجعلهُ القائمَ فيهم بقسطه ، والمُسْتَفْرِغَ في أَلْتِماسِ مصلحتهم هَمَّهُ .

لأحمد بن يوسف

عن ذى الرياستين الى ابراهيم بن اسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذى حَفِظَ من دينه ما ضَيَّعَ الملحدون ، ورَأَبَ منه ما [فرقه] ^(١) الصدعة ؛ وأعاد من حبله ما حاولوا تَقْضِيَهُ ، حتَّى أعاد لعباده أحسن أَلْفَتِهِمْ ، وردَّ اليهم أجمل

عَوْدِهِمْ ، من الاستسلاء بعد التردّي في قُحْمِ المعاطب ، والاستنقاذ بعد التوريط في المهالك ؛ وبلغ خليفته القائم بحقه ، المؤتمّ بكتابه ، الذائد عن حريم الدين ، وميراث النبيين ، أجزَلَ ما بلغ الخلفاء الراشدين المهديّين ، من إعلاء الكلمة ، وغلبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التي وعدّها المتقين ؛ وفرغه لما أشعر قلبه ، وشرح له صدره ، من إمضاء حُكْمِ المرائض الموجبة ، واقتفاء السنن الهادية ، حيث سلك به من المنابع ؛ حمداً يوازي نِعَمه ، ويبلغ أداء شكره ، ويوجب مزيدَه .

والحمد لله على ما خصّصنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء الرتبة ، في مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمجاهدة عن حقّه ، والوفاء لله بما عقده له . لا نزيد بما كان منا إلّا وجهه ، ولا نسعى فيه إلّا لرضاه ؛ حمداً لا يُحصى عدده ، ولا يقطع أمده .

تحميد لأبي عبيد الله

أما بعد ، فالحمد لله ذي الآلاء والقُدرة ، والباطون والعزّه ، الذي أصطفى الإسلام ديناً لنفسه ، وملائكته وأنبيائه ومن كرم عليه من خلقه ؛ فبنت به مجدداً صلى الله عليه وسلم اختصاصاً له في ذلك بكراماته ، وأصطفاه له به على عباده ؛ فأعزّه ومنعه ، وكفاه وحاطه ، ونوكل لأهله بالعلم والتمكين ، والظهور والتأييد ؛ فلم يأتحد فيه أحد ، ولم يزع عن قبول حقّه زائع ، بعد إعدار الله إليه ، وإعادة الحُجّة لله عليه . إلّا أنزل به من الدلّ والصّغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعا ؛ حمداً كثيراً دائماً صُرضياً له ، مؤمّناً من غيره . موجبا لأفضل مزيد جوابه .

تحميد لسعيد بن حميد في نتيج

أما بعد ، فالحمد لله الممّم فلا يربح أحد منكم بحمده ، ولا يردّ دلاً عارض في قدرته ، والعزير فلا يُغالب في أمره ، والحكم العدل فلا يُردّ حكمه ، والناصر فلا يكون نصره إلّا للحق وأهله ، والمالك لكل شيء فلا يخرج أحد عن إرادته . المنادي إلى سبيل رحمه فلا يصل من أنقاد أطاعه . والمقدم إعداراً لطاهر به حجه . الذي حلّ ديه لعباده رحمة ، وحلافته عصمة ، وماعة حاتمته فرضاً واحداً على كلّ الإسماء . التي انما يتعدّون في أرضه

على ما بعث به رُسُلُه ، وأُمنّاؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحا ملون لهم على مناهج حقّه ، لئلا تُشعّب بهم الطرف المحالفةُ أسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادة التي نذّب إليها عباده ، بهم يُحيى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفِظَت معالم الحق من الغواة المخالفين ، مُحْتَجِّين على الأئم بكتاب الله عز وجل الذي آستعملهم به ، ورُعاة للأمر بحق الله الذي آخا رهم له ، إن جادلوا كانت مُجبةُ الله معهم ، وإن حاربوا فالنصر لهم ، وإن جاهدوا كان في طاعة الله نصرهم ، وإن نغاهم عدوّ كانت نيكاية الله حائلّة دونهم ، ومُعقلا لهم ، وإن كادهم كائد فأنه في عوسهم ، نصهم الله لإعزاز دينه ، من عاداهم فإنما عادى الذين عزّ بهم وحُرس بهم حقّه ، ومن ناوَاهم فإنما طعن على الحق الذي تكلّوه حراسُهم ، جيوشُهم بالرُعب منصوره ، وكائبُهم بسلطان الله من عدوّهم تحوطة ، وأيديهم بذبّها عن دين الله عالبة ، وأُتِياعُهم بناصرهم غالبّة ، وأحزابُ أعدائهم ببغيهم مقموعة ، ومُجتبهم عند الله وحّله داحضة ، ووسائلهم إلى النصر مردودة ، وأحكامُ الله بنجذلائهم واقعة ، وأقداره بإسلامهم إلى أولبائه حاربه ، وعادته مبهم وفي الأئم السالفة والقرون الخالية ماضية ، ليكون أهل الحق على إثمّ من إنحار ساق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بما قدّم إليهم من الإيدر ، مُعجّله لهم نعمة الله أبدى أولسائه ، مُعدّا لهم العذاب عند ردّهم إليه خربا ، ووصولا بواسمهم في دُنياهم ، وعداب الآخرة من ورائهم وما الله بظلام للعبيد . وصلى الله على محمد أميه المصطفى ، ورسوله المرصّي ، والمنقذ من الصلالة والعمى ، صلاه نامية بركاتها ، دائما أبصالتها ، وسلّم ساجا .

والحمد لله تواضعا لعظمه ، والحمد لله إفرارا بروبنته ، والحمد لله اعترافا بقصور أقصى مازل السكر عن أدنى منزلة من مازل كرامه .

فبما يُقرّظ به الخليفة

والحمد لله الذي حارلا أمر المؤمنين برأيه . رساق اليه حلافته ، بالحاحه منها إليه ، والرعيه منه عنها ، وأسحخص من حاقه من جعته ضيها للمحوارب ، وعدّه للوارل ؛ فلما

(١١) أفضت الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته ، وكشف قناعه لمُحاربتته ؛ فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلافته ، وأرتضاه لولاية أمر أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والقيام بحقه ، والذب عن حُرُماته ؛ وحاط له ما آستره من ذلك ، وقلده بحسن الولاية والكفاية ، وتوكل له بالحفظ والتأييد ، والنصر والغلبة والظهور على مَنْ عَدَد عن طاعته ، وصدف عن حقه ، وأبتغى غير سبيله ؛ كرامة من الله تطول بها عليه ، ومِنَّة منه توحد بها له .

والحمد لله الذى جعل نية أمير المؤمنين عزيمته ، وفكره ورويته ، منذ أفضى الله بالخلافة إليه ، وجعله القائم بإرث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عز الدين ، ونظام أمر المسلمين وترهينُ الشكر ، وإذلالُ الأعداء ، وإشجاؤهم ووقئهم ، وتحصين البيضة ، وإشحانُ الثغور ، ولمُ المنتشر ، وضمُّ الأطراف ؛ لا يفتأه عن ذلك فائئ ، ولا يذْهله عن تنفقه كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهل ؛ يستقل كثير ما يُنفق من الأموال فى سدِّ الثغور ، وتحصينها وحراستها ، لما يرجو فيه من جسم الحظ ، وجزيل الذخر ، وكثير الأجر ؛ تقربا الى الله وأحتسابا له فى جنب ثوابه ، وكریم مآبه ؛ حتى رأب به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأمن به السبل ، وأقام به العوج ، وأفلج به الحُجج ، وأعلى به الدرج ، وأزهق به الباطل ، وأحيا به الحق ، وأشام به سيوف أهل الضلالة والفتنة ؛ لا تأخذه فى القيام بحق الله والانتصار لدينه ، والانتصاح لأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والذب عن حوزتهم ، والرمي من ورائهم ، ودفع بائقة أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمعصية عنهم فترة ولا سامة ؛ توفيقا من الله ، وكسديدا لحُرُمته ، وتأيدا لعزمه ، إذ كان لله شاكرا ، ولدينه ناصرا ، وبحقه قائما ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته ، وحيّاه بكرامته ، يَخْصّه بالخيرة فى كل ما أمض من أمره ، ويتولاه بالتوفيق فى كل ما أبرم من تديره ، ويَجِل عنه

أُعبأ ما حَمَلَه ، وَبُعِينَه بِتأييده على ما قَلَدَه ، وَبِحَوْطِه بِجَمِيل الصنع فيما وِلاه وَاسْتَحْفَظَه ، وَبُيْلَهْمَه جِهَادِ عُدُوهِ ، وَبِحَبْوِهِ بِنَصْرِهِ ؛ حَمْدًا قَاضِيَا لِحَقِّ نِعْمَتِهِ ، مُوجِبَا أَفْضَلِ مَزِيدِهِ .

والحمد لله الذى أورث أمير المؤمنين موارِيثَ نُبُوَّتِهِ ، وَصَيَّرَ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ خِلاَفَتِهِ ، وَأَوْجَبَ ذَلِكَ لَهُ بِالقَرَابَةِ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالبَرَاثَةِ لَوَرَاثَتِهِ مِنْ عُصْبَتِهِ وَأَوْلَى النَّاسِ بِهِ ؛ ثُمَّ أَعَزَّ نَصْرَهُ ، وَأَعْلَى كَلِمَتِهِ ، وَأَفْلَحَ حُجَّتِهِ ، وَأَظْهَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ حَادَهُ وَعَانَدَهُ مِنَ النَّاكِثِينَ وَالْمَارِقِينَ ، وَالبَاغِينَ وَالْمُلْحِدِينَ ، فَاتَعَسَ جُدُودُهُمْ وَفَعَلَ وَفَعَلَ .

والحمد لله الذى عَرَّفَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْذَ اسْتَخْلَفَهُ فِي أَرْضِهِ ، وَأَثَمَنَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، مِنْ عَظِيمِ نِعْمَةٍ ، وَلَطِيفِ صُنْعَةٍ ، وَجَمِيلِ بَلَاءَةٍ ، وَأَعَزَّازِ نَصْرِهِ ، وَاعْلَاءِ يَدِهِ وَكَلِمَتِهِ ، وَإِفْلَاحِ حُجَّتِهِ عَلَى مَنْ ضَادَهُ وَحَادَهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِعَظِيمِ طَوْلِهِ وَمَنَّةِ أَرْتَضَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِدِينِهِ ، وَأَصْطَنَعَهُ لَخِلاَفَتِهِ ؛ فَلَمَّا سَرَبَالَهَا ، وَرَدَّاهُ بِهَاءِهَا وَجَمَالِهَا ، فَاسْتَعْمَلَهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِيهَا ؛ فَأَيَّدَهُ بِقُوَّتِهِ ، وَأَعَزَّهُ بِنَصْرِهِ ، وَحَاطَهُ بِكَفَايَتِهِ ، وَتَوَلَّى الصُّنْعَ لَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ؛ فَلَمْ يَكِدْهُ كَانِدٌ ، وَبُعَانَدَهُ مُعَانِدٌ ، وَبِمَرْقٍ عَنْ طَاعَتِهِ الْوَاجِبَةِ مَارِقٌ ، وَبُيْلِدٌ فِي إِمَامَتِهِ مُلْحِدٌ ، مِمَّنْ يُعَالِنُ بِمَعْصِيَةِ وَشِقَاقٍ ، أَوْ يَنْطَوِي عَلَى غِلٍّ وَنِفَاقٍ ، إِلَّا أَوْهَنَ اللَّهُ كَيْدَهُ ، وَأَتَعَسَ جَدَّهُ ، وَعَاجَلَ الْمُبَادِيَّ بَعْدَاوَتِهِ ، الشَّاهِرَ عَلَى الدِّينِ وَالْمُسْلِمِينَ سَيْفَهُ ، بِاصْطِلَامِ وَبَوَارٍ ، وَأَمَكْنَ مِنْهُ بِذُلَّةٍ وَصَغَارٍ ، وَقَتَلَ الْمُسَرَّغِيهِ ، الْمُنْطَوِيَّ عَلَى غِلِّهِ بِغَيْظِهِ وَغَمِّهِ ، وَأَمَاتَهُ بِدَائِهِ وَحَسَرَتِهِ ؛ إِنْجَازًا مِنْهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَوَعْدِهِ ، وَإِتِمَامًا لِكَلِمَتِهِ فِيَا وَعَدَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ أَسْتَخْلَافِهِمْ فِي أَرْضِهِ ، وَالتَّمَكِّينَ فِي دِينِهِ ؛ وَلَهُ الْحَمْدُ دَائِمًا ، وَالشُّكْرُ خَالصًا ، كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَكَأَيِّنْ أَنْ يُشْعَدَ وَيُشْكَرَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

والحمد لله الذى لم يَبْقُ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَدُوًّا مِنَ النَّاكِثِينَ وَالْجَاهِلِينَ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، حَاوَلَ نَقْضًا لِإِمَامَتِهِ الَّتِي صَيَّرَهَا اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَقَلَدَهُ إِيَّاهَا ؛ أَوْ صَاوَلَ جَيْشًا مِنْ جِيُوشِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْحِمَاةِ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَحِمَارِهِ ، وَإِقَامَةِ سُنَنِهِ وَمَعَالِمِهِ ، إِلَّا أَحَلَّ بِهِ النِّقْمَةَ ، وَأَصَارَهُ إِلَى الصَّغَارِ وَالذُّلَّةِ ، وَالبَوَارِ وَالْهَلَكَةِ ، وَعَجَّلَهُ إِلَى نَارِهِ وَعَذَابِهِ .

والحمد لله الذى لم يزل يتولى أمير المؤمنين بحياطته ، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته ، وإفلاج مجته ، وتأبيد أوليائه وأنصار حقه ؛ وأنزل البأس والنقمة والمثلثات والسطوة بمن عانده ، والذّب عن حريم المسلمين وأهله ؛ بما يبين به عن مكانه منه ، ومنزلته عنده ؛ حميدا ربنا بذلك كما هو أهلّه ومستحقّه ، مشكورا بعظيم مته فيه وطوله ، مسئولا لتمام أحسن عائدته وماضى سنته ؛ فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآلته ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفى أوليائه من التأبيد بنصره ، عادة يتبين بها برهانه ، ويقلج بها مجته ، ويدل بها على كرامته عليه ، ويخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويعمل ما نزل بأعدائه المتولّين عنه ، الراغبين إلى غيره ، المُلحدين فى حقه ، عظة لمن قسا قلبه ، وران عليه سوء عمله ، ليكون ما يعطيه من البسط فى ملكه ، والتمهيد فيما خوّله له ، ويوفقه من السطوة بعدوه ، والتنكيل بمن خالفه ، مجتنبين متظاهرين ، وعبرتين بعين ؛ فيعتصم معتصم ، وينجو ناج ، وليشجب [شاجب] ^(٢) ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضح منه الإعذار ، وكان الله بعباده عليا ، وبأعمالهم خيرا .

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بخلافته : وجعله وارث وحيه ، وقيمه بكتابيه فى عبادته ، وأكرم هذه الأمة التى جعلها خير أمة أخرجت للناس به ؛ فهو الميمون فى تديره المنجح حويله ، الميمون النبوية ، الموفق الرأى والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلائق بقدرته ، وأختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخلافته ، وأصطنعه للقيام فى العباد والبلاد بأمره وقسطه ، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعمل بحقه وعدله ، وألّى أهل الشرك به ، وأخرها إلى أيام دولته ، وحظرها عمن كان قبله ؛ حتى حازله أبحرها ، وأبقى له سناءها وذِكراها ، ونشر عنه أهدوتها وسماها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن المتناثية ، التى لم تكن ترام من أهلها ، ولا يُطمع فى زوالها ؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعنادها ، والأمم المستصعب مراسها وجهادها ، الحامية فى آباد الدهور حماها ؛ فأنفذ فيهم مكيدته ، وأنجح

سعيه، ورماهم بالتخويف، وملأ قلوبهم رعباً منه؛ فأذعن مدّعوهم بطاعته، وأنقادوا لأمره، وصاروا يداً وأعواناً لأوليائه على أعدائه .

أما بعد، فإن أعظم النعم قدراً، وأجلّها أمراً، وأسرّها موقعاً، وأوجبها شكراً، ما عمّ الإسلام والمسلمين نفعها، وعادت عليهم عائدتها، وجعل الله فيه عزّ الدين، وذللّ المشركين؛ وقد جعل الله ذلك في خلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بمنه وبركاته، وما أخلص الله من نيّته وطاعته، وتأدية حقّه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسه، وأنصب فيه بدنه، وأسهر فيه ليله، من حيّطة حريم الإسلام، والزيادة في حدودها متصلاً متتابعاً، والنعم متظاهرة ومتوافرة، فسهل الصعب، وذللّ له العزيز، وقصم عُتاة الأعداء ومتكبريهم، والمستعصين والمستصيعين منهم، في آباد الدهور على من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم؛ وممتنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم؛ فبين مقتول ومأسور، وشريد طريد عن محلّته، وموضع عزّه ومنّته، مُستسلم مُعطٍ قيادته باخع بطاعته؛ وكذا فإن الله بمنه وطوّله قد أوصل لأمر المؤمنين من صنعه له فيما قلّده من خلافته، وحيّاطته لإياها فيما يحوطه من دينه، وعرفه من كفايته فيما قام به من حقّه، وأيّده من نصره فيما جاهد عنه في سبيله، ما قد جعل النعمة به عامة، والشكر به لازماً، وإيّته به واجبة، والصنع عظيماً؛ فالحمد لله على نعمه في ذلك كثيراً .

والحمد لله الذي جعل آجتهد أمير المؤمنين ومقام أمره وتديره، في آناء الليل ونهاره، فيما فيه صلاح عباده، وإعزاز دينه وإقامة حقّه .

تمجيد

الحمد لله الذي لمّا أقترض من الطاعة لولاية الأمر من خلفائه جعل أوائلها ناطقة عن فضل وأخرها، وبودائها مخبرة عن حيد عواقبها، ومواردّها مبشرة بالعلو في مصادرها، بما يعقبه أهلها من السعادة في الماضين من أوليائها القائمين بحقّها؛ وعاد من الشّقوة على مقارفي المعصية المُلحدين إليها؛ حين أقبلت بهم هودى الفتن، وكشفت لهم تواليها عن البوار

والملكه ؛ مُعتذرين حين لا عذر ولا حُجة ، طالين للهَارِب بعد أن كانت منازلُ السلامة بهم مُطمَئِنَّة ، وخائفين وقد كانت سُبل الأمن لهم واضحة ؛ قد جعلتهم النِّقمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرة ، وفزقت بينهم وبين النعم الشاملة ، وحصلت السعادة لمن آتعت بهم باقية ، سنة من الله فيهم ماضية ، وعادة جارية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لخلافته فخرس به دينه من البُغاة الناكِلين عنه ، واختصه بأعلاء رُتب كرامته ، وأفترض طاعته على عباده ، وجعلها بمواقفها فى دينه نظاما لسائر فرائضه ، فتاركها مُفارق لعصمة حقه ، خارجٌ من جملة الأمة التى سبقت لها رحمته ؛ يستنصر أشياع الباطل والله خاذله ، ويُغالِب الحقَّ والله غالبه ، ويطلب مالا سبيل له إليه والله طالبه ؛ حتى يَخْلِجه أجله عن أمله ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره ، ونفوذُ قضاء الله فيه عن نفوذ حيله ؛ فضلا من الله على أوليائه وقضاء منه عدلا فى أعدائه ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لرعاية عباده ، وحِفظ بلاده ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ؛ بجمع به الألفة ، وكف به بوائق الفتنه ، وأصلح به أمور الأمة ، وسكن به الدهماء ، ودفع به عظيم البلاء ، وأنقذ به من الجُهد والآراء ؛ وجدّد لرعيته العبر الشافية ، والعظة الناهية ، وجعل همه السعى لربه ، وطلب الحق الذى أوجبه له من خلافته ، ليؤدّى فرضه فى الأمانة التى حملها ؛ فيوجب له بذلك مالا يزول ولا ينقطع من توابه ، فأعمل رأيه فى الرأفة بمن ولّاه أمره ، والحياطة له ، والعناية بصلاحهم ؛ فأعطاه ابن الموعظة فى وقت الثانى ، والنفوذ لإقامة الحجة والبيّنة ، وشدّة السطوة على من غمط النعمة وعند به الإصرار عن الزرع والفيئة ؛ منا من الله وفضلا ، وإحسانا وتطولا ، والله ذو فضل عظيم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُبتدئا وسُعْبًا ، وأولا وآخرًا ، وقبل كلِّ مسئلة ، وأمام كلِّ رعية ، ومُقدمة كلِّ طليبة ؛ أن يُصلّى على صِمنوته من عباده ، وحِريته وخاتم أنبيائه ورُسله ، نجدِّ عبده ورسوله . أفصل - امراته ، ريارك أكثر بركاته ، وأن يُديم له كرامته ، ويحوى عنده أجمل عاداته . ويُنمِّح له ما أُخص به من إحسانه ؛ حتى يملأ الأرض عدلا وقسطا ،

والإسلام تائبدا وعِزًّا ، والشُّرك ذُلًّا وقَمَعًا ؛ إِنَّهُ وَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ ، وَغَايَةُ كُلِّ حَاجَةٍ .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذى أفضى الله اليه بخلافته ، وأكرمته برّد حَقِّهِ من إرث نُبُوَّتِهِ ، يتلقى عظيم النعمة فى ذلك بالإخلاص للنية والطَّوَيَّة فى الصِّفح عن كُلِّ زَلَّةٍ ، والإقالة لكلِّ عَثْرَةٍ ، والتعمد للهِفْوَةِ وقبول الفَيْثَةِ ، والإِنَابَةِ من عَظُمِ جُرْمِهِ ، وجَلِّ ذَنْبِهِ ، وظَنَّ أن لا توبَةَ لَهُ ؛ وكلما جَدَّدَ اللهُ لَهُ نِعْمَةً ، جَدَّدَ لَهُ فى ذلك نِيَّةَ حَسَنَةٍ ، شَكَرَ اللهُ عِزَّ وجلَّ على ما ابتدأه به ، وارتهاناً لِنِعْمَةٍ عنده ، واسترادَةً من جميل مَوَاهِبِهِ ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رَعِيَّتِهِ ، وأستقامة أُمُورِهَا ، وَحَيَاطَتِهَا وَالذَّبَّ عَنْهَا ، وَكَفَّ الأذى والمكروه عن الدانى والقاصى منها ؛ وَيَتَخَلَّصُ إِلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ وَيَجْتَهِدُ فِيهِ ، وَيَعْمَلُ لِكَثْرَةِ أَوقَاتِ دَهْرِهِ فى كُلِّ مَا بَلَغَهُ مَحَبَّتُهُ نظراً لها ، وَحَدَّاباً عَلَى كَافَتِهَا ، وَإِشْفَاقاً من سوء حالها ؛ إِذْ كَانَ لَهَا وَالِدَا بَرًّا ، وَرَاعِيَا كَالِثًا ، وَنَظَرًا لَطِيفًا ؛ وَيَسْتَعْمَلُ كُلَّ مَا يَرْجُو اثْتِلَافَهَا ، وَالْإِبْقَاءَ عَلَى أَحْوَالِهَا ، وَالسَّلَامَةَ لَهَا فى دِينِهَا وَدُنْيَاهَا ؛ وَيَنْصَبُ لَذَلِكَ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ، وَيُذِيبُ فِيهِ نَفْسَهُ ، وَيَجْعَلُهُ شُغْلَهُ دُونَ غَيْرِهِ .

والحمد لله الذى أصطفى أمير المؤمنين بخلافته ، وأكرمته بإرث نُبُوَّتِهِ ، وجعل خلافتَهُ خِلافةَ يَمْنٍ وَبَرَكَةٍ ، وَلَطِيفِ وَسَعَادَةٍ ؛ انْتِاشَ بِهَا أَوْلِيَائِهِ من مواردِ الْهَلَكَةِ فَرَفَعَ مِثْلَتَهُمْ ، وَشَرَّفَ دَرَجَتَهُمْ ، وَأَعْلَى كَلِمَتَهُمْ . وَأَذَلَّ بِهَا أَعْدَاءَهُمْ ، وَجَدَّدَ دَوَابِرَهُمْ ، وَرَدَّ دَائِرَةَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ ؛ وَجَبَّاهُ مَرْئِيَّةَ نَصْرِهِ وَتَمَكِينِهِ ، وَإِعْزَازِهِ وَتَأْيِيدِهِ ، وَإِظْهَارِهِ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ وَعِنَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَصَدَفَ عَنْ طَاعَتِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا اخْتَارَ أمير المؤمنين لخلافته فَأَيَّدَهُ بِهَا ، جَعَلَ الْحَقَّ نِيَّتَهُ ، وَإِعْزَازَ الدِّينِ بُغْيَتَهُ ، وَمُجَاهَدَةَ أَعْدَاءِ اللَّهِ شُرَقًا وَغَرْبًا وَبَرًا وَبَحْرًا نَهْمَتَهُ وَإِرَادَتَهُ ؛ ثُمَّ يَسِرُ فى ذَلِكَ لِمَا أَحْسَنَ بِهِ عُونَهُ ، عَلَى مَنْ أَسْتَحْفَظُهُ وَقَلَدَهُ ، فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

والحمد لله الذي كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذي لا يستطيع الناس رده، ولا منعه ولا صرفه، ما ولى أمير المؤمنين من خلافته، وما أبتعته له من النصر لدينه، والطلب لحقه، والجهاد لأعدائه؛ وأحسن في ذلك عونه فيه وبلاءه، وأيده في نفسه، لم ينقصه خذلان خاذل، ولا مخالفة من خالف، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تماما وإحكاما؛ حتى أظهر حقه، وأفلج مجتبه، ومحق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته حزبه الغالبين، وجنده المنصورين؛ وجعل عدوه وعدوكم حزب الشيطان الخاسرين، وأولياءه الأذلين؛ بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولّاه وأبلاه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصار إليه من الخلافة وإرث النبوة، وجعله القائم بأمر عباده وبلاده، وألحق لسننه، والذاب عن دينه وحقه، والمُنَاصِبَ لأهل الشرك والجحود به؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودولته، ومكن له في بلاد عدوه، وجعل كلمته العليا وأنصاره الغالبين، ومن ناواه من أهل الخلاف الأذلين المقيهورين؛ وعرفه من نعمته في ذلك وميته وجميل صنعه وعاداته، أحسن ما عود أحدا من أوليائه الدائين عن الإسلام وأهله؛ حمدا متابعا لا انقطاع له ولا أنصرام، دون بلوغ حقه، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

نكصوا على أدبارهم منكوبين مهزومين، قد ضرب الله وجوههم، وفّت في أعضادهم، ومنح الأولياء أكافهم؛ فقتلوهم في كل فج، وعلى رأس كل تُلعة ومَهْرَب ومَسْلَك؛ أباد الله خُصْرَاءَهُمْ وَعَضْرَاءَهُمْ، وحصد شوكتهم، وفل حدهم، وأباخ ^(١) يران ضلالتهم وكفرهم، وشفى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحن؛ ونقل المسلمين أموالهم وذرائعهم، وجعلهم لهم خولا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلّ الله بهم من البأس والنعمة والجائحة

(١) أباح النار: أطفأها .

والظهور والغلبة جزءاً من الله لمن أخذ إلى المعصية وأبتغى غير سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، وأعتصم بالحصون ، وتعوذ بالجبال ، ولأذ بالقلع ، ولجأ إلى الأودية ، من صياصيهم ، وأمكن من نواصيهم ، وأستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوذهم ، وأخذ أسيراً ذليلاً منكوباً خائفاً قد نخب الوجل قلبه وملا الرعب صدره ، متوقفاً أن ينزل الله به من النقمات والمثلثات مالا مردد له عن مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفرة الجراحات ، وعضت السيوف ، وشرت فيهم القنا ، وهرتهم نار الحرب ، وغالهم التزل ، ومارسهم الأبطال ، وأستحز فيهم القتل ، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطيقوا بالموت مراماً ولا على الحرب مقاماً .

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله ، المكذبين بآياته ، الجاحدين رسله ، الجاحلين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول متدتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرآهم ، وقطعهم السبل وأتاهم المحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها بغير حِلِّها وأقترف وأحتمل وزرها ، أليم العذاب وشديد العقاب ، فأبوا إلا تمادياً في ضلالتهم ، وعُتُوا في طغيانهم ، وثبوتاً على عصيانهم ، ومقاماً على كفرهم ، لأحداثه الساففة ، وغوائله المتقدمة ، وبوائقه المشجية ، فوقف مميلاً بين نكل التقدم وحقيقة الأصطلام في التأخر ، دعاهم إلى الفئنة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، آسَظهاراً بالحجة عليهم ، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فيمن معي ، جمع أصحابه ، وضم جنده ، وتمحز في معسكره ، وخندق على منزله ، وأحترس بيجهده ، فأقت معسكرى ، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسلى وأدعوه إلى حظّه ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراً ممن غمط الطاعة ، وسفه الجماعة ، وقد ركضوا في الفتنة عمرهم وسعوا فيه دهرهم ، فانتشر خبرهم ، وكثرت تبعهم ، وكبر وزرهم ، ونقل وقرهم ، ثم أذعنوا لطاعتهم ، وأستقلوا

ناهضين من عَثَرَتِهِمْ ، ومتعشين من زَلَّتِهِمْ ، فُفِّرَتْ ذُنُوبُهُمْ ، وَقَبِلَتْ تَوْبَتُهُمْ ، وَفَسَحَ لَهُمْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَشُرُفَتْ مَزَلَّتُهُمْ ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ أَمْنًا وَبِالذِّلِّ عِزًّا ؛ فَأَبَى بِهِ مِيلَ الْهَوَى ، وَغَلَبَةَ الشَّقْوَةِ ، وَمَسْتَعْلَى الْغَوَايَةِ ، وَالْقَدْرَ الْحَارِبِ ، وَالْقَضَاءَ الْمُحْتَوَمَ . وَتَقَدَّمْتُ فِي مُوَافَقَتِهِمْ^(١) وَتَرْغِيبِهِمْ ، وَالْأَخْذَ بِالْمُخَنَقِ مِنْهُمْ ، مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَا تَتَاوُلِ سِلَاحٍ ، وَلَا تَتَاوَشَ صِيَالٍ ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةَ ، وَدَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِنَابَةِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْأَمَانَ ، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ قَبَلُوا حِدَّتَهُمْ وَأَنْحَدَتْ نَارُ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا تَمَادِيَا فِي غِيَتِهِمْ وَنُكُوصًا عَلَى شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتُ مُنَاجَرَتَهُمْ وَعَرَفْتُ مِنْ اللَّهِ الْخَيْرَ فِي مُحَارَبَتِهِمْ ، وَاسْتَعْتَهُ عَلَيْهِمْ وَاسْتَكْفَيْتُهُ أَمْرَهُمْ ، وَرَجَوْتُ حَسَنَ عَادَتِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْثَالِهِمْ . ثُمَّ وَجَّهْتُ الْأَوْلِيَاءَ فَفَقَدُوا نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لَيْلًا وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي رِحَالِهِمْ ، مُغْتَرَوْنَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَدْ أَمِنُوا خَدَعَ الْحُرُوبِ وَمَكْرَهَا وَمَكِيدَتَهَا ، وَوَقَعَةَ الْبَيَّاتِ وَهَوْلَهَا ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَهْلُ عَدَدٍ وَعُدَّةٍ ، وَبَاسٌ فِي أَنْفُسِهِمْ وَقُوَّةٍ ، اتَّخَذُوا اللَّيْلَ جَمَلًا ، وَسَرَّوْا نَحْوَنَا يَرْجُونَ غِرَّتَنَا وَيَأْمُلُونَ غَفْلَتَنَا ، فَوَقَفَ جَنْدُنَا بِمَكَانِهِمْ آخِذِينَ أَهْبَتِهِمْ ، مَتَمَسِّكِينَ بِالطَّاعَةِ فِيمَا بِهِ لَأْمَرَتُهُمْ ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ طَائِفَةٌ فَدَفَعُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَنَالُوهُمْ بِجِرَاحَاتٍ مَعَ قَتْلَى مِنْهُمْ عِنْدَ تَتَاوُسِهِمْ ، ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَرَجَعُوا الْقَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَّتِهِمْ ، فَاسْتَجَاشُوهُمْ فَاجَاهُمْ بِالْمَكَانِفَةِ وَالْمَوَازِرَةِ ، وَأَقْبَلُوا بِحِجَّتِهِمْ وَحَنَقِهِمْ حَتَّى حَمَلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَضَاقَ الْفَضَاءُ وَطَارَتْ أَفْتَدَةُ جَنْدُنَا رُعبًا مِنْ حَمَلَتِهِمْ ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ لَوَاحِ الْحَرْبِ وَمَوَاضِي رَوَاسِخِهَا وَأَشْبَالِ لِبْدَتِهَا ، تَزَيْنُوا بِالطَّاعَةِ فَأَمَّا حَسَنُ الْعَاقِبَةِ ، وَنَصَرُوا الدِّينَ ، فَوَثِقُوا بِالتَّمَكُّنِ ، آتَدَبَوْا إِلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا لَهُمْ ، وَآزَدَادُوا بِصِيرَةٍ فِي أَمْرِهِمْ ، وَنَفَازًا وَجِدًّا فِي أَجْتِهَادِهِمْ وَمَجَاهِدَتِهِمْ ، فَهَبْتُوا قَائِمِينَ بِالْقُسْطِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ فِي أَمَلَاتِهِمْ ، يَسْأَلُونَهُمُ الْكَرَّةَ بَعْدَ الْكَرَّةِ ، وَيَعِدُّونَهُمُ التَّائِبَةَ ، وَيُثَبِّتُونَهُمُ السَّلَامَةَ ، وَيُضَمِّنُونَ لَهُمُ الْغَنِيمَةَ ؛ فَفَاءُوا إِيَّاهُمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ ، فَسَانَعُوا سَاعَةَ بِالْقَنَى

بعد تراميمهم إرشاقاً . بالسهم فلما رأى أعداء الله جحدهم ، وعرفوا صدقهم ، وخافوا حدهم ،
نكصوا على أعقابهم ، يريدون اللّحاق بمعسكرهم ، وتحرك أصحابنا في طلبهم ، ورجّوا سوء
الصباح لهم ، فامعنوا في أثرهم ، فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولّوا إلى ديارهم
لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذورحم على حبيب ؛ وناثم القنّي فدرسرتهم ، وعصّت
هامهم السيوف فكلمتهم ، وحيل بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم ، فأخذوا في غير طريقه
منهزمين ، قد فل الله حدهم ، وقّل كثرتهم ، وقتل عاتتهم ؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم
بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم في آخرلياتهم ، فلما رأوا غفلتهم ، وأمّنوا
غرتهم ، وآتتروا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، قازون غافلون متفرقون ،
فوضعوا السلاح فيهم ، ضرباً بالسيوف ، وطعنا بالرمح ، وضرباً بالأعمدة ، وذبحاً بالشّفار ،
لا يشوون من جرحوا ، ولا يُبقون من كلّوا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين ، حتى آثنت
السيوف ، وتحطمت القنّي وأندقت الأعمدة ، وكلّت الشّفار ، وبقيت منهم عدّة يسيرة
وشرّدة قليلة ممن لم ينله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأوثقوا حديداً ، وُكّلوا قيوداً ، وكان
أول رأس أتاني بخبره بتسيرهم وأسرع به إلى ذو المعرفة منهم رأس عدوّ الله المارق^(٢)
الباغي ، الشاقّ لعصا المسلمين ، ملائى رئيس ضلالتهم ، وفائد جهالتهم ، ومستغوى
جماعتهم ، فعرفته بجايته ونعته وصفته في عدد كثير من رؤوس قوّاده وأهل الفتنة وأئمة
البدعة ، فلم يلبثوا إلّا ريثاً تصدّعوا في كل جبل ونحر ، منهزمين هارين ، لا يستطيعون لما
أناهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بإير ولا قوّه ؛ ولا باجئون إلى ركن وعصمة ، قد تشتت
بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامهم ، فأخذهم أسرا قسراً قدمهم النصب ، وملاء
قلوبهم الرعب وتخزمتهم الوقائع . ونخبتهم الهزائم ، وتجنّهم القتل ، وغلب الله عزّ وجلّ
لأمير المؤمنين على حصنه الذى كان مُناف عزّه ، وموضع منعه في نفسه ، وجتمع عدته ،
ومادّة قوّته ، فقوضوا عساكرهم ، وأقشعوا عن حصنهم يابّع آخرهم أوطم ، وتجيرين متلدّدين ،

أذلة خاسرين ، ففتقروا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما استحضر القتل فيهم ، وقشت الحراحات في عامتهم ، وطحنتم الحرب بكلكلها ، وألما وقع حديد أنيابها ومساعرها ، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم ، فولوا منهزمين مغلولين ، وركب المسلمون أكتافهم ، يقتلونهم في رؤوس جبالهم ، وخلال غياضهم ، وبطون أوديتهم ، ومقاصي تلاعهم ، وفي كل ناحية من نواحيهم ، حتى عجز الليل دونهم ، وأعجزوهم هربا في معاقلهم .

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ بضلاله ، وتحصن بمعاقله ، وأستكمل قواه ، وكثف تدبيره ، ولجأ إلى مانع منه ودافع عنه ، عطفت عليه عواطف الحق بأوليائه الحق وأنصاره ، ناقضين ما أبرم ، ومتداولين ما سدّ ، ومتوغّلين إلى غيّه ببصائرهم ، وإلى باطله بحقهم ، فاستترّل عن موضع عزّه قسرا ، وأمكن الله أوليائه أسرا ؛ سنة الله فيمن عَنَدَ عن سبيله ، وألحد في دينه ، ومَرَّقَ عن الطاعة وثائقها ، وأستبدل بالحق ومنهاجه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، ولن تجد من دونه مُلتَحِدا ولا نصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرا الشيطان من حزبه ، وأرهق الله باطلهم بحقه ، وجعل الفلج والظفر لأولى الحزبين به ، بذلك جرت سنة الله في الماضين من خلقه ، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته .

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما بَلَا من طاعته ، وأختبر من نصيحته ، ويُنُّ نقيبته ، وشدة شكيمة ، وصحة عزيمته ، وصدق نيته ، وثقل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين ، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها ، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها ، فشمر تشمير أهل الحسبة وحسن الظن بالله من غير ونيّة ولا فترة ولا بقاء جدّ ولا آجتاد ، راجيا أن يُنَجِّح الله سعيه ، ويفلج حجته ، ويظهره على عدوّه من الاستقلال الذي حمله ، والاضطلاع بما أسند إليه ، والامتثال لسيرته ، والانتهاى إلى أمره ، والقبرل لأدبه ، والخفوف بما يستنفضه له من حروبه وأموره مثل الذي جعل عند فلان : يفضلهم بطوله ، ويطولهم بحاسنه ، ويتقدّمهم بحسن بلائه وغنائه ،

ومواقفه ومساعديه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمنهج، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالمرتبة والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدموا متوكلين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللاأواء والجهد والتعب وكلب الشتاء وحارة القيظ، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله وتتجز ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والنصر والغلبة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحيلة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكبت من حادهم وأخلد إلى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غناء، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقساهم نكاية، وأمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدهم تحديبا على السلطان، فأزره بهم، وحصن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهم وقاموا دونه بالعلم، غير مستطيلين بغناء، ولا متعرضين لطلب جزاء، قد تعبدهم الوفاء، وغنوا بقرية الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاما في الطاعة يهدون إليها وأوليئته قادة إلى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كثر الأيام ذكر مساعيمهم، وزائدة على تصرف الأيام حقوقهم، وياديا للعيون حميد أفعالهم، لا تتصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أول إلا آتبعه آخر. ففلان يجري في أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سهلوا له مذهبهم، ويتمسك بؤرا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود . ولم يزل الله يعترف أمير المؤمنين في كل ما أسنده إلى فلان من أعماله وقلده من أموره، المبالغة في قضاء الحق عليه ويمن النقيبة فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قرب به من الله وخليفته . وأمير المؤمنين يحمده الله على ما ينحصره

به من نعمته، وإياه يستعين على قضاء حقّه، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمله عندك، ويرجو أن يوفّقك الله فيه لرشدك، ويؤثرك منه بحظّك، للذّي كان يبلغه وينتهى اليه من خبرك، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير، وتتقلّد في درجتها، مساميا لاهل الفضل في مراتبهم، مترينا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم، وحسن طريقتهم، ولين أكافهم . فحقّق الله ظنه بك، وأجاب دعاءه لك، وبلّغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديت له بانقيادك إليه راغبا، ودخولك فيه محتسبا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها ذخيرة، وأعلاها درجة، وخيرها عاقبة، وأعمّها سلامة، وأمنعها كهفا، وأبقاها شرفا، وأعدلها حكما، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المُلْك فيها، وبهاء الثروة، وأنبساط القدرة، واتساع المملكة، وظهور الغلبة وعزّ التمكين، والنصرة في الدار التي حُيت فيها بقليل ما ترجو أن تصير اليه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازانه بالنعيم المقيم في دار الأَمَد، ومحلّ الأبد، بما لا يَبْلُغُه إحصاء، ولا يكون له آتِهاء، وملاءة فرحا وأبتهاجا، وسرورا وجدلا، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقه أن يغاب لك على حظّك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك، وإلى ذلك سموك وهمّك . وليس ينفك أمير المؤمنين مقتفرا فيك أثرا يحمّده، ومتصفّحا بخبر يبهجه، ومستحدثا نعمة من الله عز وجل يرجو اتصالها وآتساقها لديه بك، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما [يبتغيه] من آجثاث أرومة الفسقة وقطع دابرهم . وبالله الثقة والحول والقوة، متعرّفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعد القامين بحقه، الصابرين في جنبه، وأحسن ما أبلى، ذائدا عن حريم، ومحصّنا لبيضة، ومدافعا عن ملة، فشمر شاريا لله نفسه، طارحا عنه لباس الغفلة، متجافيا عن مهاد الوطأة، وليس تدخله الخلة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يمتنع لأمر المؤمنين طَرف أنت فيه، ولا أمر يُعين عليه ويمسك بسبب من اسبابه .

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّمُو إلى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوثقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُنْشَرَحَةٌ صدورهم بمكانفته، مُنْبَسِطَةٌ أيديهم بمعاونته؛ وقسم لأمر المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قَوْمٌ آزرهم بالنصر، وَكَتَفَهُم باليقين، وألف بصائرهم على الحق، وأيدهم بمؤيَّدات التقوى؛ فلما أمرهم أطاعوا أمره، ولما فَرَضُوا في ذات الله طاعته، فرض الله نصرهم وتمكينهم، فجاهد مجاهدُهم مُسْتَبْصِرًا مُحْتَسِبًا، وقام قائمُهم بالحق عليه مُخْلِصًا مُجْتَهِدًا؛ وقادتهم طلائع الدين ودواعيه أرسالا قُدُما، فاتَّبَعُوا سبيله لا ناكِلين عن إقدام، ولا مُتَوَقِّفين عن آرتاب، ولا مُتَهَيِّين، مع دخائلهم وبصائرهم، عدوا ولا عنادا؛ طالبين بئار الدين بُغَاثَةً، وبطوائل الإسلام عِدَاةً : من صنوف أُمم الكفر ومردة النفاق وأئمة المُلْحِدين؛ متقلِّدين للحق ونُصْرته، ولئن ثَمَّ الحَقَّ بهم ومضى، ولئن مع الحق مَنْ نَكَّث عنه بالسُّتْهم وأيديهم، حتَّى فتح الله عزَّ وجلَّ لأمر المؤمنين معاقل الشُّرك وأُممه، وأناخ الباطل وأركانَه، وأعلام البِدَع وأتباعها، فَضْلاً من الله ونِعْمَةً، والله عليمٌ حكيمٌ؛ إن هزَّزتهم قطعوا قَطر الحُسام، وإن أجزيتهم في عِظِمةٍ وقعوا وقَع الجِياد، وإن استغثت ودام الغناء لك عن جميع العاملين، كانوا رصداً لك فوق أعناق الحاسدين .

ما يُقَرَّرُ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب

ليُعرفوا موقع نعم الله عند أمير المؤمنين . يحوطه به في أوليائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوقم^(١) والتوهين؛ ويشكر الله على النعمة في ذلك، إن الشكر مُحَصَّنٌ للنعم، وأمان من الغير، لِتَحُلُوَ مواقع النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأمر المؤمنين من كلمتهم، ويحُوط من حريمهم، ويحلَّ من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشيت جماعتهم وتوهين حقهم، ويقابلون ذلك بما تُرتبِط به نعمه، ويُستدَر مَزِيدُه .

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المُتَرَاقِ الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزَّيد .

٣ - التَّحَامِيدُ فِي أَوَاخِرِ الْكُتُبِ

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما استحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

فالحمد لله المُنْزِلَ لما يمهّد المبطلون، ويمكِّره الماكرون، ويكيد به الملاحدون، تمكيناً لعبده وخليفته، وَذَبّاً عن دينه وحقه، وإظهاراً لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائمه وقدرته، منما قادراً، ومُمْلِئاً ممهلاً، عدلاً إذا استدرج، متفضلاً إذا أنعم، حمداً يُسْتَنْزَلُ به نصره، ويُبْلَغُ به رضوانه، وَيُمْتَرَى بمثله فواضل مزيده .

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التي تُحمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعزَّ به وليّه، وقمع به من ألحد عن سبيله، حمداً يؤدّي حق نعته، ويوجب به أفضل مزيده بمنه وطوّله .

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأُمير المؤمنين في دولته وسلطانته، ولعامة المسلمين من صنعته وكراماته، في جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تامة، وعلى ما يحل بعدوه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وأستئصاله، ما يكون لموعوده لإنجازها، حمداً يبلغ رضاه ويستوجب مزيده .

تمجيد آخر

الحمد لله الذى تمّ لأمر المؤمنين نعمته ، وأكمل دعوته ، وجعل العاقبة فيه لمن اختاره لخلافته ، وردّ إليه من شدّ عنه من رعيته ، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته ، ولم يُفْل رَأْيُه ولم يُخْلَف ظنّه ، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيقبله ، ويرفع إليه فيبلغ رضاه ، حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء ، ولأفضل إحسانه كفاء ، وللزيد من فضله وإحسانه موجبا ، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤذيا ، وللخلود فى جتته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذى جمع لأمر المؤمنين ما حباه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأبيده ، وإظهاره على من ناواه وصدّ عن حقه ، وصدف عن طاعته ، ووقفه لأختصاص فلان بما وكلّه إليه وعصبيه به من أعباء أموره وجلائل أعماله ، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جدّه ويمن طائرّه ، من نتائج الفتوح ، وتواتر النصر ، وإقبال الصنع ، وإعلاء الحق وإنارته ، وإزالة الباطل وإبادته ، حمدا يؤدّى حقه ، ويرى عزه ، ويمير من أحسن^(١) مزيده ، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة ، وخصّه بالإمامة ، وقلّده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفائته وكلاءته وتأبيده وحياطته ، حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأيدّ جنده ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة مستقيل . ويسأل الله أمير المؤمنين ، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متذلّلا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت فى الأصل كلمات فاشتبتا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكتفه فيما حباه وأستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره ، وأن يهب له مع كل نعمة يجددها له حارسا من شكرها ، يتابع به أفضل مزيده ، فإن النعمة منه ، والشكر بتوفيقه ، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم وولى النعم عليه وعليكم ، أن يلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحمده عليها ، ويطوفه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها استجابة لما وعد الشاكرين من مزيده ؛ إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولّاه خلافته وأعلاه بها ، أن يطوفه ما حمّله ، ويلهمه العدل بين رعيته ، ويلهمهم نصيحته وطاعته ، ويصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذى أيدّه بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوة ، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته ، ويشمله وإياكم بطاعته ومَرْضاته ومحَبته ، وأن يعرّفه وإياكم الزيادة فى نعمه والنصر على عدوّه والتمكين فى بلاده ؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين فى إعانتة على نيته وتبليغه منتهى سؤاله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله ؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدّعاء تطوّلا وتكفّل بالإجابة حتما ، فقال : (اَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) أن يجمع على رضا ألفتكم وأن يصل على الطاعة جملكم ، وأن يمتنع بأحسن ما عودكم من مثنه ، ويؤزّعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده ، وأن يكفّكم كيد الكائدين ، وحسد الباعين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم ، أفضل ما حفظ به إمام هدى فى أوليائه وشيعته ويحيل عنه نقل ما حمّله من أمركم ؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوئ من جرائكم بالحسن ، وحملكم على الطريفة المتلى ، وبه يرضى لكم ناصرا ووليا ، وكفى بالله نصيرا .

ويسأل الله أمر المؤمنين ، أن يحسن على صلاح نيته عونّه ، وأن يتولاه فيما أسرّته ، ولايّة جامعة ، لصلاح ما قلده ، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواضله ، أن يُصَلِّيَ أَفْضَلَ صَلَوَاتِهِ عَلَى أَفْضَلِ أَنْبِيَائِهِ ، وَأَنْ يُجْعَلَ مَا أَذْخَرَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى دَوْلَتِهِ وَخِلَافَتِهِ ، وَجِبَاهِهِ مِنْ وَسَائِلِ الْخَيْرِ عِنْدَهُ ، أَنْ يَجْعَلَ إِلَى أَحْسَنِ تَوْفِيقِهِ لِمَا يَرْضَى مِنْ شُكْرِهِ وَحَسَنِ مَعُونَتِهِ عَلَى مَا أَصْلَحَ لَهُ رَبِّهِ ، فَإِنَّهُ شَاكِرٌ حَيِّبٌ مِنْ شُكْرِهِ وَيُوجِبُ لِمَنْ وَفَّقَ لَشُكْرِهِ مَزِيدًا مِنْهُ وَطَوْلَهُ وَفَضْلَهُ وَإِنْعَامَهُ ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُبْتَدَأًا وَمُعَقَّبًا وَأَوَّلًا وَآخِرًا ، وَقَبْلَ كُلِّ مَسْأَلَةٍ ، وَأَمَامَ كُلِّ رَغْبَةٍ وَمُقَدِّمَةً كُلِّ طَلِبَةٍ ، أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صِفْوَتِهِ مِنْ عِبَادِهِ وَخَيْرِ خَلْقِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ ، مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَرَسُولِهِ ، أَفْضَلَ صَلَوَاتِهِ ، وَيَبَارِكْ عَلَيْهِ أَكْثَرَ بَرَكَاتِهِ ؛ وَأَنْ يَدِيمَ لَهُ كِرَامَتَهُ ، وَيَجْرِيَ عِنْدَهُ عَلَى أَجْمَلِ عَادَاتِهِ ، وَأَنْ يَتِمَّ لَهُ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ ، حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا ، وَالْإِسْلَامَ تَأْيِيدًا وَعِزًّا ، وَالشُّرْكَ ذُلًّا وَقَعًّا ، إِنَّهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ وَغَايَةُ كُلِّ حَاجَةٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وأمير المؤمنين يقول : الحمد لله طاعةً لأمره ، واعتصاما من الفتنة بشكره ، وأستدامةً لِنِعْمَةِ الْمُرْتَايِدَةِ عِنْدَهُ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .^(١)

وأمير المؤمنين ، سأل الله السامعَ كلامَ مَنْ جَهَرَ ، وَالْعَالَمَ بَغِيْبَ مَنْ أَسْرَ ، الْمُطَّلِعَ عَلَى ضَمَائِرِ الْعِبَادِ وَوَسْوَستِهِمْ ، وَالْمُسْتَنْقِذَ مَنْ يَسَاءَ بَرَحْمَتِهِ ، وَالْمُثَنِّ عَلَى مَنْ يَسَاءَ بِقُدْرَتِهِ ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى الْحَقِّ أَهْوَاءَكُمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ وَيُصْلِحَ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَلَا يَكَلِّكُمْ فِي مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ اللَّقَاءِ ، وَالتَّحَاكُمِ وَالتَّنَاجُزِ ، إِلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَيَكْفِيَكُمْ وَيَكْفِيَكُمْ بِكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

الدعاء لأمير المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهْنَأَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا صَنَعَ لَهُ ، وَيُعِينَهُ عَلَى شُكْرِهِ مَا أَوْلَاهُ ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ وَالسَّلَامُ .

(١) في الأصل المارل ، وهذا أنبتده صحيح .

وله :

ونسأل الله أن يَهِنَا أمير المؤمنين الكراماتُ التي يُتَابِعُهَا ، والنعمُ التي يَظَاهِرُهَا عليه ،
والفتوحُ التي جعلها في خِلافته ، وِلايته ودولته ، ويَهَبُ له من المعرفة بحقه في ذلك والشكر
له بحسن بلائه فيه ، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصى أمنية ، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر
وحسن الثواب في الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمر المؤمنين في غابر أموره ، أحسنَ ما عَوَّده في سالفها ، من السلامة التي
حرسه بها من المكاره ، والعزَّ الذي قهر له به الأعداء ، والنصرَ الذي مَكَّنْ له في البلاد ،
والهدى الذي وهب له به الحجة ، والرفقَ الذي أدَّرْ له به الحلب ، والاستصلاح الذي
آتسقت له به الرغبة ، حتى يكونَ بما أعطاه من ذلك ، وما هو مُستَقْبَلُ به ، أبعدَ خلفائه
ذكرا ، وأبقاهم في العدل أثرا ، وأطولهم في العمر مُدَّة ، وأحسنهم في المعاد مُنْقَلَبًا .

أسأل الله لأمر المؤمنين نعمة لا تزول ، وكرامة لا تتفد ، وعزًّا لا يضام ، ونصرا
لا يغلب ، وكفايةً ينظم بها جميع الصلاح ، حتى لا يكون بأوَّل من ذلك أسعد منه بآخر ،
ولا بماض أسرَّ منه بمستقبل .

أسأل الله لأمر المؤمنين في عاقبة كلِّ نعمة أفضلَ ما وهب له في عاجلها ، حتى يجعل
كلَّ نعمة أنعم بها عليه ، وكرامةً حازها له ، موصولةً بالتمام ، محوطةً بالحفظ ، مكثورةً من الغير ،
ممدودةً الى طول غايات البقاء ؛ لا يشوب صفوها كدر ، ولا سلامتها غير ، ولا سرورها
تنغيص ؛ وهنَّا الله أمير المؤمنين الظفر ، وأدام له عادة النصر والتمكين الموضح ، ومُجْتَه
المدحضة لمحجة أعدائه ، والغلبة المظهرة لحقه ، المجتاحة لمن خالفه ؛ ثم لا برحت نعمة الله
راهنة بمثله في الأولياء نصرا ، وفي الأعداء إباحة ، وفي الناكثين تنكيلا .

سر الله أمير المؤمنين بما أهدى له من كفايته ، وحاطه به من منعته ، وأيده به من
نصره ، وجعله وما استراه من دينه وسُطانته ، في كنفه الذي لا يُستباح وتحت يده المانعة
وجنّاحه المحفوظ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه في تمكينه وتوهمهم، ونَصْرِهِ وخِذْلَانِهِمْ، وإِعْزَازِهِ والمُجَاهِدَةَ لَهُمْ؛ وَلَا زَالَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تَرْيَدُهُ فِي قُوَّةِ الظَّفَرِ، وَعِزَّةِ النِّصْرِ، وَتَفِيدِ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ بِالْبَشَارَاتِ وَالْفَتْوحِ، حَتَّى تَمَلَّأَ لَهُ مَا يَبِينُ طَرَفُ مُلْكِهِ أَمْنَا وَعِزًّا، وَيَمَلَأُ بِهِ قُلُوبَ أَعْدَائِهِ خَوْفًا وَرِعْبًا، وَيَعِدَّهُمْ عَلَى خِلَافِهِ سَطْوَةً وَتَنَكُّلًا .

أحمد بن يوسف

وَهَذَا اللَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَهُ، وَمَلَأَهُ كَرَامَتُهُ، وَأَوَّلَى لَهُ قُتُوحُهُ، وَأَدَامَ إِعْزَازَهُ، وَتَوَلَّى حَيَاتِيَّتَهُ وَكِفَايَتَهُ، فِيمَا دَنَا مِنْهُ وَمَا غَابَ عَنْهُ، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ وَالْإِمْتِنَاعَ بِهِ .

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة خليفة بظفر

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الْغَلْبَةِ الْحُجَّةَ، وَمَعَ الظَّفَرِ الْمَعْدَرَةَ، وَجَمَعَ لِعَدُوِّهِ مَعَ الذِّلِّ السَّطْوَةَ، وَمَعَ دُحُوضِ الْحُجَّةِ النَّكَالَ؛ فَلَمْ يَجْمَعْهُ وَالنَّاكِثِينَ مَوْطِنٌ مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، إِلَّا جَعَلَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَلِسَانَ الْعِذْرِ فِيهِ مَعَهُ، وَيَدَ الظُّهُورِ فِيهِ لَهُ؛ ثُمَّ وَهَبَ لَهُ عِنْدَ الظَّفَرِ مِنَ الشُّكْرِ، وَعِنْدَ الْفَلَجِ مِنَ التَّوَاضُعِ، وَعِنْدَ الْقُدْرَةِ مِنَ الْعَفْوِ، مَا جَعَلَهُ مُسْتَوْجِبًا لِمَا أَصْفَاهُ بِهِ، مُعْتَرِفًا بِأَنَّ الْعِذْرَ مُنْقَطِعٌ مِمَّنْ نَكَبَهُ، وَأَنَّ مُسْتَرَادَ الْحُجَّةِ وَمَطْلَبُ السَّلَامَةِ، فِي التَّمَسُّكِ بِطَاعَتِهِ وَمَنَاصِحَتِهِ، وَالْمُجَاهِدَةِ دُونَهُ .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

بعد فتح عمورية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَمَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غَزْوَتُهُ، فَأَذَلَّ بِهَا رِقَابَ الْمَشْرِكِينَ وَشَفَى بِهَا صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ؛ ثُمَّ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ الْأَوْبَةَ سَالِمًا غَانِمًا، وَكَذَا وَكَذَا؛ وَلِيَهْنِئَهُ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، مِمَّا

أحصاه فلا ينساه ، لَيَقِفْهُ به موقفا يرضاه ، فإنه عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ الآية ، فَطَوَى الله لأُمير المؤمنين نازح البُعْد بَرًا وبحرا ، ووقاه وَصَب السفر سهلا ووعرا ، وحاطه بحراسته كالثا ، ودافع عنه بحفظه راعيا ؛ حتى يُؤَدِّيه الى المحل من داره ، والوطن من قراره ؛ وجزاه عن الإسلام خاصّة ، وعن رعيّته كافّة ، بتخيّره مُستَخْلَفًا عليهم ، وقائما مُقامه فيهم هروئُ ابنُ أمير المؤمنين ؛ فقد استخلفه رقيقا شقيقا ، حليما وقورا ، يقظانَ ساكنا ؛ لم يُشَدِّب عليه أمر ، ولم يَنْتشر عليه طرف ، ولم يَضِع معه سبيل ، ولم يُسَخِّط وليا مكائفا ، ولا عدوا مخالفا ، بلا سيف أشرعه ، ولا سور أفرع به ؛ فقتل جزاء أمير المؤمنين في تَخْيِرِهِ إِيَّاهُ ، بخزاه الله على ما حفظ من وصاته ، على محمود مُقامه ، إنّه يجيب الداعي .

وكتب أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر

يهنئته بظفر

بلغني - فتح الله عليك - خروجُ ابنِ السريّ اليك ، فالحمد لله الناصر لدينه المعزّ لوليّه وخليفته على عبادته ، المذلّ لمن صد عن حقه ورغب عن طاعته ؛ ونسأل الله أن يُظَاهِر النعم ويفتح بلدان الشّرك به ؛ والحمد لله على ما وآلاك منذ طعنت لوجهك ، فإنّا تذاكر سيرتك في حربك وسلمك ، ونكثرُ التعجّب لما وُفِّقَ له ، من وَضْع الشدة والليّان بموضعهما ، ولا نعلم سائرُ جُنْد ولا رعيّة عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عمّن أسفه وأضغنه عفوك .

تهنئة خليفة بحجّ

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في نِعَمِهِ ، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله ؛ والحمد لله على ما خَصَّ به أمير المؤمنين من كرامته ، وأعطاه من الفضل في نيّته ، وجعله يستعين على دينه ، بما بَسَطَ له في دنياه ، ويحمل على بدنه النَّصَبَ فيما يتقرب به اليه ؛ فيجفؤ عن دَعْوِهِ على لينها ، ويتحصص عن طُمانينته على فضلها ، إيثارا لآخرته ، وأداء لحق ربّه ؛ بادر له بذلك ليُكرّمه به ، ثم يستعمل فيه نفسه ، تقربا اليه ، فيسعد به بالإذن

في ذلك حين كان من الله له ، وبالعَمَل فيه حين كان لله منه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلاً على قبوله الخير عنه حين يعمل لربه ؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأُمير المؤمنين في زيارة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لا توافي إلا معها . ولا تكون مناسكة إلا فيها ؛ فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، ونخرج منه بقضاء نسكه ، أجراً عقده الله عليه في ابتدائه ، ثم أتمه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

بَلَّغَكَ اللهُ الرِّضَا فِي أَمَلِكْ مِنْ تُجِيعَ كُلِّ حَاجَةٍ وَإِبْلَاحَ كُلِّ أُمْنِيَّةٍ ، وَتَقَبُّلَ كُلِّ دَعْوَةٍ خَصَّصْتَ بِهَا نَفْسَكَ أَوْ عَمِمْتَ بِهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِكَ ، فِي مَجَامِعَ وَفُودِهِ ، وَمُعْتَرِلَ قَوَارِهِ ، فَكُنْتَ شَافِعَ مَنْ شَهِدَكَ ، وَوَافِدَ مَنْ غَابَ عَنْكَ ، يَسْتَفْتِحُ بِدَعَائِكَ ، وَيُرْجَى بِرَكَّةِ مُحَضَّرِكَ ، وَالْقُرْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِفَضْلِ جَاهِكَ .

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية، لنا خاصاً وإلينا واصلاً .

آخر :

وَلَمْ تَخْطِنِي النِّعْمَةَ إِذْ أَصَابَتْكَ ، وَلَمْ تَتَعَدَّنِي إِذْ دَخَلْتُ بِكَ ، وَلَمْ أَخْلُ مِنْ لَازِمِ شُكْرُهَا ، وَمَا يُنْفِلُكَ اللَّهُ مِنْهَا ، إِذْ قُلِدَّتْهَا ، اعْتِدَادًا بِكُلِّ مَا طَوَّقْتُ مِنَ الْمِنَّةِ ، وَإِيحَابًا عَلَى نَفْسِي مَا حَمَلْتُ مِنَ الشُّكْرِ .

ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

سَّرَّكَ اللهُ بِتَتَابُعِ نِعَمِهِ ، وَتَرَادُفِ إِحْسَانِهِ ، وَزَادَكَ مِنْ فَوَاضِلِ أَقْسَامِهِ . بَلَّغْنِي — أَوْ كَرَّمَكِ اللهُ — مَا وَهَبَ اللهُ لَكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، فَقَوَّاهُ اللهُ عَلَى مَا اسْتَرَعَاكَ . وَرَزَقَكَ الشُّكْرَ عَلَى مَا أَوْلَاكَ .

وفي مثل ذلك :

أَكَلِ اللهُ لَكَ السَّعَادَةَ ، وَزَادَكَ فِي الْكَرَامَةِ ، وَخَصَّصَكَ بِدَوَامِ النِّعْمَةِ . بَلَّغْنِي مَا وَهَبَ
اللهُ لَكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، فَسُرِّرتَ بِهِ ، وَسَأَلْتُ اللهَ لِإِتْمَامِ نِعَمِهِ عَلَيْكَ فِيهِ بِتَأْيِيدِكَ ، وَتَوْفِيقِكَ
لِلْعَبْدِ فِي سَيْرَتِكَ ، وَغَرَسَ الْحُبَّةَ لَكَ فِي قُلُوبِ رَعِيَّتِكَ ، وَأَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهِ ، وَيَرْزُقَكَ السَّلَامَةَ
فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا .

وله في مثله :

أَنَا أَهْنَيْ بِكَ الْعَمَلَ الَّذِي وُلِّيتَهُ ، وَلَا أَهْنُكَ بِهِ ، لِأَنَّ اللهَ أَصَارَهُ إِلَى مَنْ يُورِدُهُ مَوَارِدَ
الصُّوَابِ ، وَيَصُدِّرُهُ مَصَادِرَ الْحُجَّةِ ، وَيَصُونُهُ مِنْ كُلِّ خَلَلٍ وَتَقْصِيرٍ ، وَيُمِضِيهِ بِالرَّأْيِ
الْأَصِيلِ ، وَالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ ، قَرْنَ اللهُ لَكَ كُلَّ نِعْمَةٍ بِشُكْرِهَا ، وَأَوْجِبْ لَكَ بِطَوْلِهِ الْمَزِيدَ
مِنْهَا ، وَأَوْزِعْكَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِهَا مَا يَصُونُهَا مِنَ الْفِتَنِ ، وَيَحُوطُهَا مِنَ النِّقْصِ .

آخر :

قَدْ وُلِّيتَ مِنَ الْعَمَلِ مَا أَسْأَلَ اللهُ عَنْهُ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَكَ بَرَكَتَهُ بِدُنُوهِ وَعَاقِبَتِهِ ، وَيُعْطِيكَ
الرِّضَا مِنْ وَلِيَّتِهِ لَهُ وَعَلَيْهِ .

آخر :

هَنَّاكَ اللهُ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْمُقْبِلَةَ ، الدَّالَّةَ أَوَّلَهَا عَلَى تَمَامِهَا ، وَأَوْزِعَكَ شُكْرَهَا .

آخر :

أَسْعِدَكَ اللهُ بِهَذِهِ الْوَلَايَةِ وَجْعَلَهَا مَبَارَكَةً ، تَنْتَقِلُ بِظِلِّ السَّلَامَةِ مِنْهَا ، وَنَيْلِ الْكَفَايَةِ
فِيهَا إِلَى أَمَلِكَ بِنَهَايَتِهِ وَرَجَائِكَ بِغَايَتِهِ ، وَرَزَقَكَ السَّلَامَةَ مِنْ وَلِيَّتِهِ لَهُ وَعَلَيْهِ .

آخر :

سَرَّكَ اللهُ بِمَا جَدَّدَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَنَفَّعَكَ بِهَذِهِ الْوَلَايَةِ ، وَأَرْضَى عَنْكَ مِنْ وَلِيَّتِهِ
لَهُ وَمِنْ وَلِيَّتِهِ عَلَيْهِ .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أثرك فيما تلي من أعمالك ،
وزمك إياها بحزمك وعزمك ، وأنشاك^(١) أهلها من جور من وليهم قبلك ، وسرورهم بتطاؤل
أيامك والكون في ظل يدك وجناحك ، في إطانة من تخصه وتعمه نعمتك ، وتحول به
الحول حيث حالت بك ؛ فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يردد علينا آمالنا فيك
منكوسة ، كما ردها على غيرنا في غيرك . ولوددت أن أباك كان عين آثارك هذه ومناقبك ،
وإن كان الأفتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خلفه ، وألقى إليك بأمره ومعاقده ثقته ،
وجعلك موضع اختصاصه وأثرته ، وصرف ذلك عمن كان لا يستحقه ، وذم سالف رأيه
فيك وفيه وحمد آخره ، ثم نعمة اتصلت لك بما قبلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،
وتلاحمت عليها وأنسقت ، ما منحت في كاتبك ، ومستمزت ثقتك ، وحامل أعبائك ، من
الكفاية والنصيحة ، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطائفة
إليه وروح الثقة به ، لا كما ابتلى أخوك ، فإنه صحبه نخلط عليه أمره ، وأفشى أسرارها الى
صاحب بريده ، فأنفل ذلك بينهم ، وقطع جبالهم ، حتى هجنت آثاره مع حُسْنها ووضوحها ،
وصفرت يده من حظ عمله ، ولزيمه الذم من أهله ؛ فهذه كُتِبَ إلى ، في أطراح نصيحة له
كانت فيه ، ويسألني أن أُنْخِص اليه كتابا يحمل ثقله ، ويفتح له ما أرتجيه من أمره . وهذا
من سعادة جدك ، ويمن طائرک ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيها على طريق موافقتك ،
وهنيئاً هنالك الله نعمة خاصها وعامها ، وأوزعك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسن المزيدي فيها .

تهنئة بعزل

كتب رجل الى مالك بن طوق لما عُزل عن عمله :

أصبحت والله فاضحاً مُتعباً : أما فاضحاً فللكل وإل قبلك بحسن سيرتك ؛ وأما مُتعباً

فللكل وإل بعدك أن ياحقك .

(١) انتياشك أهلها : استفادهم

فصل

سواء علينا أوليت أم صرفت ، إنا لنشهد بك الولاية ، بما بسط الله من يدك ببذل العرف ، ونهنتك بالعرف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميل ؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عملا وأنت محل له ، ولا أن تصحبه وليس به فاقة إليك . فهناك الله النعمة ، وأعانك على الشكر ، وأيدك بالمزيد .

تهنئة بعزل عامل عن عمله

باغنى صرفك ، فخار الله لك ، وهناك لطيف نظره وجميل إحسانه ، فإني أرى الرجل عند خروجه من العمل سالما نقيًا من مآثمه ودنسه ، أولى بالتهنئة منه عند دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عند بدء تلبسه به بالخلاص منه معصوما بريئا من تبعاته ورواجع آثامه ، أولى بمن عُني به وأحب صلاحه ، ولذلك قدمت تهنيتك .

ولسعيد بن حميد في مثله الى بعض إخوانه :

حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام اليك إحسانه . إن سرورى بصرفك ، أكثر من سرور أهلي عَمَلِكَ بما خُصّوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزك الله — فيما يُربأ بك عنه ، بما أنت عليه في قدرك وأستهالك ؛ ولكنا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق ، فطينا نفسا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلمك منه ، ونسأله تمام نعيمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أَمَلِكْ وأماننا فيك ، وشفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب ؛ ثم خصصك الله بجميل الصنع ، وبلغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُخصّص به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم ، ونواب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يُخاف منها ؛ وقد خصصك الله منها بمنه وطوله ما نرجو أن يكون سببا لك الى نيل ما تستحق من المراتب . والله نسأل لإيزاعك شكر ما من به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك ، برحمته وفضله .

آخر :

ما أحسنَ ما كَشَفْتَ عنكَ الولاية، وأَجَل ما أبرز منك العمل ، قد كَسِبَكَ الله حمدَ ولايتك وعَزَلَ عنكَ لأئمتنا، بما أُنشِرَ عنكَ من عَدْلِكَ ، وظَهَرَ من معروفِكَ ، فاذا ساءَكَ هذا فَلْيَسْرُرْكَ .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حمداً يَجُوزُ حمدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خيرة لك ؛ فإن زادَكَ نعمة وفَقَّك لشكرها ، وإن أمتَحَنَكَ ببلوى من نَفَث حاسد أو كَيْد كائد ، أثار برهانك وأفلح مُجْتَبِكَ وجمع بين وليِّكَ وعدوك فى الشهادة لك ؛ وإن نَقَلَ أمرا عن يدك ، فربما يَرْجِعُه اليك مختلاً لفقدك . هذا الى ما جعل عندك من خواصِّ النعم التى إن ذكرناها فاطنبتنا أو تجوزنا فقصرنا ، كان غايتنا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادَكَ الله بهذا الحادث فضلا عظيماً ؛ لما ظهر من وَلِه العامة اليك وتطلُّعها الى ما كانت فيه : من لينٍ لإنصافك وكريم أخلاقك ، ووَحْشَةٍ الخاصَّة لما فَقَدْتَ من حُسن مُعاملتك وكثير تفضُّلك . وأيقنَ أهلُ الرأى والتأمل لصفحات الأمور ، أن كلَّ ما نَحَرَجُ عنكَ فعائد اليك ومتصل به غيره ، حتى تستقرِّ فى يدك عُرَا الأمور ومعاقدها ، وتُفَتِّحَ برأيك وتديرِك أبوابها ومغالقها ، فَلْيَهِنِكَ أن كلَّ ما زادَ غيرك نقصا زادَكَ فضلا ، وكلَّ ما نقص من الرجال وحطَّها ألحقَ بك شرفا . فزادَكَ الله وزادنا منك ، وجعلنا ممن يَقْبَلُهُ رأيك ، ويقَدِّمُه اختيارُكَ ، وَيَقَعُ من الأمور بموافقتك ، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلنى الله من السوء والمكروه فداءك ، وأطال فى الخير والسرور بقاءك ، وأتمَّ نِعَمه عليك ، وأحسنَ منها مَزِيدَكَ ، وبلغَكَ أَقْصَى أُمِّيَّتِكَ ، وقَدَّمْنى أَمامَكَ ، وقَدِّبْنى ما آخَرَهُ اللهُ لَكَ ، فَسُرُرْتُ من حيث يَغْتَمُّ لَكَ مَنْ لا يعرف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين آستحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء لإخوانك من عزك ، لقد سرتنى ما يسر الله لك . والحمد لله الذى جعل
انصرافك محمودا ، وقضى لك فى عاقبتك الحسنى ، وأقول :

لِيَهْنِكَ أَنْ أَصْبَحْتَ مُجْتَمَعَ الْحَمْدِ * وَرَاعَى الْمَعَالَى وَالْمَحَامَى عَنْ الْمَجْدِ
وَأَنَّكَ صُنْتَ الْأَمَرَ فَيَا وَلِيَّتَهُ * فَفَرَّقْتَ مَا بَيْنَ الْغَوَايَةِ وَالرُّشْدِ
فَلَا يَحْسَبُ الْبَاغُونَ عَزْلَكَ مَغْنًا * فَإِنَّ إِلَى الْإِصْدَارِ عَاقِبَةَ الْوَرْدِ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا السَّيْفَ جُرْدًا لِلْوَعَى * فَأَحْمَدُ فِيهَا ثُمَّ رُدُّهُ إِلَى الْغَمْدِ
وقد قال الأول :

فَن يَكُنْ بِوُرُودِ الْعَزْلِ مُكْتَنِبًا * فَإِنِّى بِوُرُودِ الْعَزْلِ مَسْرُورُ
بَعْدَ الْوَلَايَةِ عَزْلُ يُسْتَبِينَ بِهِ * طَوْلُ الْوَلَاةِ وَبَعْدَ الْعَزْلِ تَأْمِيرُ

أما ما عندى مع تصوّر العاقبة لك فى نفسى ، فيمسّنى فى أمرك فى حال المحنة
ما يخصّنى منه فى وقت تجدد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك
فى نفسى . فلا زلت فى نعيم متتابعة متجددة ، ولا عِدِمَتِ الثروة والزيادة ؛ وبلغك الله أقصى
أملك ، وأمل أخيك لك ، وكَبَتِ أعداءك ، وجعلنى وِفَاءك المقدم عنك . أحبّ أن
تشرح لى صورة الأمر إلّام تأدّت ، وكيف كان الابتداء ؛ فإنى لا أشكّ أنها حيلة
ونية من عزّ الصاحب الجليل القدر ، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة ، وتُفْضَى من ذلك
الى ما تسكن اليه نفسى ، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر النين فليكن هذا البناء ، وبأسباب السعادة فليتصل عقدُ هذا الاجتماع ، وبكلّ ذكاء
الولد ، وثروة العدد ، فلتَجْرِكَ الأقدار ، وفى أطول غايات البقاء فلتدُم هذه الغبطة والسرور .

تهنئة بتزويج

بلغنى تزوّجك من فلانة ، فبالرفاء والبنين ، تهنئة السلف الصالحين ، ومبلغ سنة المجتهدين
المتبحرين ، ونقول على يمن الطائر ، وسعادة الحدّ ، ونماء العدد ، وآتفاق الهوى ، وطيب

المناسمة، واجتماع السَّمَل، وثبات الرِّيع، وتَمَلَّى النِّعم . أسأل الله الذى قضاها أن يجعلها لك سَكًّا ويملك لها شَجَنًا ، وأن يُؤَنِّرَ حِمَامَها الى آتِهاءِ نَفْسِكَ عنها ، وجعلك جائزًا تُرَبِّها ، ووَلَّيْتَ المال وهناءة العيش وملاهاة الغوانى بعدها .

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهله على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيها له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَيْمُونًا ، والسَّمَل مجتمعا ، والبركة عظيمة ، والأُمُور سليمة ؛ وكذلك فقد عَظَّمَ الله القَسَم منه لزوجه ، جَعَلَ الأمير سَكًّا لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ ﴾ . فلما كان الأمير هو المنظور اليه ، وهى المنظور إليها ، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فضلها فى نفسها فضلا باختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها ؛ فكان ذلك فضلا من الله زِيْنَةً بفضله ، وكرامة من الله وَصَلَ بَعْضُهَا ببعض . فنزغب الى الله عز وجل فى أن يزيد الأمير فى كُلِّ سَعَةٍ مبسوطة ، ونعمة مقسومة ، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجِبًا ، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا ؛ ثم يَمَلَّى الأمير ذلك بأحسن ما مَلَّى أحدا من خلقه كرامة اصطنعها عنده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أجدلنى ما أحدث الله لأمير المؤمنين من المَوْهبة التى ليس ، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظًا من رَعِيَّتِهِ . فعمّر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يَسُدَّ بهم عَضْدُكَ ، ويسُدَّ بهم ثُلْمَتَكَ ، ويُلْغِهم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك ، غير مُقَعَّد بك مهل ، ولا مُحَلَّ بك أجل ، ولا مُكَذَّبك أمل ، ولا مُنْقَطعة أيامك ، حتى تُخْتَرَمَ أَنْفُسُنَا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله في مولودك الذى أتاك، وهنأك نعمته بعطيته ، وملاك كرامته بفائدته ،
وأدام سرورك بزيادته ، وجعله باراً تقياً، ميمونا مباركا زكيا، ممدودا له فى البقاء، مُبَلِّغا غاية
الأمَل، مشدودا به عَضْدُك، مُكَثِّرا به وَلَدُك، مُداما به سرورك، مدفوعا به الآفات عنك،
مشفوعا بأكثر العدد، من طيب الولد .

وله فى مثل ذلك :

هنأك الله هذه الفائدة التى أفادكها، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها، وشفعها بإخوة
متواترين ، يَسْرُونك فى حياتك وَيُخْلِفُونَكَ فى عَقْبِكَ .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

جُعِلَتْ فِداءك . للبقاء ومولودك، فى السناء نباته، وفى الأيمن شبابه، وعلى البركة ميلاده .

تهنئة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قِسَمه — وإن خُصَّ موقعها ووجب شكرها — نعمةٌ تُعَدِّلُ
النعمة فى الولد، لنمائها فى العدد، وزيادتها فى قوة العضد، وما يُتَعَجَّلُ به من عظيم بهجتها،
ويُرجى من باقى ذكرها فى الخُلُوف والأعقاب، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار. وإت
الله قد أفادك وأنالك غلاما سَرِيّا، سَمِيته فلانا، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين .
فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل
بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمر المؤمنين فى طارف نعمه
وتالدها ، وشَقَّعَ له قديم مننه بجادتها، ورزقه ذكورا طيبين مهذّبين ، يأنس بهم ربُّه،
ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرية زاكية، وبقية صالحة .

آخر :

بلغنى الذى وهب الله لك ، بفعله الله ذُخْراً سدياً ، وعَقْباً كريماً .

عَمْرُو بن مَسْعَدَةَ الى الحسن بن سهل

أما بعد ، فإن هبةَ الله لك هبةٌ لأُمير المؤمنين ، وزيادته لِيَاك في عدده لمَحَلِّكَ عنده ومكانك في دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سَرِيّاً ، فبارك الله لك فيه ، وجعله باراً تقيّاً ، مباركاً سعيداً زَيّاً .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذى رضى منّا بيسير القول عند عظيم النعمة ، حمداً نستوجب به بقاء هذه المَوْهَبَةِ لِلنَّاءِ والفائدة ؛ فإن نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة ، فقد كان ما يَقْبُضُ الأمل منا ذكر أنفراد الأمير بنفسه وقلة نَسْله ، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بفوات الأجل ، ومن دُثُور الأنام ، بواقع الحِجَام ، وقد أصبحنا من الله من يدين في فُسْحَةِ المهمل ، ومده مواقع الأجل ، لمن أراد فيه مَوْضِعَ أَمَلنا في حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئة بمولود

سرورُك سرورٌ يَحْضِيْ مِنْهُ ما يَحْضُكُ ، وتَلْبَسُنِي فِيهِ النعمة ما تَلْبَسُكُ ، والحمد لله على النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغنى من متجدد نعم الله عزّ وجلّ عليك ، وإحسانه اليك فيما رَزَقَكَ من الهبة ما أَشْتَدَّ جَذْلِي به ، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :

قد شَفَعَ الواحد بالوافد * وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسِدِ
أبا حَسَنِ قَرِيعاً بما * أُعْطِيَتْهُ من هبةِ المَاجِدِ

قد قلتُ لِمَا بَشَّرُونِي بِهِ * بُورِكَ فِي الْمَوْلُودِ لِلْوَالِدِ
إِنَّا لَنَرْجُو وَافِدًا مِثْلَهُ * وَالطَّائِرُ الْمَيْمُونُ لِلْوَافِدِ

وله الى بعض إخوانه يهئته بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إِلَّا كُنْتُ بِهِ بَهْجًا، أَعْتَدَ
فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليّ من حَقِّكَ وعَرَفَنِي من جَمِيلِ رَأْيِكَ . فزادك الله
خيرًا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغني أَنَّ اللَّهَ وَهَبَ لَكَ غُلَامًا سَرِيًّا، أَكْمَلَ لَكَ صُورَتَهُ،
وَأَتَمَّ خَلْقَهُ، وَأَحْسَنَ الْبَلَاءِ فِيهِ عِنْدَكَ، فَاشْتَدَّ سُرُورِي بِذَلِكَ، وَأَكْثَرْتُ حَمْدَ اللَّهِ عَلَيْهِ .
فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تَقِيًّا، يَشُدُّ عَضُدَكَ، وَيُكَثِّرُ عَدَدَكَ، وَيُقِرُّ عَيْنَكَ .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهئته بابنة له :

رُبَّ مَكْرُوهٍ أَعْقَبَ مَسْرَّةً، وَمَحْبُوبٍ أَعْقَبَ مَعْرَةً . وَخَالِقُ الْمُنْعَةِ وَالْمُضَرَّةِ، أَعْلَمُ
بِمَوَاضِعِ الْخَيْرَةِ .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الأبنة المستفادة ، وجعلها لكم زينا ، واجرى لكم بها خيرا ، فلا
تكرها ؛ فإنهنّ الأتمهات والأخوات، والعلمات والخالات ، ومنهنّ الباقيات الصالحات ؛
وربّ غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول

مولود كان :

أما بعد، فإن مما أتعرف من مواهب الله، نعمةٌ خُصِّصْتُ بِمِزْيَتِهَا، وَأَصْطَفَيْتُ
بِخُصِّيَصَتِهَا، كَانَتْ أَسْرَلِي مِنْ هِبَةِ اللَّهِ وَلَدًا سَمِيئَةً فَلَانًا، وَأَمَلْتُ بِبَقَائِهِ بَعْدَى حَيَاةٍ وَذَكَرِي،
وَحَسَنَ خِلَافَتِي فِي حُرْمَتِي، وَإِشْرَاكَهُ إِيَّايَ فِي دَعَائِهِ، شَافَعَا لِي رَبَّهُ عِنْدَ خُلُواتِهِ فِي صَلَاتِهِ
وَحُجَّهِ، وَكُلَّ مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ طَاعَتِهِ، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى شَحْضِهِ تَحْزَنُكَ بِهِ وَجَدِي وَظَهَرَهُ

سرورى، وتعطفت عليه منه أنه الولد، وتولت عنى به وحشة الوحدة، فأنا به جَدَل
 فى مَغِيبى ومشهدى، أحوّل مسّ جسده بىدى فى الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعدّله
 عندى عظيما الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سرّنى به واهبه لى على حين حاجتى،
 فشّد به أزرى، وحملنى من شكره فيه ما قد آدنى بثقل حمل النعم السالفة الىّ به، المقرونة
 سرّاؤها فى العجب بقدر ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنيا إياه،
 ووجلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذى أمتنّ علينا بحسن صنّعه فى الأرحام،
 وتأديته بالزكاء، وحرّسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره، وأن يجعل ما يهب لنا
 من سلامته والمُدة فى عمره موصولا بالزيادة، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنّه
 المُنان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. حملنى على الكتاب اليك لعلم ما سرّرتُ به
 علمى بحالك فيه وشرّك إياى فى كل نعمة أسداها الىّ ولّى النعم. وأهل الشكر أولى
 بالمزيد من الله جلّ ذكره. والسلام عليك .

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهى الىّ نُقلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقلة المكروه عنك، ونُقلة السرور
 اليك، ودوام نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينا
 عندك ونعمه عندنا فيك .

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفقك لشكره، وعرفك هدايته، فظهر من الارتباب قلبك،
 ومن الاقتراء عليه لسانك. وما زالت مخايلك مُمثّلة لنا جميل ما وهب الله لك، حتى كأنك لم
 تزل بالإسلام مَوْسوما، وإن كنت على غيره مقيما، وكنا مؤمّلين لما صرّت اليه، مشفقين
 لك مما كنت عليه، واذكاد إشفافنا يستعلى رجاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس
 تعد منك. فأسأل الله الذى تورك فى رأيك وأضاء لك سبيل رُشدك، أن يوفقك
 لصالح العمل، وأن يؤتيك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار .

باب المنظوم

١ - أبو نواس^(١)

كان أبو نواس ينادم ولد المهدى ولازمهم فلم يُلَفَّ مع أحد من الناس غيرهم ،
ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقي منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني ، الشاعر المتفنن ، الجادّ الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ،
ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ يتيمًا فقدمت به
أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب في الأدب ، فلم تبعاً أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ،
فكثت عنده لا يفتر عن معانة الشعر والاختلاف الى الأدياء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحبيب
الشاعر الماجن الكوفي في إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبة معه الى الكوفة ،
فبقى معه ومع ندمائه من خلطاء الكوفة وتخرج عليهم في الشعر وفاقهم جميعا . وقدم بغداد وقد أربت سنه على
الثلاثين ، فاقصص ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له في مدحه ، فدحه بقصائد طنانة وجبسه مرة
على هجومه مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الخصب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمد الأمين ،
وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .
وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكاهي المخضر ، كثير الدعاية ، حاضر البديهة ، متينا في اللغة والشعر والأدب ،
منصباً للبيان على المضرة . وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وغول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار
وأكثرهم تفننا وأرخصهم قولاً وأبدعهم خيالاً مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برّز في كل فن من
فنون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمرية ومقطعاته المحبوبات ، وكان شعره لقاح الفساد والقذوة السيئة ، لنقله
الغزل من أوصاف المؤنث الى الذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفاً قبله وقبل
شيطانه والبه . وزاد على ذلك انفراده بالإبداع في وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتن بشعره الشبان
في زمانه وبعده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعدد ظريفاً إلا اذا مزج شعره بشيء من
ذلك وإن لم يقع في محظوراته .

وصفه عبد الله الجماز فقال : كان أطرف الناس منطلقاً ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم
جواباً ، وأكثرهم حياة ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النعمة والاشارة ، ملتف الأعضاء بين الطويل
والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان
صحيح اللسان ، جيد البيان ، ساذج الألفاظ ، حلو الشائيل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة، فأقبل الناشئ على أبيه هاني وقال له : إن عاش ابنك هذا وقال الشعر ليقولنه بلسان شتوم .

ثم اتصل بوالبة بن الحباب الأسدي ، لقيه بدار النجاشي الأسدي وإلى الأهواز للنصور، فقال له والبة : إني أرى فيك مخايل فلاح، وأرى أنك لا تضعيها، وستقول الشعر وتعلو فيه، فاصحني حتى أخرجك، فقال : ومن أنت؟ قال : أبو أسامة، قال : والبة؟ قال : نعم، قال : أنا والله جعلت فداك في طلبك، وقد أردت الخروج الى الكوفة وإلى بغداد من أجلك، قال : ولماذا؟ قال : شهوة للقائك ولأبيات سمعتها لك، قال : وما هي؟ فأنشده :

ولها ولا ذنب لها * حب كأطراف الزواج
جرحت فؤادي بالهوى * فالقلب مجروح النواحي
سل الخليفة صارماً * هو للفساد وللصلاح
أجده كف أبي الوليد يداً مبارية الرياح
ألقي بجانب خصره * أمضى من الأجل المتأج
وكانما دثر الهبا * عليه أنفاس الرياح

فمضى معه، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنة، ثم قدم ففارق والبة ورجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكلماً جيداً راوية خفلاً، رقيق الطبع ثابت الفهم في الكلام اللطيف .
ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره، منها قوله :

وذات خد مورد * ضيعة المتجرد
تأمل العين منها * محاسناً ليس تنفد

= راوية لا شعار، علامة بالأخبار، كان كلامه شعر موزون . توفي سنة ١٩٩ هـ . وتجدر ترجمته وأخباره وأشعاره في كتاب خاص باسم « أخبار أبي نواس » لأبن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والأعاني (ج ١٨ ص ٢) و (ج ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و (ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والمهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ح ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضه قد تشاهى * وبعضه يتولد

والحسن فى كل شيء * منها مُعاد مرّدد

ومنها قوله :

يا عاقدَ القلب عني * هلا تذكّرتَ حلّا

تركتَ غيّي قليلاً * من القليل أقلّا

يكاد لا يتجزّى * أقلّ فى اللفظ من لا

ومنها قوله فى امرأة أسمها حُسن :

ان اسم حُسن لوجهها صفةٌ * ولا أرى ذا فى غيرها جُمعاً

فهى اذا سُميت فقد وُصفت * فيجمعُ الإسم معنيين معاً

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لزهير اذا حداً رشداً * أقلّ أو أكثر فانت مهذار

سُخّنت من شدّة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتى * كذلك الثلج بارد حار

هذا شيء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون: إن الشيء اذا أفرط

فى البرودة انقلب حاراً، وقالوا: إن الصّندل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخّن .

قالوا : كان أبو نواس دعياً يخلط فى دعوته . فن ذلك قوله يهجو عرب البصرة :

ألا كل بصرى يرى أنما العلاء * مكّهةٌ سُخّقَ لهنّ جرّين^(١)

فان تغرسوا نخلاً فان غراسنا . : ضرابٌ وطعنٌ فى النحور سخين

فان أك بصرياً فإن مهاجرى * دِمَشقٌ ولكنّ الحديث فنون

مجاور قوم ليس يبنى وبينهم . : أوأصر إلا دعوةً وظنون

اذا مادعا باسمى العريف أجبتّه * الى دعوة مما على تهون

(١) المكّهة : الفراس الكثيرة . والسحق : الطويلة ، يربد الخل . والجرّين ها : موضع تجفيف التمر .

ثم هجا يمين في هذه القصيدة بقوله :

لأُزِدَ غَمًّا ، بِالْمُهَلَّبِ نَزْوَةً * إذا أَفْخَرَ الْأَقْوَامَ ثُمَّ تَلِينُ
وبكر ترى ان الزبوة أَتَزَلَّتْ * على مِسْمَعٍ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ جَنِينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأَحْفَنَّا حَتَّى الْمَمَاتِ يَكُونُ
فَلَا كُتُّ قَيْسًا ، بِهَا فِي قُتَيْبَةٍ * وَغَيْرِ بِهِ إِنْ الْفَخَارُ فَنُونُ
ولمَّا نَشَأَ أَبُو نَوَاسٍ بِالْبَعْرَةِ وَلَيْسَ لَهُ بِدَمَشْقٍ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ .

ومما هجا به اليمين أيضا قولُ هاشم بن حديج :

وردنا على هاشم مصره * فبارت تجارتنا عِنْدَهُ

يقول فيها :

رَأَيْتُكَ عِنْدَ حُضُورِ الْخَلَاءِ * نَ شَدِيدًا عَلَى الْعَبْدِ وَالْعَبْدَةِ
وَتَحْتَدُّ حَتَّى يَخَافُ الْخَلِيلُ * سَ شَذَاكَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَدَةِ
وَتَحْتَمُ ذَاكَ بِفَخْرِ عَلَيْهِ * يَكْنُدُهُ فَاسْلَحْ عَلَى كُنْدِهِ
فَإِنْ حُاجِبًا لَهُ هَجْرَةً * وَلَكِنَّا زَمَنَ الرَّدَةِ
وَمَا كَانَ لِإِيْمَانِكُمُ الْرَسُولَ * سِوَى قَتْلِكُمْ صَهْرَهُ بَعْدَهُ
تُعَذِّبُونَهَا فِي مَسَاعِيكُمْ * كَعَذِّ الْأَهْلَةِ مَعْتَدَهُ
وَأَبَاكَ قَاتِلًا فِي الرِّجَالِ * بِجَلِّ لَطْهَرٍ وَلَا رِشْدِهِ
فَلَوْ شِئْتُمْ لَمَّا رِيْشُ الْبَطَا * حَ لَمَّا تَحَشَّتْ نَارُكُمْ جِلْدُهُ^(١)

وقولا أيضا :

مَا مَنَّاكَ سَلَمِي وَلَا أَطْلَالِي الْأَرْسُ * وَلَا نَوَاطِقُ مِنْ طَسِيرٍ وَلَا نَحْرُسُ
يَا هَاشِمُ بَنَ حَدِيْجٍ لَوْ عَدَدَتْ ، أَبَا * مَثَلُ الْقَلَمْسِ لَمْ يَعْلَقْ بِكَ الدَّنَسُ
إِذَا صَحَّ بَيْعُ الْمَلِكِ النَّعْمَانُ وَافِدًا ، * وَمِنْ قُضَاعَةِ أَسْرَى عِنْدَهُ حُبْسُ

(١) المحدث : فخر الجبلد عن العم .

فابتاعهم بإخاء الدهر ما عَمَرُوا * فلم ينل مثلاً من مثلهم أنس
 أورحت مثل حوى في مكارمه * هيات منك حوى حين يلتمس
 أو كالسمول اذ طاف الهام به * في جحفل لجب الأصوات يرتجس
 فاختار ثكلاً ولم يغير بدمته * إذ قيل أشرف تر الأوداج تنجس
 ما زاد ذاك على تيه خيصت به * وكيف يعدل غير السوء العرس
 وقوله :

يا هاشم بن حديج ليس نحرکم * بقتل صهر رسول الله بالسدد
 أدرجتم في إهاب العير جتته * فبئس ما قدمت أيدیکم لغدد
 إن تقتلوا ابن أبي بكر فقد قتلت * حُجراً بدارة ملحوب بنو أسد
 وطرردوكم الى الأجيال من أجاً * طرد النعام اذا ما تاه في البلد
 وقد أصاب شراحيلاً أبو حنيس * يوم الكلاب فما دافعتم بيد
 ويوم قلمت لزيد وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد
 وكل كندية قالت لجارتها * والدمع ينهل من مثنى ومنفرد
 ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية * عن ثاره وصفات النوء والوتد

وقد رنى أبو نواس خلفاً الأحمر بعد موته بقصائد من شعره، منها قصيدته التي أولها

قوله :

لو كان حى وائلاً من التلف^(١) * لو ألت شغواء في أعلى شعف
 أم فرنج أحرزته في جلف^(٢) * مزغب الأنغام لم يا كل بكف
 كأنه مستفعد من الحرف * هاتيك أو عصماء في أعلى شرف
 ترؤغ في الطباق^(٣) والترزع الألف * أودى جماع العلم مذ أودى خلف

(١) وائلاً : ناجياً . ووائت : لجأت . والشغواء : العقاب . والشعف : رهوس الجبال .

(٢) اللجف : العارفي الجبل . ومزغب : صار ذا زغب ، والزغب صغار الريش . والأنغام جمع لند بالصم

وهو لحمه في الحلق . (٣) الطباق والنزع : نوعان من الشجر .

من لا يَعُدَّ العِلْمَ إلا ما عَرَفَ * قَلِيدَمٌ ^(١) من العِيَالِمِ الخُسُفِ
كَمَا مَتَى نَسَاءُ مِنْهُ نَعْتَرِفَ * رَوَايَةً لَا تُجَنِّى مِنَ الصَّحْفِ
ومنها قوله يرثيه :

لَا تَيْلُ الْعُصْمُ فِي الْمَضَابِ وَلَا * شَعْوَاءُ تَغْدُو فَرْخِينَ فِي بَلَحَفِ
يُكْنِهَا الْجَوْفُ فِي النَّهَارِ وَيُو * وَيَهَا سَوَادُ الدُّجَى إِلَى شَرَفِ
تَحْنُو بِجُؤْشُوشِهَا عَلَى ضَرِمِ * كِفْعَةً الْمُنْحَنِ مِنَ الْخَرْفِ ^(٢)
وَلَا شَبُوبٌ بَاتَتْ تَوَرَّقُهُ النَّثْرَةُ مِنْهَا بَوَائِلِ قِصَفِ ^(٣)
دَانٍ عَلَى الْأَرْضِ وَالْوَصِيدِ وَفِي * بِهِوَ أَمِينِ الْإِيَادِ ذِي هَدَفِ ^(٤)
دِيدْنُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْلَتِهِ * حَتَّى إِذَا أَتَجَابَ حَاجِبُ السَّدَفِ
غَدَا كَوَقَفَ الْمَلُوكُ يَنْهَفُ التَّقْطِطُ ^(٥) مِنْ مَنِيَّتِهِ وَالْكَتِفِ
كَانَ شَذْرًا وَهَتْ مَعَاقِدُهُ * بَيْنَ صَلَاةِ فَلَعَبِ الشَّنَفِ
وَأَخْدَرَى صُلْبِ النَّوَاهِقِ صَلَاحِ * أَمِينِ الْفُصُوصِ وَالْوُظُفِ
مَنْفَرْدٍ فِي الْفَلَاةِ تُوسِعُهُ * رِيًّا وَمَا يَخْتَلِيهِ مِنْ عَلَفِ
مَا تَرَكَ الْمَوْتَ مِنْ أَوَّلَى شَبَحًا * بَادَتْ بِتَلَكِ الْفَلَالِ وَالشَّعَفِ
لَمَّا رَأَيْتُ الْمَنُوبَ آخِذَةً * كُلَّ شَدِيدٍ وَكُلَّ ذِي ضَعْفِ
بَتْ أُعْزَى الْفُؤَادَ عَنْ خَلْفِ * وَبَاتَ دُمْعَى إِلَّا يَفِضُ يَكِفِ
أُنْسَى الرِّزَايَا مَيِّتٌ جُحْتُ بِهِ * أُمْسَى رَهِينَ التُّرَابِ فِي جَدَفِ

- (١) القليدَم : البئر الغزيرة . والعِيَالِم : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسِف جمع خسف .
وهي البئر التي حفرت في حجارة فنعج منها ماء غزير لا ينقطع . (٢) الجؤشوش : الصدر . والضرم :
فرخ العقاب . (٣) النوب : التراب من التبراد والغنى . والنثرة : منزلة من منازل القمر .
(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يُخَذ من الخجالة لسال أي الغنم وغيرها في الجبال . والإياد : التراب يجعل حول
الحوض أو الخباء بقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل .
(٥) ينهف : يتساقط وينخفض . والتقطط : المطر الصغير أو المتتابع العظم المطر وقيل هو دون الرذاذ وقيل
البرد أو صفاره .

كَانَ يُسْنَى بِرَفْقِهِ غُلْفًا * فِي غَيْرِ عِيٍّ مِنْهُ وَلَا عُنْفٍ
يُحَوِّبُ عَنْكَ الَّتِي عُشِّيتَ بِهَا * مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَشْفِيكَ فِي لَطْفٍ
لَا يَبْهَمُ الْحَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ بَانِخًا * وَلَا لَامَهَا مَعَ الْأَلْفِ
وَلَا يَعْمَى مَعْنَى الْكَلَامِ وَلَا * يَكُونُ إِنْشَادُهُ عَنِ الصُّحُفِ
وَكَانَ مِمَّنْ مَضَى لَنَا خَلْفًا * فَلَيْسَ مِنْهُ إِذْ بَانَ مِنْ خَلْفٍ

واختلف أبو نواس الى أبي زيد فكتب الغريب من الألفاظ ، ثم نظّر في نحو سيوييه ،
ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السبّان وغيرهم ،
فلم يتخلف عن أحد منهم ، وأدرك الناس فعلم ، ثم قدّم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يتنزّر ويدعى للفرزدق ، ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني ، فهجاه
الحكم وذكر برّيه العود وبغى عليه ونكبه . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها
خنيف ، وهي :

أَلَمْ تَرْبَعْ عَلَى الطَّالِ الطَّمَّاسِ . عَقَاهُ كُلُّ أَحْمَمٍ ذِي ارْتِجَاسِ ^(٢)
وَذَارِي التُّرْبِ مُرْتِكِمٌ حَصَّاهُ + نَسِجَ الْمِيثِ مِعْنَقَةُ الدَّهَّاسِ ^(٣)
سَوَى سُفْعٍ أَطَارَتْهَا اللَّيَالِي ٤ سَوَادُ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ آغْبَسَاسِ ^(٤)
وَأُورْفٍ حَالَفِ الْمُنْشَوَاةِ هَابٍ * كَضَاوِي الْفِرَاحِ مِنَ الْهَلَّاسِ ^(٥)
مَنَازِلُ مِنْ عُقَيْرَةٍ أَوْ سُلَيْمَى أَوْ الدِّهْمَاءِ أَخِيَتْ بَنَى الْجِمَاسِ
كَأَنَّ مَعَاقِدَ الْأَوْضَاحِ مِنْهَا ٦ يَجِيدُ أَغْنَتْ تَوْمَ فِي الْكِتَاسِ
وَتَنَسِّمُ عَنْ أَغْرَمٍ كَأَنَّ فِيهِ * مُجَاجَ سُلَافَةٍ مِنْ بَيْتِ رَاسِ ^(٦)
فَمَنْ ذَا مَبْلَغُ عَمْرٍاءَ رَسُولًا * فَقَدْ ذَكَّرْتُ وَدَكَّ غَيْرَ نَاسِ

(١) سناه تسنية : سهله وفتحته . (٢) حماس بالكسر : دارس . والأحمم : السحاب . والارتجاس :

الرهق . (٣) المعنقة : حبل في الرمل .

(٤) الاغساس : بياض فيه كدرة . والسمع : يرب بها الأناف . (٥) الهلاس : الصمور وهاب :

لونه لون الهباء . (٦) ملدة بالشام تنس - لها المنخر .

فلم أَهْجُرْكَ هَجْرَ قَلِيٍّ وَلَكِنْ * نَوَائِبُ لَا تَزَالُ لَهَا نُقَاسِي
 نَوَائِبُ تَعِجْزُ الْأَدْبَاءُ عَنْهَا * وَيَعِيَا دُونَهَا اللَّيْقِنُ النَّطَاسِي
 وَقَدْ نَافَخْتُ عَنْ أَحْسَابِ قَوْمٍ * هُمْ وَرَثُوا مَكَارِمَ ذِي نُوَّاسِ
 فَإِنْ تَكُ أَوْقَدْتُ لِلْحَرْبِ نَارُ * فَمَا غَطَّيْتُ خَوْفَ الْحَرْبِ رَاسِي
 سَائِلِي خَيْرَ مَا أَلِيَّ مُحَارِمٍ * إِذَا مَا النَّبْلُ أُلْحِمَ بِالْقِيَاسِ^(١)
 وَسَمْتُ الْوَائِلِينَ بِفَاقِرَاتٍ * بِهِنَّ وَسَمْتُ رَهْطَ أَبِي فِرَاسِ
 وَقَالَتْ كَاهِلٌ وَبَنُو قُعَيْنٍ - حَنَانِكَ إِنَّمَا لَسْنَا بِنَاسِ
 فَمَا بِالْأَنْعَاجِ نَفَعْتُ بَشْتِمِي * وَفِي زَمَعَاتِهِنَّ دُمُ الْفِرَاسِ
 وَمَا حَامَتُ عَنِ الْأَحْسَابِ إِلَّا * لَسْتُ رَفَعُ ذِكْرَهَا بِأَبِي نَوَاسِ

طارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على التَّرَارِيَةِ وَاذْعَى أَنَّهُ مِنْ حَاءٍ وَحَكَمٍ ؛ فزجره يزيد بن منصور الحميريّ خال المهدي وقال له : أنت خوزي ، فمالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولّي لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لظريف اللسان غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكيد عنا ويهجو التَّرَارِيَةَ ؛ فكان كما قالوا وكما طنوا ، فانقلب الى اليمن وعدل عن كينته بأبي فراس واكتنى بأبي نواس ، تشبهاً بكنية ذِي نُوَّاسِ كما كانت اليمن تكتنى ، وندم على هجاء اليمن ، ووجدهم له أنصر ولدعوته أَقْبَلَ ، فاعتذر الى هاشم بن حُذَيْجِ الكندي من هجائه ، ومدحَ اليمن فقال :

أَهَاشِمُ خُذْ مِنِّي رِضَاكَ وَإِنْ أَتَى * رِضَاكَ عَلَى نَفْسِي فَغَيْرُ مَلُومٍ
 فَأَقْسَمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشِّمِّ وَالِدِي * وَعَرَضِي وَمَا مَرَّقْتُ غَيْرَ أَدِيمِي
 فَعَدْتُ بِمُحَقِّوِي هَاشِمٍ فَأَعَاذَنِي - كَرِيمُ أَرَاهُ فَوْقَ كُلِّ كَرَمٍ
 وَإِنْ أَمَرًا أَغْضَى عَلَى مِثْلِ زَلَّتِي وَإِنْ جَرَحْتُ فِيهِ لِحْدُ حَلِيمٍ
 تَطَاوَلَ فَوْقَ النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّمَا - يَرَوْنِ بِهِ نَجْمًا أَمَامَ نُحُومٍ

إذا آتتازتِ الأحسابُ يوماً بأهلها ، : أناخَ الى عادِيَةٍ وصَمِيمِ
الى كُلِّ مَعْصُوبٍ به التَّاجُ مِقْوِي * اليه أيا دى تامي و تَمِيمِ
وكان قبل أن ينتمى لليمن ويدعى لئزار يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله :
فاسقنيها وغنَّ صَو * تَاء، لك الخَيْرُ، أَعْجَا
ليس في نعتِ دِمْنَةٍ * لا ولا زَجَرُ أَشْأَمَا

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبي نواس شعرا يفُضَّلُ هذه القصيدة وهي
ودارٍ نَدَايَ عَطَّلُوهَا وأدْبَلُوهَا * بها أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ ودارُسُ
مَسَاحِبُ من جرَّ الزَّقاقِ على التَّرى * وأَضْعَاثُ رِيحَانٍ جَنَى وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بها صَحْبِي بِفَدَدَتْ عَهْدَهُم * وإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لِحَابِسُ
ولم أدر منهم غيرَ ما شَهِدْتُ به * بَشَرَقٍ سَابِطِ الدِّيَارِ البَسَابِسُ
أَقْنَا بها يوماً ويوماً وثالثاً * ويوماً له يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ
تُدَارِ عَلَيْنَا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَةِ * حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارُتُهَا كَسَرَى وفي جَنَابَتِهَا * مَهَّأَ نَدْرِيهَا بِالْقِسَى الفَوَارِسُ
فَللْخَمْرِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ^(١) * وَلِلْأَمْرِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

قوله يصف كرامة وعبر عنها بالهجمة وهو يريد الدنان :

لَنَا هَجْمَةٌ لَا يُدْرِكُ الذَّنْبُ سَخْلَهَا ، وَلَا رَاعَهَا نَزْوُ الْفِحَالَةِ وَالْخَطَرِ
إِذَا امْتَحَنْتَ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوَهَا ، : إِلَى الْكَمْتِ إِلَّا أَنْ أَوْ بَارَهَا خُضْرُ
وَإِنْ قَامَ فِيهَا الْحَالِبُونَ أَتَقْتَهُمْ - بِجَلَاءِ ثَقَبِ الْجُوفِ دِرَّتْهَا الْخُمْرُ
مَسَارَحُهَا الْغَرْبِيُّ مِنْ نَهْرٍ صَرَصَر * فَقَطَّرَ بُلَّ فَالْصَالِحِيَّةُ فَالْعَقَرُ

(١) يعني أن الخمر مصبوبة فيها إلى حلق الصور صرفاً . وقوله : وللاء، يعني أنهم صبوا الماء في مزجها حتى

تُرَاثُ أَبِي سَاسَانَ كَسَرَى وَلَمْ تَكُنْ * مَوَارِيثَ مَا أَبَقْتَ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
قَصَرْتُ بِهَا لَيْلِي وَلَيْلَ ابْنِ حُرَّةَ * لَهُ حَسْبُ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرُ

وَفِي تَعَاظِمِ أَبِي نَوَاسٍ فِي شِعْرِهِ يَقُولُ الرَّقَاشِيُّ يَهْجُوهُ :

نَبَطِيٌّ فَإِذَا قِيلَ لَهُ * أَنْتَ مَوْلَى حَكِيمٍ قَالَ أَجَلُ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذَا كَانَ بِهِ * لَاحِقًا فَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ
وَاضِعًا نَسَبَتَهُ حَيْثُ اشْتَهَى * فَإِذَا مَا رَأَى رَبُّ رَحَلَ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ يَهْجُوهُ :

هَجَوْتُ الْفَضْلَ دَهْرِي وَهُوَ عِنْدِي * رَقَاشِيُّ كَمَا زَعَمَ الْمَسْوُولُ
فَلِمَا سُؤِلْتُ عَنْهُ رَقَاشٌ * لَنَعْلَمَ مَا تَقُولُ وَمَا يَقُولُ
وَلَمَّا أَنْ نَصَّصْنَاهُ إِلَيْهَا * لَنَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا تَقُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَبْعَدَ مِنْ رَقَاشٍ * مِنْ الْأَتْنِ آدَعَتْ فِيهَا الْقُيُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَكْرَمَ مِنْ رَقَاشٍ * لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ
يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا مَوْلَى مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ» .

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

قُلْ لِلرَّقَاشِيِّ إِذَا جِئْتَهُ * لَوْ مِتَّ يَا أَحْمَقُ لَمْ أَهْجُكَ
لَأَتْنِي أَكْرِمَ عِرْضِي وَلَا * أَقْرُنُهُ يَوْمًا إِلَى عِرْضِكَ
إِنْ تَهْجُنِي تَهْجُ نَفْسِي مَا جَدَا * لَا يَرْفَعُ الطَّرْفُ إِلَى مِثْلِكَ
دُونَكَ عِرْضِي فَاهْجُ رَاشِدًا * لَا تَدْنُسُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجْوِكَ
وَاللَّهُ أَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لِمَا * كُنْتُ بِأَهْيَ لَكَ مِنْ أَصْلِكَ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

يَا عَرَبِيًّا مِنْ صَنْعَةِ السُّوقِ * وَصَنْعَةُ السُّوقِ ذَاتُ تَشْقِيقِ
مَا رَأَيْكُمْ يَنْزَارُ فِي رَجُلٍ * يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ مَخْلُوقِ

عصر المأمون

ويحمل الوطْبَ والعَلَابَ ولا * يصلح إلا للحمل لم يرق
 لقد ضربنا بالطبل أنك في التقوم صحيحٌ وصيَحٌ في البوق
 قد أخذ الله من رَقَاشٍ على * تركهم المجد بالموائيق
 فالناس يسعون للعلا قُدَمَا * وهم وراء مكسر والسوق
 هذا كذا كم وفي الهياج اذا « هيج فاشتت من بواشيق^(١)

وقال أيضا يهجو :

أصبح الفضلُ ظاهرَ التَّيه * وذاك مذ صرْتُ أهاجيه
 لله شعري، أي مَفَوَاهِي * لكل من دون قوافيه
 كم بين فضلٍ منذ هاجيته * وبينه قبل أهاجيه
 فالحمد لله وإن كنتُ لم * أحفل بقوم نَصَحوا فيه
 رَضِيتُ أن يستمنى ساقطُ * شِئني خير من مَواليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفى نسبه واسم أمه لثلاث يهجو ، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يتخشم . والمذكور من امره أنه كان مولى الحكيمين ، يفخر باين ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم ، فذلك قال في العجم ما قال .

قال ابو الفرج الأصفهاني : كان أبو عبيدة يقول : ذهبت ايمنُ بجيا . الشعر . وهزل : امرؤ القيس بجده ، وأبو نواس بهزله . وكان يقول : ذهبت اليمينُ بجيا الشعر في قدمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول : شعراء ايمن ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف في فنونه . وكان يقول : يعجبني من شعر أبي نواس قوله :

(١) جمع ناشق وهو اسم طائر أعجمي معرب

بَنَيْنَا عَلَى كَسْرَى سَمَاءَ مُدَامَةٍ * مَكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومٍ
فَلَوْرُدِّ فِي كَسْرَى بْنِ سَاسَانَ رُوحَهُ * إِذَا لَمْ يَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فلا مريء القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فليجرب والفرزدق، ومن المحدثين فلا أبي نواس فحسب. وقيل: للعتبي من أشعر الناس؟ قال: عند الناس أم عندي؟ قيل عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؛ قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يرو شعر أبي نواس فليس بتأم الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين؟ فقال: الذي يقول:

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَتْ * مِنْ مَنْ أْزَارَهُ قَمَرًا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسَنًا * إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا
بَعِينٌ خَالِطُ التَّفْتِي * رُؤْمُنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
وَوَجْهِهٌ سَائِرِيَّ لَوْ * تَصَوَّبَ مَآؤُهُ قَطْرًا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ * لَهُ مِنْ عَنِيبٍ طُرَرًا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سَفَلْتُ عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ تَقَدَّمَنِي مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَوْتُ عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ مَعِيَ وَمِنْ يَمِينِي بَعْدِي، فَأَنَا نَسِيجٌ وَحْدِي.

وحدث جماعة من الرواة ممن شاهدوا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان فخلاً راويةً عالماً.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قرص الشعر فتلقاني وهو سكران ماطر شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثَقِيلُ الظِّلِّ، جامد النسيم؛ فقلت: زِدْ؛ فقال: مظلم الهواء؛ متئناً الفناء؛ فقلت: زِدْ، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل؛

قلت : زد ؛ فقال : وَخِمِ الطَّاعَةَ بِإِعْسِرِ الْقَلْعَةَ ؛ قلت : زد ؛ قال : نَأَى الْجَنَابَاتِ ، بارد الحركات ؛ قال : نَخَفْتُ عَنْهُ ؛ فقال : زدنى سؤالاً ؛ أزدك جواباً ؛ فقلت : « كفى من القلادة ما أحاط بالعنق » .

وقال سليمان بن أبي سهل لأبي نواس : ما الذى استُجيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَلْ مثلها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجدود شعرى إن لم يزاحم غزلى ما قلته فى الطرد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء ولبلى ، فما ظنك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعمائة أرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْقاً فى نظم الشعر ، فقال : لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ب فغاب عنه مدة وحضر اليه فقال له : قد حفظتها ؛ فقال : أنشدّها ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يآذن له فى نظم الشعر ؛ فقال له : لا آذَنُ لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب علىّ فإنى قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا آذن لك إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الدّيرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ؛ فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعراً جيّداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان مونق . وعلى حال ارتضيها من صليّة أوصل بها أو وعد بصلّة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه فيُسْقِطُ كثيراً منها ويترك صافيها ، ولا يسره كل ما يَقْدِفُ به خاطره . وكان يهمله الشعر فى الخمر فلا يعمل به إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر بالبطيء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وَسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفَةٌ كَرَّ الطَّرْفَ تَحَسَّبَ أَنَّهَا * قَرِيبَةٌ عَهْدٍ بِالْإِفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ
وَأَنَّى لَأَتَى الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى * وَيَعْلَمُ سَهْمِي حِينَ أَنْزَعَ مَنْ أَرَمِي

قال العَتَّابُ لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّلَ عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشَّيبَانِي : أشعرُ الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نَؤَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ، وبعْدَ صَبِيَّتِهِ وَظَرْفِ لِسَانِهِ .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : اذا أردتُ أن أجِدَّ ، قلتُ مثل قصيدى « أَيُّهَا الْمَتَابُ عَنْ عُفْرَةٍ » ، واذا أردت العَبَثَ قلتُ مثل قصيدى : « طاب الهوى لِعَمِيدِهِ » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّهُ جيدٌ فاذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذُكْوَانَ : كُنَّا عِنْدَ التَّوْزِيِّ فَذَكَرْتُ عِنْدَهُ أَبَا نَوَاسٍ ، فَوَضَعَ مِنْهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ ، فَقَالَ لَهُ التَّوْزِي : أَتَقُولُ هَذَا لِرَجُلٍ يَقُولُ :

يَخَانُهُ النَّاسُ وَيَرْجُونَهُ * كَأَنَّهُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

ويقول :

فَمَا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ * وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

ويقول :

فَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِلِهِمْ * كَتَمَشَّى الْبُرِّ فِي السَّقَمِ

قال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم :

إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خَلَّتَهُ * يُقْبَلُ فِي دِاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكْبَا

وقال آخر :

كَأَنَّ كُبْرَى وَصُغْرَى مِنْ فَقَاقِعِهَا * حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا * وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا

وقال آخر :

فَكَأَنَّ الْكُؤُوسَ فِينَا نَجُومٌ * دَائِرَاتُ بَرُوجِهَا أَيْدِينَا

وقال آخر :

صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْإِحْرَازُ سَاحَتَهَا . أَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتَهُ سَرَّاءُ

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر أنفرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ * فَدَهْرُ شُرَاهَا نَهَارُ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أَبَا الْعَتَاهِيَةَ فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : تَرِيدُ

جَاهِلِيًّا أَوْ إِسْلَامِيًّا أَوْ مَوْلَدًا ؟ قَالَ : كُلًّا أُرِيدُ ، قَالَ : الَّذِي يَقُولُ فِي الْمَدِيحِ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ * فَأَنْتَ كَمَا تُكْنَى وَفَوْقَ الَّذِي تُكْنَى

وَإِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمَدْحِهِ * لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

والذي يقول في الزهد :

أَلَا رَبَّ وَجْهِهِ فِي التُّرَابِ عَتَبِي * وَارَبَّ حُسْنٍ فِي التُّرَابِ رَقِيقِ

وَارَبَّ حَرَمٍ فِي التُّرَابِ وَتَجْدَةٍ * وَارَبَّ رَأْيٍ فِي التُّرَابِ وَنَيْقِ

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ رَاحِلٌ * إِلَى مَتَرٍ نَالِي الْمَحَلِّ سَمِيقِ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ * وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقِ

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشَفُ * لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وِدِدْتُ انى سبقته اليها بكل ما قلت له
فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله * من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متبهما * لم يُمس محتاجا الى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت * له عن عدوِّ في ثياب صديق

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وِدِدْتُ أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النّظام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبى نواس : كأن هذا الفتى
بُجِعَ له الكلامُ فاختار أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعانى حُبِسَتْ عليه ، فأخذ حاجته
وفزق الباقي على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدّث الحسين بن الخصيب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ
أنا وعبدُ الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلقٍ على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر :
يا أبا العباس ، مَنْ أشعُرَ مَنْ قال الشعر فى خلافة بنى هاشم ؟ فقال : أميرُ المؤمنين أعرِفُ
بهذا وأعلى عينا ؛ فقال له المأمون : على ذلك قَفَّلْ . تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ،
فقال عبد الله بن طاهر : أشعُرُهُم الذى يقول :

ويا قبرَ معين كنت أولَ حُفْرِهِ . من الأرض خُطَّت للسمّاحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقات : بل أشعُرُهُم الذى يقول :

أَتَبَهَّتْ أعداى فصرْتُ أُحِبَّهُمْ . إذ كان حَطَّى منك حَطَّى مِنْهُمْ

فقال المأمون : يا أحمد أبيتَ إلا غَزَلًا ! أين أنتم عن الذى يقول :

يا شقيقَ النفس من حَكَمٍ . نِمْتَ عن لَيْسلى ولم أنمِ

فقانا : صدفت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئِلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفت نفسها
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكشَّفَتْ * له عن عدوٍّ في ثياب صديق
وَرَدَ على العتابي بحلبِ عِدَّةٍ من البِكار من أهلِ قَنَسرين ، فدخلوا وسَلَمُوا ؛ وكان في يده
رُقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هذه الرُقعة وادياً ما سَلَكَ أحدٌ قبله ؛
فَنظَرُوا فإذا هو شعر أبي نواس في جَنانِ جارية آل عبد الوهَّاب الثَّقَفِي ، وهو قوله :
رَبِّعُ الكَرَى بين الجُفونِ مُجِلُّ * عَنَى عليه بُكْيٌ عليك طویلُ
يا ناظراً ما أَقْلَعْتُ لحظَّائِهِ * حتى تشحَّطَ بِنهن قَتِيلُ
أَحَلَّتْ قَلْبِي من هَوَاكَ حِمْلَةً * ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ
بِكمالِ صورتك التي من دونِها * يَتَخَيَّرُ التشبیهُ والتَّمثِيلُ
فوقَ القصيرةِ والقصيرةِ فوقَها * دون السِّمينِ ودونِها المهزولُ
وما أَنشدَه العتابي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد :

مَتَّايَهُ بِجِمالِهِ صَلِفٌ * لا يَسْتَطاعُ كَلَامُهُ تِيهاً
لِلْحَسَنِ في وَجَنَاتِهِ يَدْعُ * ما إِنْ يَمَلُّ الدرسَ قاريها
لو كانتِ الأشياءُ تعقله * أَجَلَّانَهُ لِجَلالِ باريها
لو تَسْتَطيعُ الأرضُ لا تَقْبَضُ * حتى يصيرُ جميعه فيها

وقوله :

إِنْ السحابَ لَتَسْجِي إذا نظرتُ * الى نَدَاكَ فقاَسْتُهُ بِما فيها
حتى تَهْمَ بِأَقْلايَ فيمْنَعُها * خوْفُ من السُّخْطِ من إجلالِ منشِيا

قال محمد بن صالح بن يَهْسَ الكَلَّابِي : لما دخلتُ العراقَ صرْتُ الى مدينة السلام
فسألت عَمَّنْ بها من الشعراءِ المحسِنين ، وذلك في أيامِ خلافةِ الأَمين أو عند موتِه قبل
دخولِ المأمون بِبَسير ، فقل لي : قد غلبَ عليهم قَتِيٌّ من أهلِ البصرة يقال له الحسن

ابن هانيء ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئاً من شعره ، فأتاني فتى كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئاً؟ قال : أروى له أبياتاً في الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدني :

أنحى ما بال قلبك ليس يَنقَى * كأنك لا تظُن الموتَ حقاً
ألا يا بنَ الذين فَنُوا وبادوا * أما والله ما ذهبوا لتَبَقَى
وما للنفس عندك من مُقام * إذا ما استَكملت أَجَلاً ورزقا
وما أحدٌ زادك منك أَحطَى * ولا أحدٌ بذنبك منك أَشَقَى
ولا لك غيرَ تقوى الله زادٌ * إذا جعلتُ إلى اللّهوات تَرَقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسنَ من هذا؟ قلت بلى؟ فأنشدني في رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد * وليس لما تطوى المنيَةُ ناسِرُ
فلا وصلَ إلا عَبرةٌ تُستدِيمُها * أحاديثُ نَفيس ما لها الدهرَ ذا كُرُ
أئن عَمَرْتُ دورَ بمن لا أودّه * لقد عَمَرْتُ ممن أحبُّ المقابرُ
وكنْتُ عليه أحذرُ الموتَ وحده * فلم يَبْقَ لى نبيٍّ عليه أحاذِرُ

فقال : بحقٍّ ما غلب هذا على أهل الأدب وقَدَموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصمّ : كنا عند أبي نُعَيْم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين ذكرتُ شعرَ لبيد يَرِثِي أخاه أربد :

ذَهَبَ الذين يُعاشُ في أَكافِهِم * وَبَقِيْتُ في خَلْفِ بَجلَدِ الأَجْرِبِ

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتاً ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذَهَبَ الناسُ فاستَقَلُّوا وَصَرْنَا * خَلَقَا في أراذلِ النَّسائِسِ
في أناسٍ نُعدُّهم من عديدٍ * فاذا فُتِّشُوا فليَسُوا بناسِ

كلما جئتُ أبتنى الفضلَ منهم * بَدَرُونِي قَبْلَ السَّوَالِ بِيَّاسَ
وَبَكَّوْا لِي حَتَّى تَمْنَيْتُ أَنِّي * مُقِلَّتُ عِنْدَ ذَاكَ رَأْسًا بِرَاسَ

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : للحسن بن هانيء .

قال أبو عبد الرحمن الضرير : رأيتُ مسلم بن الوليد يُجرِّجان وهو يتولّاها، فسألني عن
خَلَقْتُ من الشعراء؛ فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس، وهو مقدّم عندهم؛ فقال :
ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يَا إِنْسَانُ لَا أَنْتَ تَقْفِزُ أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ : « تَقْفِزُ »
خرجتُ من بين فَكْنِي شاعِرٍ قط ! ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحْمِلُ وَيَتَخَطَّى
من صفة المخلوق الى صفة الخالق؟ فقلت : مثل ماذا من قوله؟ قال : أما فيما أحال فكقوله :
وَأَخَفَتَ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ * لَتَخَافُكَ النَّطْفُ الْتِي لَمْ تُخْلَقِ
وهذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ؛ وأما في تَخَطُّيه
بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله :

يَجِلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ * فَكَلَّ خُلُقِي لَخْلُقِهِ مِثْلُ
وكقوله :

* بَرَىءٌ مِنَ الْأَشْبَاهِ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ *

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحْسِنُهَا،
وأجود شعره في النحر والطرد ، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سَرَقَهُ ، وحُسْبُكُ من
رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يُحْسِنُ أَنْ يَبْنِي عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ بِهِ قَبِيحًا، مثل قوله : « وَدَاوِنِي
بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ » أخذه من قول الأعشى : « وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا » والذي أخذه منه
أحسن . ومنها أيضا قوله : « إِنْ الشَّبَابَ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ » أخذه من قول النابغة الجعدي :
« فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ » . وقوله : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ إِهَابِهِ » أخذه من قول أبي النجم :
« كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ كِسَابِهِ » . ولكن رَزَقَ أَبُو نَوَاسٍ فِي شِعْرِهِ أَنْ سَارَ وَحَمَلَهُ النَّاسُ وَقَدَّمَهُ
أَهْلُ عَصْرِهِ، وَإِنْ لَهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَشْيَاءٍ حَسَنًا لَا يَدْفَعُهَا وَلَا يَطْرَحُهَا إِلَّا جَاهِلٌ بِالْكَلَامِ
أَوْ حَاسِدٌ .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زور * صَعْرَاءَ تَحْطِي فِي صَعْرٍ
 مَرَّتْ ^(١) إِذَا الذُّبُّ اقْتَفَرَ * بِهَا مِنَ الْقَوْمِ الْأَثَرُ
 كَانَ لَهُ مِنَ الْجَزْرِ * كُلُّ جَيْنٍ مَا اشْتَكَّرَ ^(٢)
 وَلَا تَعْلَاهُ شَعْرٌ * مَيْتُ النَّسَاحِي النَّعْرُ
 عَسَفَتْهَا ^(٣) عَلَى خَطَرٍ * وَغَرِيرٍ مِنَ الْغَرَرِ
 بِيَازٍ حِينَ فَطَرَ * يَهْرُهُ جُنُّ الْأَشْرِ
 لَا مُتَشَكِّ مِنْ سَدَرٍ ^(٤) * وَلَا قَرِيبٍ مِنْ خَوَرٍ
 كَأَنَّهُ بَعْدَ الضُّمُرِ * وَبَعْدَ مَا جَالَ الضُّفُرُ ^(٥)
 وَأَتَمَحَّ فِي فَخْسٍ : * جَابَ رِبَاعُ الْمُتَغَرِّ ^(٦)
 يَحْدُو بِجُفْبٍ كَالْأَكْرِ * تَرَى بِأَثْبَاجِ الْقَصْرِ ^(٧)
 مِنْهُنَّ تَوْشِيمُ الْجَدَرِ * رَعَيْنَ أَبْكَارِ الْخَضِرِ
 شَهْرَى رَبِيعٍ وَصَفَرٍ * حَتَّى إِذَا الْفَحْلُ جَفَرَ ^(٨)
 وَأَشْبَهَ السَّفَى الْإِبْرَ * وَنَسَّ أَذْخَارُ النُّقْرِ ^(٩)
 قُلْنَ لَهُ : مَا تَأْتِمُرُ؟ * وَهْنٌ إِذْ قُلْنَ : أَشِرُ
 غَيْرُ عَوَاصٍ مَا أَمَرَ * كَأَنَّهَا لَمَنْ نَظَرَ
 رَكْبٌ يَسِيمُونَ مَطَرَ * حَتَّى إِذَا الظِّلُّ قُصِرَ

(١) المَرَّتْ : الأرض لا نبات فيها ، واقترع الأثر : اقتفاه وتبعه . (٢) الجزر (بفتح الجيم) :

ما يذبح من الشاء ذكرًا كان أو أنثى . واحدة : جِزْرَة . وما اشترك : لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر

الذي لا يكاد يظهر . (٣) عسفها : سلكها متخطيًا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير .

(٥) الضمر (بالضم وبضمين) : الهزال . والضفر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشبه به البعير من شعر مضفور .

(٦) الجلب : الحمار الغليظ من حمير الوحش . (٧) الأثباج جمع أثبج وهو وسط الشئ . ، والقصر

جمع قصرة وهي أصل العتق . (٨) جفر : امتنع عن الضراب .

(٩) السفى : كل شجرة له شوك ، ونس : غضب ، والنقر : جمع نقرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمْنَنَ مِنْ جَنِّي هَجَرَ أَخْصَرَ طَلَامَ الْعَكْرَ
وَيَنْ أَحْقَافَ الْقَتَرِ سَارَ وَلَيْسَ لِلْسَمَرِ
وَلَا تَلَاوَاتِ السُّورَ بِمَسْحٍ مِرْنَانًا يَسْرُ^(١)
زُمْتُ بِمَسْزُورِ الْمِرْزِ لَأَيْمِ كَلْقُومِ الْغَمْرِ^(٢)
حَتَّى إِذَا اضْطَفَّ السَّطَرُ أَهْدَى لَهَا لَوْ لَمْ تُجْزَرْ
دَهْيَاءَ يَحْدُوها الْقَدَرُ فَيْلِكَ عَنْسٌ لَمْ تُدَرْ
سَهْبًا إِذَا الْآلُ طَهَّرَ إِلَيْكَ كَلَّمَا السَّفَرُ
خُوصًا يُجَادِنُ النَّظَرَ قَدْ انْطَوَتْ مِنْهَا السَّرَرُ
طَى الْقَرَارَى الْحَبَرِ^(٣) لَمْ تَقْعُدْهَا الطَّيَرُ
وَلَا السَّيْنِجُ الْمَرْدَجَرُ يَافْضَلُ لِلْقَوْمِ الْبَطَرُ
إِذْ لَيْسَ فِي الْبَاسِ عَصَرُ وَلَا مِنْ الْخَوْفِ وَزَرُ
وَنَزَلْتُ إِحْدَى الْكُبَرِ وَفِيْلَ صَمَاءِ الْغَيْرِ
فَالْبَاسُ أَبَاءُ الْحَدَرِ فَرَّحْتَ هَاتِيكَ الْغَمَرُ
عَمَّا « وَقَدْ صَابَتْ بِقَرِّ »^(٤) كَالسَّمْسِ فِي تَخَيُّصِ الْبَشَرِ
أَعْيَا مُجَارِيكَ الْخَطَرِ * أَوْكَ حَلَى عَنْ مُصَرِ
يَوْمَ الرِّوَاقِ الْمُحْتَصَرِ وَالْخَوْفِ يَقْرِى وَيَنْزِرُ
لَمَّا رَأَى الْأَمَرَ اقْمَطَرُ^(٥) قَامَ كَرِيمًا فَانْتَصَرُ
كَهْزَةِ الْعَصَبِ الدَّكْرِ * مَا مَسَّ مِنْ نَبِيٍّ هَبَرُ^(٦)

- (١) المروان : القوس . (٢) رمب شددت ، ومشروور مميول ، والمرر . جمع مرة وهى قوة القتل ،
واللائم : الشديد ، والامر : كصرد الليل . والعرب تشبه الدوق الأوارو-لايم العرب . (٣) القرارى . الخياط
(٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر . ووجه . صات مر ووقت ندر . ال طرفه من العبد الكرى .

كنت منهم كالعطى رأسه * فاحمل اليوم سطاى وحر
سادرا أحسب عي رتدا فساهت وقد صات بقدر

- (٥) اشتد . (٦) هر قطع .

وَأَنْتَ تَقْتَأِفُ الْأَثَرَ * مِنْ ذِي مُجْجُولٍ وَغُرَّرَ
 مَعِيدٍ وَرَيْدٍ وَصَدَرَ . وَإِنْ عَلَا الْأَمْرَ أَقْتَدِرُ
 فَأَيْنَ أَصْحَابُ الْغَمْرِ اذْشَرُوا كَأْسَ الْمِقْرِ^(١)
 وَقُصِّرُوا فِيمَنْ قُصِرَ هِيَمَاتٍ لَا يَخْفَى الْقَمَرُ
 أَصْحَرَتْ اذْذَبُوا الْخَمْرَ . شَكْرًا ، وَحُرٌّ مِنْ شَكَرَ^(٢)
 فَاللَّهُ يُعْطِيكَ الشَّبَرَ . وَفِي أَعَادِيكَ الظَّفَرُ^(٣)
 وَاللَّهُ مِنْ شَاءَ نَصَرَ * وَأَنْتَ إِنْ خِفْنَا الْحَصَرَ^(٤)
 وَهَرَّ دَهْرٌ وَكَثُرَ * عَنْ نَاجِذِيهِ وَبَسَرَ^(٥)
 أَغْنَيْتَ مَا أَغْنَى الْمَطَرُ . وَفِيكَ أَخْلَاقُ الْيَسَرِ
 فَأَنْ أَبَوْا إِلَّا الْعَسَرَ * أَمَرْتُ حَبَلًا فَاسْتَمَرَّ^(٦)
 حَتَّى تَرَى تِلْكَ الزَّمَرَ * تَهْوِي لِأَذْقَانِ النَّغْرِ^(٧)
 مِنْ جَذَبِ الْوَى لَوْ تَرَى^(٨) الْبَهَ طَوْدًا لَا نَاطَرَ^(٩)
 صَعِبٍ إِذَا لَاقَى أَبَرَ . وَإِنْ هَفَا الْقَوْمُ وَقَرَّ
 أَوْ رَهَبُوا الْأَمْرَ جَسَرَ * ثُمَّ تَسَامَى فَفَقَرَ
 عَنْ نِقْشَقٍ تَمْ هَذَرَ * تَمْ تَسَاجَى حُطَرَ
 بِذِي سَيْبٍ وَعُذْرُ^(١٠) يَمِضُ أَطْرَافَ الْوَبَرِ
 هَلْ لَكَ وَالْمَلْ خَيْرٌ * فِيمَنْ إِذَا غَبَّ حَصَرَ
 أَوْ نَالَكَ الْقَوْمُ تَأَرَّ . وَإِنْ رَأَى حَيْرًا شَكَرَ
 * أَوْ كَانَ تَفْصِيرَ عَدَرَ *

-
- (١) المقر: المر . (٢) أصحرت. ررت الى الصحراء . ودنوا امر: مشوا محتمين . والحر: ما سترك من شجر أو ماء أو نحوه . (٣) الخير والقوة . (٤) الصرق . (٥) كثر أبدى عن ناجذيه، وبسر: عدى . (٦) أى أحسكت واه . (٧) جمع ثعرة وهى قرة الحر . (٨) الألوى: الشديد الحصى . (٩) اسوح وادى . (١٠) السبب . سحر الدب والعرف والباكية، والعذر جمع عذار . (١١) قصد لفص هل استهامة فأدخل سلباً، أى ألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها : * ومستعبد إخوانه بثرائه * بلغت
الأمين، فبعث إليه، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاضَّ بَطْرِ أُمِّه
العاهرة ، ويا مدعى ولاءِ حاءَ وحكم ! أتدري يا بنَ الخنَاء من توليت والى من ادّعت ؟
الى الأم قبيلتين في اليمن ، علَّوج باغين . أنت تكتسب بشعرك أوساخَ أيدي الناس اللثام ،
وتقول : * ولا صاحب التاج المحجَّب في القصر * أما والله ما نلتَ مني شيئاً بعد ذلك
أبداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إى والله ! نعم هو مع هذا من كبار الثنوية (١) (وكان يرى
بذلك) ؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأناه سليمان بعدة
نَفَرٍ ، فشهدوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوضع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه
المطر ؛ فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أتم ترعمون أنه ينزل مع كل قطرة
ملك ، فكم تراني أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القدرح ؛ فغضب محمد ، وأمر به
الى السجن . فذلك قول أبي نواس :

ياربَّ إن القومَ قد ظلموني * وبلا اقرارٍ معطلٍ حبسوني
وإلى الجحود بما عرفت خلافة * ربِّي إليك يَكْذِبُهُمْ نَسْبوِي
ما كان إلَّا الجريُّ في ميدانهم * في كلِّ خزيٍّ والمجانةُ ديني
لا العذرُ يقبلُ لي ويفرقُ شاهدي * منهم ، ولا يرضونَ حلفَ يميني
ما كان — لو يدرون — أولَ تحبَّا * في دارٍ منقصةٍ ومنزل هُونِ
أما الأمينُ فلستُ أرجو دفعه * عني ، فمن لي اليوم بالمأمون
فبلغت أبياته المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنيته غني لا يؤمله . فمات قبل دخول
المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافة الى محمد الأمين وولَّى الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرَّغ محمد
والصيد والنزهة ، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجند

(١) الثوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن الور والطلحة أزيلان قديمان ، بخلاف المجوس

فأنهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوَادَ فركبوا، ولبس ثيابَه وتقلد سيفه ، وأَعَدَّت الحَرَاقَاتُ والزَّلَاجَاتُ في دِجْلَةٍ ؛ فقال له اسماعيلُ بنُ صَيْحٍ - وكان كاتبَ سِرِّه - : يا أمير المؤمنين ان قوَادَكَ وجَنَدَكَ وعائِمَةً رَعِيَتَكَ قد خُبِنَتْ نفوسُهُم ، وساءت ظَنُونُهُم ، وكَبُرَ عندهم ما يرون من احتجَابِكَ عنهم ، فلو جَلَسْتَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيناً لهم ومراجعة لآلامهم ! بفلس في مجاسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباءُ نخطبوا ، والشعراءُ فأنشدوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطئاب والتطويل ، الا أَمَرَ بالسكوت ومُنِعَ من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَرٍ ومَدَرٍ ، وإبلٍ ووصيفٍ للبقر وبيوت الشعر ، قد جَفَّتْ أَلْفَظُهُم ، وغَلُظَتْ معانيهم ، ليس لهم بَصَرٌ بمدح الخلفاء ونَشْرِ مكارِمِهِم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى في إنشاده فليفعل ، فأذن له فأنشده :

أيا دارِها بالماءِ حتى تُلَيِّنَها * فلن تُسَكِمَ الصَّهْبَاءَ حتى تُثَبِّتَها
أُغَالِي بها حتى اذا ما ملكتُها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونِها
وصفراءَ قبل المَرْجِ بيضاءَ بعده * كأنَّ شعاعَ الشمسِ يَلْقَاكَ دونَها
ترى العينَ تستعفيك من لمعانِها * وتحسُرُ حتى ما تُقِلَّ جفونَها
نزوعٌ بنفسِ المرءِ عما يَسُوهُ * ويُجْذِلُهُ ألا يزالَ قرينَها
كأنَّ يواقيتنا رواكِدَ حوْلِها * وزُرُقَ سَنَائِيرٍ تديرُ عُيونَها
وشَمَطَاءَ حلِّ الدهرِ منها بَجْوَةٍ * دلفتُ إليها فاستلَّتْ جَبِينِها
كأنَّا حُلُولٌ بين أَكْثَافِ روضةٍ * اذا ما سَلَبْنَاها مع الليلِ طِينِها

الى أن أكمل القصيدة . فقال له محمد : ألم أَنهَكَ عن شرب الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شرَّتها منذ نهيتنى عنها ومنعتنى من شُرِّها ، وأنا الذى أقول :

أيها الرائي باللوم لوما * لا أذوق المدام إلا شيمًا
 نالني بالسلام فيها لإمام * لا أرى لى خلافه مستقيمًا
 فاصرفها الى سواى فإني * لست إلا على الحديث نديمًا
 . كبر حظي منها إذا هي دارت * أن أراها وأن أشم النسيًا
 فكأني وما أزيّن منها * قعدى^(١) يحسن التحكيًا
 كل عن حمله السلاح الى الحر * ب فأوصى الميطيق ألا يقيمًا

فتبسم محمد، وقال له : أحسنت ! وقام بعض الشعراء فأنشد :

ترقى في فضائله الامين * وزال به المشاكل والقرين
 وأورق زهرة التعوى وعزّت * خلافه وصدقت الظنون
 تمس منابر الخلفاء منه * يد بخلاف طاعتها المنون
 يخاف الخوف صولته ويرجو * نداه الجود فهو له خدين

فقال عتة ممن حضر : قد أوجروا جادا، أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال أبو نواس : أشعر
 منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا خير من رأيت العيون * نظيرك لا يحس ولا يكون
 وفضلك لا يحسد ولا يحارى * ولا تحوى حيازته الظنون
 فأت نسيج وحيدك لا شبهة * نحاسه علك ولا خدين
 خلقت بلا مساكلة لىء * فأت الفوق والمعلان دُون
 كأن الملك لم يك قبل سئًا * الى أن قام بالملك الامين

قال : فضله محمد وأحسن جائزته . ويقال : إنه قالها بديها .

(١) القعدى من الحوارج . الذى يرى رأى التعدة الذين يرون التحكيم حقا، غير أنهم قعدوا عن الخروج

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحرّاقَةَ الى الشَّامِسيَّة، واصطَفَتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وَجِلَتْ معه المطابِجُ والخزائن . وكان ركوبه حرّاقَةً^(١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظراً كان أبهى ولا مسيراً كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال :

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا * لَمْ تَسْخَرْ لَصَاحِبِ الْمَحْرَابِ^(٢)
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ سِرْنَ بَحْرًا * سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثَ غَابِ
أُسْدًا بَاسِطًا ذِرَاعِيهِ يَعْدُو * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَلَجَ^(٣) الْأَنْيَابِ
لَا يَعَانِيهِ بِالْبَهَامِ وَلَا السَّو * طٍ وَلَا تَغْمِزُ رِجْلُهُ فِي الرِّكَابِ
تَحْجِبُ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَةٍ لَيْثٍ تَمْرُ مَرَّ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتَ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتَ زَوْرٍ وَمِنْسِرٍ وَجَنَاحٍ * بَيْنَ تَشُقِّ الْعُبَابِ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا سَ * تَعَجَّلُوهَا بِحَيْثُ ذَهَابِ
بَارَكَ اللهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا * هَ وَأَبْقَى لَهُ رَدَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَائِمِي مَوْقِفٍ لِلصَّوَابِ

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد ، وقد ركب حرّاقته الدُّافِينَ ؛ فقال له شيخٌ الى جانبه : اتق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسخر لصاحب المحراب الدُّافِينَ ، وقد سخر له ما هو خير من الدافين ، فأى شئ تتكلم من هذا ؟

قال ابن حبيب : كنت مع مؤنس بن عمران ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد ، فقال مؤنس : لودخلنا على أبي نواس في السجن فسلمنا عليه ! ففعلنا ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للامين ثلاث من السفن المعروفة بالحرّاقات لركوبه خاصة ، وهى الليث والعقاب

والدافين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .

(٣) أهرت الشدق : واسمه . وكالج الأنياب : كاترها .

لمؤنس : أين تريد ؟ فقال : أريد أبا العباس الفضل بن الربيع ، قال فبلغه رقعة أعطيكها ؛ قال : نعم ؛ فأعطاه رقعة فيها :

ما من يد في الناس واجدة * كيد أبو العباس مولاها
نام البغاة على مضاجعهم * وسرى الى نفسى فأحياها
قد كنت خفتك ثم أمتنى * من أن أخافك خوفك الله
فعموت عني عفوا مقسدر * وجبت له نقيم فأنغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة ، فدخل فقام في الصف الأول ؛ فقرأ الأمام : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فقال أبو نواس من خلفه : لبيك ؛ فلما قضيت الصلاة لبيوه وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا له حمدويه صاحب الزندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هذا ماجن ، وليس هو بحيث يُظن ؛ فقال له الرشيد : ويحك ! إنه وقع في نفسى منه شيء ، فامتحنه . قال : نخط له صورة ماني ، وقال له : أبصق عليها ؛ فأهوى أبو نواس بفيه ليقى عليها ؛ فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن . قال : ودعا برجل من الزنادقة مشهور ، وقال له : ابصق عليها ؛ فقال : وما معنى البصاق ! إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله ، وأبى أن يفعل . فقال الرشيد لبعض خدم القصر : امض بهذا (يعني أبا نواس) الى السندي ، فقل له : أدبه وأطلقه ،

(١) لبيوه : أخذوا بلبيه ، وهو موضع القلادة في الصدر . (٢) هو ماني بن فانك الحكيم ، الذي ظهر في زمن سابور ذي الاتكاف بن أردشير ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ، وذلك بعد عيسى عليه السلام . اتخذ له ديناً بين الجوسية والنصرانية . وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق ، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم ، أن الحكيم ماني زعم أنسب العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والأخر ظلمة ، وأنهما أزلان لم يزالا ولن يزالا ، وأكبر وجود شيء إلا من أصل قديم ، وأنهما لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين ، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان ، وفي الحيز متحاذيتان تحاذى الشخص والظل .
(انظر الملل والنحل للشهرستاني)

وبهذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسہ قبلک الى أن تستتيبہ ، فان تاب وإلا قتلناه .
 قال : ففضى بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين
 تذهب بنا ؟ قال : الى السندی ؛ قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسک قبلہ
 حتى تُستتاب أو تُقتل ، ويؤدب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يده ولطمه ، وقال
 له : يابن الزانية ، من الساعة نسيت ! . وبصر بهم الرشيد ، فقال : ردوهم ؛ فقال
 لأبي نواس : ما هذا الذى رأيت منك ؟ قال : أراد والله أن يهلكنى ويطرحنى بحيث
 أنسى أبدا أو أبقي مخلدا ، سألہ يا أمير المؤمنين عن الرسالة ، فاذا هو قد غيرها ؛ فضحك
 من أبى نواس وأطلقه .

قال رزین الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلى بن الخليل فى سوق الكرخ ،
 وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار وتحدث بها . فقال أبو نواس : أدبر من
 كان فى نفسى وكان أسرع الخلق فى طاعى ، فما أدرى ما أحتال له ؟ فقال على بن الخليل
 يمازحه : يا أبا على ، سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك ؛ فقال له أبو نواس : من تعنى ؟
 قال : من أنت فى طاعته ليلك ونهارك (يعنى ابليس) فان لم يقض لك هذه الحاجة ،
 فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقر عينه بمعصية ؛ فقال : هو أسدُّ رأيه من أن يُجَلَّ
 بى أو يُحدثنى ؛ وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا فى ذلك الموضع ، وأخذنا
 فى أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ؛ فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرت قول على بن
 الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عليك . حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة ،
 وما مضت والله ثالثة حتى أتانى من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى
 واسترضانى ، وكان الغضب منه واليغنى ، وأحسب الشيخ (يعنى ابليس) كان يتسمع علينا
 فى وقت كلامنا ؛ وقد قلت أبيتا فى ذلك . فقلنا : هاتها ، فأنشد :

لما جفانى الحبيب وامتنعت . عني الرسالات منه والخبرُ
 واشتد شوقى فكاد يقتلنى . ذكر حبيبي والهَمُّ والفِكرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * في خلوةٍ والدموع تتحدر :
 أما ترى كيف قد بُيئتُ وقد * أقرح جفني البكاء والسهر ؟
 إن أنت لم تلقِ لي المودةَ في * صدر حبيبي وأنت مقتدر
 لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ غنا * ولا جرى في مفاصلي السَّكر
 ولا أزال القرآنَ أدْرُسُه * أروح في دريسه وأبتكر
 وأزم الصومَ والصلاةَ ولا * أزال دهرى بالخير آتمر
 فما مضت بعد ذاك ثالثةٌ * حتى أتاني الحبيبُ يعتذر
 ويطلب الودَّ والوصالَ على * أفضل ما كان قبلَ يهجر
 فيألفها مِنَّةً لقد عظمْتُ * عندى لإبليس ما لها خطرُ

(١)

لما قدم أبو نواس على الخَصِيبِ بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشدته ، فقال له : ها جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسنّ ، فأذن لهم في الإنشاد ، فان كان شعري نظير أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشد الخَصِيبُ ، فأنشدوا مديحا في الخَصِيبِ ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبي نواس ، فقبسَ أبو نواس ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدةً هي بمنزلة عصا موسى ثلثةً ف ما يافكون ؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التي أولها :

أجارةً يبتينا أبوك غيُورٌ - وميسورٌ ما يُربحني لديك عسيرُ

حتى أتى على آخرها ، فانفضَّ الشعراءُ من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر في زِيّ الشُّطَّارِ وتقطيعهم بَطْرَةً قد صَفَّفَها وُكَيْنَ واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخَصِيبِ بهذه الصورة ازدراه واستخفَّ به ، وكن تورد عليه كتبُ الحِلَّةِ من

(١) هو الخَصِيبُ بن عبد الحميد العمري أمير مصر على الحراج . واليه نسب مئة الخَصِيبِ بالوجه القليل وليس نابن صاحب نهر أبي الخَصِيبِ ، ذلك عند المنصور بدال له مرزوق . وكان هذا رئيسا في أراضيه . فانقل الى بغداد وصار كاتب مهبويه الرازي ، ثم انتقل الى الامارة .

(٢) الشُّطَّار : جمع شاطر وهو من أعيان أهله حنا .

بباب السلطان، وورد كسب أبي نواس فيها فقرأها ولم يستنشد، فانصرف مهموما .

وجاء أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب؛ فاستحضره فأنشده :

أَجَارَهُ بَيْتُنَا أُنُوكَ غِيُورٌ . وَمِيسُورٌ مَا يُرْجَى لَدُنْكَ عَيْسِيرٌ
فَإِنْ كُنْتَ لَا حِلْمًا وَلَا أَنْتَ زَوْجَةً ^(١) * فَلَا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورٌ
وَجَاوَرْتَ قَوْمًا لَا تَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ . وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُسُورٌ
مَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ ضَرْبَةً لِزَيْبٍ * وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَى قَدِيرٍ
وَأَنْتَى لَطَرِفِ الْعَبْنِ بِالْعَيْنِ زَاخِرٌ * فَقَدْ كَدْتُ لَا يَخْفَى عَلَى ضَمِيرٍ
كَمَا نَظَرْتُ وَالرِّيحُ سَاكِنَةٌ لَهَا * عُقَاتُ بَاسِعِ الْيَدَيْنِ نُدُورٌ ^(٢)
طَوْتُ لَيْلَيْنِ الْفُوتَ عَنْ ذِي ضُرُورِهِ * أَزْيَغَ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرٌ ^(٣)
فَأَوْفَتْ عَلَى عَلِيَاءَ حِينَ بَدَا لَهَا . مِنْ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يَمُورٌ ^(٤)
تَقَلَّبُ طَرَفًا فِي حِمَاخِي مَغَارِهِ مِنْ الرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ ذُرُورٌ ^(٥)
وَمَا قَالَ أَبُو نَوَاس :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرَكِي : عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرٌ
أَمَّا دُونَ مَصِيرٍ لَاعْنَى مُتَطَلٌّ * نَلَى إِنْ أَسْبَابُ الْغَنَى لَكُنِيرٌ
فَقَاتُ لَهَا وَاسْتَعْلَمَتْهَا بَوَادِرُ . جَرَتْ بِحَرَى فِي جَرِيمٍ عَيْرٌ
دَرِي أَكْثَرُ حَاسِدِكَ رِحَالَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرٌ

قال له الخصيب : أَذَا نَكُثَرُ حَسَادُهَا وَنَبَاعُ أَمْلَهَا، وَأَمْرُ لَهْ أَلْفَ دِينَارٍ .

(١) الحلم : الصديق . (٢) الدور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفي البيت من سوء التركيب ما فيه ، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأسراع اليدين بدور والريح ساكنة . (٣) أزيغ تصغير أزعج وهو الفرح دور الربع أى الریش الدقيق اللين . والشكير : الریش أول ما ينبت . (٤) الضريب : التلح أو الحليد . ويمور : يحويك أو يحى . ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الخاحاح منى محاح وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الخاح . والدور : ما يدور فى العين من الدواء .

وتتمامها :

اذا لم تَزُرْ أَرْضَ الخصبِ ركبنا * فأيّ فتيّ بعدَ الخصبِ تروا !
 فما جازه جودٌ ولا حلّ دونه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير
 فتيّ يشتري حسنَ الثناء بماله * ويعلم أن الدائرات تدورُ
 ولم ترعني سوددًا مثلَ سوددٍ * يحلُّ أبو نصير به ويسير^(١)
 وأطرق حَيَاتِ البلادِ حَيَّة * خَصِيْبَةُ التصميم حينَ تسورُ
 سموت لأهل الجور في حال أمنهم * فاضحوا وكلُّ في الوثاق أسيرُ
 اذا قام غتته على الساقِ حليّة * لها خطوه عند القيام قصيرُ
 فمن يك أمسى جاهلاً بمِقاتي * فان أمير المؤمنين خيرُ^(٢)
 فما زلت تُؤليه النصيحةَ يافعا * الى أن بدا في العارضين قتيْرُ
 إذا غاله أمرٌ فإما كفتته * وإما عليه بالكفءِ تُشيرُ
 إليك رمت بالقوم هُوجٌ كأنما * جاجهما تحت الرّحال قبور
 رحلنا بنا من عقرقوفٍ وقد بدا * من الصبح مفتوقُ الأديم شهيرُ
 فما نجدتُ بالماء حتى رأيتها * مع الشمس في عيني أباحَ تغورُ^(٣)
 وعُمرن من ماء النقيب بئرِية * وقد حان من ديك الصباح زميرُ
 ووافينَ إشراقا كئاسَ تدمرٍ * وهنّ الى رُغن المدخن صورُ^(٤)
 يؤمّن أهل الغوطتين كأنما * لها عند أهل الغوطتين نُورُ
 وأصبحنَ بالحوْلانِ يرضخنَ صخرها * ولم يبق من أجراحهن شُطورُ^(٥)
 وقاسينَ ليلا دون بيسان لم يكد * سنا صبيحه للناظرين بُنيرُ^(٦)
 وأصبحنَ قد فوزنَ من نهر فطرس * وهنّ عن البيت المقدس زورُ^(٧)

(١) تسور : تلج . (٢) القنبر : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) نجدت : عرقت .

(٥) صور : مائلات . (٦) يرضخن : يكسرن . (٧) زور : جمع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب بالركبان غرة هاشم * وفي القorma من حاجهن شقور^(١)
ولما أتت فسطاط مهر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم بسم كان جبينه * سنا الفجر يسرى ضوءه وينير
زها بالخصيب السيف والريح في الوغى * وفي السلم يزهر منبر وسرير
جواد إذا الأيدي كففت عن الندى * ومن دون عورات النساء غير
له سلف في الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدور
ولمّا جدّ إذا بلغتك بالمنى * وأنت بما أملت منك جدّ
فان تولي منك الجميل فاهله * وإلا فإني عاذر وشكور

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم * إن حصّلوا إلا أغر قريع
ساد الربيع رساد فضل بعده * وعلت بعباس الكريم فروع
عباس عباس إذا احتدم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع

وقال يعاتب عمر الوراق :

يا من جفاني وملا * نسيت أهلاً وسهلاً
ومات مرحباً * رأيت مالى قلاً
انى أظنك تحيى * فيما فعلت القيرلى^(٢)
تلقاه في الشرينائى * وفي الرخا يتدلّ

وله في عزة النفس :

ومستعبد إخوانه إثرائه * لبست له كبراً أبر على الكبر
إذا ضمّنى يوماً وإياه محفل * يرى جانبي وعراً يزيد على الوعر

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلى : كان خجير وكان لا يسمع لأحد شيئاً إلا جاء إليه ودخله ولا يخلف عن طعام لأحد ، وإذا سمع

بخصوصة لم يقرب ذلك ، فصرّب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوفى عليه : القرلى .

أخالفه في شكله وأجره * على المنطقى المبرور والظن الشرير
وقد زادني تيهاً على الناس أني * أراي أغاهم وإن كستُ ذا فقير
فوالله لا يُبدي لسانى بلجاجة * الى أحد حتى أُغيب في قبري
ولا يطمعن في ذاك منى طامع * ولا صاحبُ التاج المحجب في القصر
فلو لم أَرثُ فخراً لكنت صياحى * عن اللاس حسبي من سؤالي من الفخر
دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عدهم شراباً ومغنً ، فعرضوا عليه
الجلوس فأبى ، وأخذ الدواة والقرطاس وكتب :

إذا لم تنه نفسك عن هواها * وتحسن صونها فاليلك عني
فاني قد شيعتُ من المعاصي * ومن إدامها وشيعتُ مني
ومن أسوا وأقبح من لبيب * برى مطنزا في منل سني
ومن شعر أبي نواس :

عني المصلى وأقرب الكُتب * مني المبردان فاللهب
منازلٌ قد عمَرْتُها يقعا * حتى بدا في عُداري الشهب
في تبيه كالسيوف هزهم * سرحُ مُبابٍ وزأهم أدب
ثم أراب الزمان فاقسموا * أئدى سآ في البلاد فاسمعوا
لن يُخلف الدهر مثلهم أبدا * على هيات شأهم عت
لما تيقنتُ أن رَوْحهم * ليس لها ما حيتُ مقلت
أبليتُ صبرا لم يُبله أحد * وانقسمتني مآرتُ شع
لذلك أتى اذا رُزئتُ أحاً * فليس بآسى وبآه نَسْتُ
فقطربلُ مرَبِّي ولى نُرَى ال * كرج مِصف وأُمى العَب
نُرضعني دَرها ولجَحى * بطلها والهِجِرُ يلهم
اذا ننته الغُصوبُ حَلَّي * فَمَالُها في أديمه حَرُ

تَبَيْتُ فِي مَأْتَمٍ حَمَائِمِهِ * كَمَا تَرَأَى الْفَوَاقِدُ السُّلْبُ
يَهْبُ شَوْفِي وَشَوْفُهُنْ مَعًا * كَأَنَّمَا يَسْتَخِفُّنَا الطَّرْبُ
فَقَمْتُ أَجْبُو إِلَى الرِّضَاعِ كَمَا * تَحَامِلُ الْوَلَدُ مَسَّهُ السَّعْبُ
حَتَّى تَخِيرْتُ بِنْتَ دَسَكْرَةٍ * قَدْ عَجَمَتْهَا السُّنُونُ وَالْحَقْبُ
هَتَكْتُ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ * مَهَاهِلُ النَّسِجِ مَالَهُ هُدْبُ
مَنْ نَسِجَ نَحْرَاءَ لَا تُشَدُّ لَهَا * أَخِيَّةٌ فِي الثَّرَى وَلَا طَبْ
ثُمَّ تَوَجَّأْتُ خَضْرَاهَا بَشَبَا لَ * بِإِسْفَى بَفَاءَتْ كَأَنَّهَا لَهَبُ
فَاسْتَوْسَقَ الشَّرْبُ لِلنَّدَامِ وَأَجَدَ * رَاهَا عَلَيْنَا الْجُبْنَ وَالْغَرْبُ^(١)
أَقُولُ لِمَا تَحَايَا شَبَّهَا * أَهْمَا لِلتَّشَابُهِ الذَّهَبُ
هِيَ سَوَاءٌ وَفَرَقٌ بَيْنَهُمَا * أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمُنْسِكَبُ
مَلَسَ وَأَمَثَلَهَا مُحْفَرَةٌ * صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلْبُ
يَتَلَوْنَ لِأَنْجِيَالِهِمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ نَحْمِرُ نَجْمُهَا حَبَبُ
كَأَنَّهَا لَوَاؤُ تَبَدَّدُهُ * أَيْدَى عَذَارَى أَقْصَى بَهَا اللَّعْبُ

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأهل من نرب الحمر. وذلك أن المأهون أمر الخطباء
بخراسان أن يعيئوا الأمين بسعر ألى نواس و يقولوا هو جالسُه ونديمه وينشدوا على المنابر
شعره، فمنعه الأمين فقال :

غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَلَا * وَأَسْمِيَا نَحْطُكِ النَّاءِ الثَّمِينَا
مَنْ سُلَافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَيْبٍ * يَمْنَى مَخْبَرٍ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا نَجَسَ مِنْهَا * وَتَبَقَّى بُيُوتَنَا الْمَكْنُونَا
ثُمَّ شُجِّتْ دَا سَتَضَحَكَ عَنْ لَالٍ * أَوْ تَجْعَلَنَّ فِي يَدٍ لَا تُقْنِينَا
وَإِذَا مَا لَمَسَتْهَا فَهَبَاءٌ * تَمْنَعُ الْكَفَّ مَا تُبَيِّحُ الْعُيُونَا

فِي كُؤُوسٍ كَانَهُنَّ نُجُومٌ * جَارِيَاتٌ بَرُوجُهُا أَيْدِيَا
 طَالَعَاتٌ مِنَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا * فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا
 لَوْ تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ * قُلْتَ قَوْمٌ مِنْ قِرَّةٍ يَصْطَلُونَا
 وَغَزَايَ يُدِيرُهَا بَنَاتٌ * نَاعِمَاتٍ يَزِيدُهَا الْعُسْرُ لِينَا
 ذَلِكَ عَيْشٌ لَوْ دَامَ لِي غَيْرَ أُنَى * عِفَّتُهُ مَكْرَهَا وَخِفْتُ الْإِيْمِنَا
 أُدِيرُ الْكَأْسَ حَانَ أَنْ تَسْقِينَا * وَأَنْقُرِ الْعُودَ إِنَّهُ يُلْمِينَا
 وَدَيْعَ الذِّكْرِ لِلطَّلُوبِ إِذَا مَا * دَارَتِ الْكَأْسُ يَسْرَةً وَيَمِينَا
 وَمَنْ قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ يَمْدَحُ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ :

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ * فَاسْقِنِي طَابَ الصَّبُوحُ
 اسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي * حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ
 قَهْوَةً تَذَكُرُ نَوْحًا * حِينَ شَادَ الْفَلَكَ نُوحُ
 نَحْنُ نُخْفِيهَا وَيَأْبَى * طِيبُ عَرَفٍ فِيْفُوحُ
 فَكَأَنَّ الْقَوْمَ نَهَبَى * بَيْنَهُمْ مَسْكٌ ذَيْبُوحُ
 أَنَا فِي دُنْيَا مِنَ الْعَبِ * مَسْ أَغْدُو وَأَرْوَحُ
 هَاشِمِيُّ عَبْدِي * عِنْدَهُ يَقُولُ الْمَدِيحُ
 عَلَّمَ الْجُودَ كِتَابٌ * بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَلُوحُ
 كُلُّ جَوْ يَا أَمِيرِي * مَا خَلَا جُودَكَ رِيحُ
 إِنَّمَا أَنْتَ عَطَايَا * أَبْدَا مَا تَسْتَرِيحُ
 بَجَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا * مِنْكَ يَسْكُو وَيَصِيحُ
 مَا لِهَذَا أَحَدٌ فَوْ * قَ يَدِيهِ أَوْ تَصِيحُ
 جُدْتَ بِالْأَهْوَالِ حَتَّى * قِيلَ مَا هَذَا صَحِيحُ
 فَهُوَ بِالْمَالِ جَوَادٌ * وَهُوَ بِالْعِرْضِ شَخِيحُ
 صَوَّرَ الْجُودَ مَثَلًا * وَلَهُ الْعَبَّاسُ رُوحُ

قال محمد بن عيينة : لقيت أبا نواس بعسكر مُكرَّم فقلت له : أحب أن تنشدني من شعرك شيئاً تَضِقُّ به على غيري ، فأنشدني :

يَكْفِي الكَرِيمَ مِنَ الكَلَا * مَ لَمَن يَحَادِثُهُ أَقْلُهُ
والشَّيْءُ شَيْءٌ لَمْ يَزَلْ * بِأَدَقِّهِ يَأْتِي أَجَلُهُ
إِن لَمْ يُصِيبَكَ مِنَ الكَرِي * مَ الحُرُّ وَابِلُهُ فَطْلُهُ
يُبْدِي مَكَارِمَهُ كَمَا * يُبْدِي فِرْنَدَ السَّيْفِ سَلَّهُ
وَالنَّذْلُ يُوقِعُ نَفْسَهُ .. مَتَعَمِّدًا فِيمَا يُذِلُّهُ
وَالْحَرُّ يَكْرِمُ نَفْسَهُ * بِالصَّفْحِ عَمَّنْ لَا يُجِلُّهُ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صَبَّهْتُ عَلَى الْأَمِينِ ثِيَابَ مَدْحِي * فَكُلُّ النَّاسِ حَسَنٌ وَأَسْتَجَادَا
وَلَوْ لَا فَضْلُهُ مَا جَادَ شِعْرِي - وَلَا أَعْطَيْتِي الْفِطْنُ الْقِيَادَا
وَقَالُوا قَدْ أَجَدْتَ فَقُلْتُ إِنِّي - وَجَدْتُ الْقَوْلَ يُمْكِنُنِي بِفَادَا

ومن نغماته :

ذَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُخْرِيَّةٍ فَأَرَاتَهَا - وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحَ صِيَا حَا
أَوْفَى عَلَى شَرَفِ الْجِدَارِ بِسُدُفَةٍ * غَيْرَدًا يَصْفُقُ بِالْجَنَاحِ جَنَاحَا
فَادِرَ صَبَاحِكَ بِالصُّبُوحِ وَلَا تَكُنْ * كَكُوفَيْنِ غَدَوَا عَلَيْكَ شَحَا حَا
إِن الصُّبُوحَ جَلَاءَ كُلِّ مَخْمَرٍ - بَدَرْتُ يَدَاهُ بِكَأْسِهِ الْإِضْبَا حَا
وَحَدِيثِ لَذَاتِ مَعْلَلٍ صَاحِبٍ - تَقَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةٌ وَمَزَا حَا
نَهْتُهُ وَاللَّيْلُ مَلْتَبَسٌ بِهِ - وَأَزَحْتُ عَنْهُ نُعَاسَهُ فَانْزَا حَا
قَالَ ابْنِي الْمَصْبَاحَ ، قُلْتُ لَهُ أَتَنْدُ - حَسَنِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مَصْبَا حَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً * كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحَ صَبَا حَا

من قهوة جاءتك قبل مزاجها * عطلاً فالبسها المزاج وشاحاً
شك الزال فؤادها فكأنها * أهدت إليك بريحتها تفاعاً
صفراء تفترس النفوس فلا ترى * منها بهن سوى السبات جراحاً
ومنها :

لا تبك ليل ولا تطرب الى هند * وأشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت في حلق شاربها * أجدته حمرتها في العين والحد
فالخمرياقوته والكأس لؤلؤة * من كف لؤلؤة مشوقة القد
تسقيك من طرفها نحرًا ومن يدها * نحرًا فما لك من سكرين من بد
لى نشوتان وللنذمان واحدة * شيء خُصِصْتُ به من دونهم وحدي

كان الأصمعي يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمس حلت الحمالا * وطاب وقت الزمان واعتدلا
وغنت الطير بعد عجمتها * واستوفت الخمر حولها كمالا
واكتست الأرض من زخارفها * وشي ثياب تخالها حلالا
فاشرب على جدة الزمان فقد * أصبح وجه الزمان مقبلا
من قهوة تذهب الهموم فلا * أرهب فيها الملام والعذلا
كرخية تترك الطويل من العيد * ش قصيرا وتبسط الأمل
تلمع لمع السراب في قدح ال * قوم اذا ما حبابها اتصلا
يقول صرف اذا مزجت له * من لم يكن للكثير محتلا
فسق هذا بقدر طاقته * وأحمل على ذا بقدر ما احتملا
عجنا بشيين من طبائعها * حسن وطيب ترى به المثلا

كان أبو نواس لا يُستَنشد شيئاً من شعره إلا أنشد هذه القصيدة :

وَحَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُنْفَةٍ * تَهْمُ يَدَا مَنْ رَامَهَا بَزَلِيلِ^(٢)
 إِذَا عَارَضَتْهَا الشَّمْسُ فَأَءَ ظِلَالُهَا * وَإِنْ وَاجَهَتْهَا أَذْنَتْ بِدُخُوبِ
 حَطَطْنَا بِهَا الْأَثْقَالَ فَلَّ هَيْبَةٍ^(٣) * عَبُورِيَّةٌ تُدَكِّي بِغَيْرِ قَتِيلِ
 تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاءَتْ بِمَذْقَةٍ * مِنَ الظِّلِّ فِي رَثِّ الْأَبَاءِ ضَبِيلِ^(٤)
 كَأَنَّا لَدَيْهَا بَيْنَ عِطْفَى نَعَامَةٍ * جَفَا زَوْرُهَا عَنْ مَبْرِكٍ وَمَقِيلِ
 حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا * بِصَهْبَاءَ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ تُمُوبِ
 إِذَا مَا أَنتَ دُونَ اللَّهِاءِ مِنَ الْقَى * دَمَا هُمُّهُ مِنْ صَدْرِهِ بَرَحِيلِ
 فَلَمَّا تَوَفَّى الشَّمْسُ جَنَحَ مِنَ الدُّجَى * تَصَابَيْتُ وَأَسْتَجَمَلْتُ غَيْرَ جَمِيلِ
 وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كَمَا بَدَا * وَذَلَلْتُ صَعْبًا كَانَ غَيْرَ ذَلِيلِ
 فَنَنِي وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَايَ خَدَّهِ * أَلَا رَبِّمَا طَالَبْتُ غَيْرَ مُنِيلِ
 وَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِحَقْوَى مُسَاعِدِ * وَإِنْ كَانَ أَدْنَى صَاحِبِ وَخَلِيلِ
 وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السَّكْرَ وَالسَّكْرَ مُحْسِنٌ * أَلَا رَبُّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ ثَقِيلِ
 كَفَى حَزَنًا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرٌ * عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفَ عِنْدَ بَخِيلِ
 سَابَغِي الْغَنَى إِمَّا جَلِيسَ خَلِيفَةٍ * يَقُومُ سِوَاءَ أَوْ نَخِيفَ سَبِيلِ
 بِكُلِّ فِتْنَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَائُهُ * إِذَا نَوَّهَ الزَّحْفَانِ بِاسْمِ قَتِيلِ
 لَنَحْمَسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ * أُنْحَى بِطُنْجِيَّةٍ لِلطَّيِّبَاتِ أَكُوبِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى النَّدَى * وَلَيْسَ جَوَادٌ مَقْتَرٌ كَبَخِيلِ

(١) الناطور : حافظ الغل والكرم والزرع وفي البارع : الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس هربى محض . (٢) الزليل مصدر كالزال . (٣) أى منهزمى هاجرة ، وعبرية نسبها الى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت فى الجوع عند زوالها . وفاءت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة المظلة التى ثبتت على الأبواء الضعيف من المصب الرث فلم تقو الشمس عليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوى فبصير نالا ولكنه شمس وطل ، فشبهت بالمدحون من الابن ، أى المزوج .

فإن استريد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشباب مطية الجهل .. ومحسن الضحكات والمزحل
 كان الجمال اذا أردتُ به .. ومشيتُ أخطر صيت النعل
 كان البليغ اذا نطقتُ به .. وأصاحت الآذانُ للملي
 كان المشفع في مآربه .. عند الفتاة ومدرك التبيل
 والآمرى حتى اذا عزمت .. نفسي أعان يديّ بالفعل
 فالآن صرتُ الى مقاربة .. وحططتُ عن ظهر الصبار خلى
 والراح أهواها وإن رزأت .. بُلغ المعاش وقللت فضلي
 صفراء مجدها مرازبها .. جلّت عن النظراء والمثل
 دُخرت لآدم قبل خلقته .. فتقدمته بخطوة القبل
 فأناك شيء لا تلاميسه .. إلا بحسن غير رزة العقل
 فترود منها العين في بشر .. حرّ الصفيحة ناصع سهل
 فاذا علاها الماء ألبسها .. حباً شبيه جلاجل النحل
 حتى اذا سكنت جوائمها .. خطت بمثل أكارع الثمل
 خطين من شتى ومجتمع .. غفل من الإعجام والشكل
 فاعذر أخاك فإنه رجل .. مرنت مسامعه على العذل

ومن طيب شعره، والشر الأول من القصيدة لفظ ابن الدمينية :

أعاذل ما على وجهي قُوم .. ولا عريض لأول من يسوم
 يفضني على الفتيان أتى .. أبيت فلا ألام ولا ألوم
 أعاذل إن يكن بُرداي رثا .. فلا يعدمك بينهما كريم
 شقيقت من الصبا واشتق مني .. كما اشتقت من الكرم الكروم
 فاست أسوم للدات نفسي .. مياومة كما دفع الغريم

ومتصلٍ بأسباب المعالي * له في كل مكرمةٍ قديمٌ
 رفعتُ له النداءَ بقم نخدُها * وقد أخذتُ مطالعها العجومُ
 بتفديةٍ تزال النفسُ فيها * وتمتحن الخؤولةُ والعمومُ
 فقام وقتٌ من أخوين هاجا * على طربٍ وليلها بهيمُ
 أجز الزق وهو يجر رجلا * يحور به النعاسُ ويستقيمُ
 سيل الندمان ما أولته منها * وسلها ما احتوى منها الكريمُ
 كلال الشخصين متصفٌ ولكن * قضت وطراً وذا منها سقيمُ

وقال :

إني صرفتُ الهوى الى قيرٍ .. لم تبذله العيونُ بالنظرِ
 اذا تأملتَه تعاطمك آل .. بإقرار أنه من البشرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ النفسِ من حكمٍ * نمتَ عن ليلٍ ولم أنمِ
 فأسقني البكرَ التي آخمرتُ * بخمارِ الشيبِ في الرِّحمِ
 نمتَ أنصاتِ الشبابِ لها * بعد ما جازتُ مدى الهرمِ
 فهي لليومِ التي بزلتُ * وهي زُبُ الدهرِ في القِدمِ
 عثقتُ حتى أو اتصلتُ * باسانِ ناطقي وفيمِ
 لأحببتُ في القومِ مانلةً * ثم قصتُ قصّةَ الأُممِ
 فرعتها بالمزاح يدُ * خلقتُ لالسيفِ والعلمِ
 في ندأمي سادةٍ زهيرٍ * أخذوا اللذاتِ من أُممِ
 فتمشّت في مفاصلهم * كتمشّي البرء في السقمِ
 فعلتُ في البيتِ اذ مُرِجتُ * مثلَ فعلِ انصبح في الظلمِ
 فاهتدي سارى الظلام بها * كاهتداء السّفرِ بالعلمِ

ومن طَرْدِيَّاتِ أَبِي نَوَاسٍ فِي صِفَةِ الْكَلْبِ :

أُنَعْتُ كَلْبًا أَهْلُهُ مِنْ كَدِّهِ * قَدْ سَعِدْتُ جُدُودَهُمْ بِجَدِّهِ
فَكُلَّ خَيْرٍ عِنْدَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ * وَكُلَّ رِفْدٍ نَالَهُمْ مِنْ رِفْدِهِ
يَظَلُّ مَوْلَاهُ لَهُ كَعَبْدِهِ * يَبِيتُ أَدْنَى صَاحِبٍ مِنْ مَهْدِهِ
وَإِنْ عَمِيَ جَلَّاهُ بِبُرْدِهِ * ذَا غُرَّةٍ مَحْجَّلًا بِزَنْدِهِ
تَلَذُّ مِنْهُ الْعَيْنُ حَسَنَ قَدِّهِ * يَاحْسُنَ شِدْقِيهِ وَطَوْلَ قَدِّهِ
تَلْقَى الطَّبَاءُ عَتَمًا مِنْ طَرْدِهِ * يَشْرَبُ كَأَسَا شُدَّهَا مِنْ شَدِّهِ
* يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ نَسِجَ وَحْدِهِ *

أَبُو نَوَاسٍ وَجَنَانُ

قال أبو الفرج : كانت جنانُ هذه جاريةَ آلِ عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، وكانت حلوةً جميلةً المنظر أديبةً ، ويقال : إن أبا نواسٍ لم يَصْدُقْ في حبِّ امرأةٍ غيرها ، وقيل له يوما إن جنانَ قد عزمْتَ على الحج ، فكان هذا سببَ حجه وقال : أما والله لا يفوتني المسيرُ معها والحجُّ عَمِي هذا إن أقامت على عزيمتها ، وقال وقد حج وعاد :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَفْنَيْتُ عَمْرِي * بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَيْهَا * يَقْرَبُنِي وَأَعِيتَنِي الْأُمُورُ
حَجَّجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَجَّجْتُ جَنَانُ * فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

قال مَنْ شَهِدَهُ حِينَ حَجَّ مَعَ جَنَانٍ وَقَدْ أَحْرَمَ : لَمَّا جَنَّهُ اللَّيْلُ جَعَلَ يَلْبِي بِشَعْرٍ وَيَحْدُو بِهِ وَيَطْرَبُ ، فَغَنَّى بِهِ كُلَّ مَنْ سَمِعَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

إِنَّمَا مَا أَعْدَلْتُ * مَايِكَ كُلُّ مَنْ مَلَكَ
لَيْسَ قَدْ لَبِيتُ لَكَ * لَيْسَ إِنْ الْحَمْدَ لَكَ
وَالْمَلِكُ لَا شَرَّكَ لَكَ * وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَلَّكَ

والساجحات في الفلك * على بجاري المنسلك
 ما خاب عبد أملك * أنت له حيث سلك
 لولاك يا رب هلك * كل نبي وملك
 وكل من أهل لك * سبح أو لبى فلك
 يا مخطئاً ما أغفلك * عجل وبادر أجلك
 واختم بخير عملك * ليك ان الملك لك
 والحمد والنعمة لك * والعز لا شريك لك

وفيها يقول :

جفن عيني قد كاديس * قط من طوبى ما اختلج
 وفؤادى من حرج * لك والهجر قد نضج
 خبرني فدتك نف * سى وأهلى متى الفرج
 كان ميعادنا خرو * ج زياد فقد خرج
 أنت من قتل عائد * بك فى أضيق الحرج

قال الأصمغاني : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصوفي : دخلنا على أبي نواس نعوّده
 فى علة التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمي : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام
 الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هنأت ، فنب الى الله عز وجل ،
 فبكى ساعة ثم قال : ساندوني ساندوني ، ثم قال : أأخوف بالله عز وجل وقد حدثني حماد
 ابن مسلم عن زيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لكل نبي شفاعة وإنى اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة » أقراني
 لا أكون منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دَبَّ فِي السَّقَامِ عُلُوًّا وَسُفْلًا . وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فُعْضُوًّا
 لَيْسَ تَمِضِي مِنْ لَحْظَةٍ بِي إِلَّا . نَقَصْنِي بِمَرِّهَا فِي جُزْأٍ
 ذَهَبْتُ جِدَّتِي بِحَاجَةِ نَفْسِي . وَتَطَلَبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضْوًا
 لَهَفَ نَفْسِي عَلَى لِيَالٍ وَأَيَّامٍ . مِمْ تَجَاوَزْتُهُنَّ لِعِبَاءٍ وَلَهْوًا
 قَدْ أَصَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالِدٍ . هُمْ صَفَحًا عَنَّا وَغَفَرَا وَغَفَوَا

ثم قال :

شِعْرٌ حَى أَتَاكَ مِنْ لَفْظٍ مَيِّتٍ . صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفًا
 قَدْ بَرَتْ جِسْمَهُ الْحَوَادِثُ حَتَّى . كَادَ عَنْ عَيْنِ الْخَلَائِقِ يَنْخَفِي
 لَوْ تَأَمَّلْتَنِي لَتُبْصِرَ وَجْهِي . لَمْ تَبْنُ مِنْ كِتَابِ وَجْهِي حَرْفًا
 وَلَكَّرْتَ طَرَفَ عَيْنِكَ فِيمَنْ . قَدْ بَرَاهَ السَّقَامُ حَتَّى تَعْفَى

وكان عمر أبي نواس تسعا وخمسين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابي^(١)

قال أحمد بن سهل: تذاكرنا شعر العتّابي فقال بعضهم: فيه تكلف، ونصره بعضنا،

فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيها إن في شعره تكلفا وهو القائل:

رُسلُ الضمير اليك تَرَى * بالسوق ظالمةً وحسرى
مرجّيات^(٢) ما يَدِي * نَ على الوجامن بعد مَسَرَى
ما جَفَّ للعَيْنين بع * لَدك يا قِريرَ العينِ مَجَرَى
فانلَمَ سَلِمَتَ مُرّاً * من صَبوتى أبدا مُعَرَى

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتّابي التلّبي من ولد عات بن أسيد ثم من بني علب بن وائل، شاعر مترسل طبع مطبوع متصرف في فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعا إلى الرامكة فوصفه للرشيدي ووصلوه به، فلع عنه كل ملح وعظمت فوائده منه.

وكان حسن الاعداد في شعره ورسائله وله مصنفات في المطلق والأدب واللغة وكان ميم في رأس عين بعيدا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب منه إلىه لقاء، وسأله قيس طليط وعروة وحف، وعلى كتفه ملحمة حامية يعير سراويل، فلما رفع الخبر تقدموه إلى الرشيد أمر بأن تهرش له حجرية وتقام له وطيفة ففعلوا، وكانت المائدة إذا قدمت إليه أحدها رقيقة ومجا وحلقت الملح نالته اب فأكله، فإذا كان وقت اليوم دم على الأرض، وانلخدم يتفقدوه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله فسلم عليه وانسب له ورحب به وقال له «ارمعه» فقال «لما أتك للخلوس» قال «واحاك» قال «دانة أطلع عليها إلى رأس عين» فقال: يا سلام، أعطه العرس الملائقي فقال: لا حاجة لي في ذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دانة أتسلع عليها فقال لعلامة «امض معه فانتع له ما ربد» وصي معه فعذل به العتّابي إلى سوق الخبر فقال العلامة: إنما أمرني أن اتاع لك دانة فقال له: إنه أرسلني معي ولم يرسلني معك فان عملت ما تريد والّا انصرف. فصي معه فاشترى حمارا بمائة وحسين درهمين وقال ادفع له ثمنه فدفعه انه فركب الخمار عريا بمرشحة عليه وبردة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «فصحي! أمثلني بمثل ملك على هذا» فصحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفي سنة ٢٢٠ هـ وتحد أحساره في الأغانى (ح ١٢ ص ٢) وفوار الوفيات (ح ٢ ص ١٣٧).

(٢) أي متبلعات بالقليل حتى يصل إلى الكثرة.

إِنَّ الصَّبَابَةَ لَمْ تَدَعْ * مَنَى سَوَى عَظِيمٍ مُبَرَّى
وَمَدَامِ عَبْرَى عَلَى * كَبِدٍ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرَّى

أُوَيَقَالُ إِنَّهُ مُتَكَلِّفٌ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ * إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ النَّاضِرُ
لَمَثَلْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ * لَتَعْلَمَ أَتَى أَمْرُهُ شَاكِرُ

وَجَدَ الرِّشِيدُ عَلَى الْعَتَابِيِّ فَدَخَلَ سِرًّا مَعَ الْمُتَظَلِّمِينَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، فَثَلَّ بَيْنَ يَدَيِ الرِّشِيدِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ آذَنْتَنِي النَّاسَ لَكَ وَلِنَفْسِي فِيكَ ، وَرَدَّنِي أَبْتَلَاؤَهُمْ إِلَى شُكْرِكَ ، وَمَا مَعَ تَذَكُّرِكَ قَنَاعَةَ بَغِيرِكَ ، وَلِنِعْمَ الصَّابِرُ لِنَفْسِي كُنْتُ لَوْ أَعَانَنِي عَلَيْكَ الصَّبْرُ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

أَخْضَيْتَنِي الْمَقَامَ الْعَمْرَانَ كَانَ غَرَّنِي * سَنَا خُلْبٍ أَوْزَلَّتِ الْقَدَمَانِ
أَتَرَكْنِي جَذَبَ الْمَعِيشَةِ مُقْتَرًا * وَكَفَّاكَ مِنْ مَاءِ النَّدَى تِكْفَانِ
وَتَجْعَلُنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَ مَا * بَلَّغْتَ يَمِينِي بِالنَّدَى وَلِسَانِي
فَأَعْجَبَ الرِّشِيدَ قَوْلُهُ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ الْخِلْعَ ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ .

كَلَّمَ الْعَتَابِيُّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فِي حَاجَةِ بَكَلَاهَاتٍ قَلِيلَةٍ ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : لَقَدْ نَزُرُ كَلَامُكَ الْيَوْمَ وَقَلَّ ، فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ لَا يَقُلُّ وَقَدْ تَكُنْفَنِي ذَلَّ الْمَسْأَلَةِ وَحَيْرَةُ الطَّلَبِ وَخَوْفُ الرَّدِّ ؟ فَقَالَ :
وَإِلَّاهُ لَئِنْ قَلَّ كَلَامُكَ لَقَدْ كَثُرَتْ فَوَائِدُهُ ، وَقَضَى حَاجَتَهُ .

قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ لَوْلَاهُ : إِنْ قَدَرْتُمْ أَنْ تَكْتُبُوا أَنْفَاسَ كُلِّ شَيْءٍ بَيْنَ عَمْرٍو الْعَتَابِيِّ فَضْلًا عَنْ رِسَائِلِهِ وَشَعْرِهِ ، فَإِنْ تَرَوْا أَبَدًا مِثْلَهُ .

وَقَفَّ الْعَتَابِيُّ بِيَابِ الْمُمْوَنِ يَلْتَمِسُ الْوَصُولَ إِلَيْهِ ، فَصَادَفَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمٍ جَالِسًا يَنْتَظِرُ الْإِذْنَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَعَزَّكَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ أَمْرِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَخَلْتَ فَافْعَلْ ، قَالَ لَهُ : لَسْتُ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِحَاجِبِهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَاجِبًا فَقَدْ يَفْعَلْ مِثْلُكَ مَا سَأَلْتُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةً ، وَجَعَلَ زَكَاةَ الْمَالِ رِفْدَ الْمُسْتَغْنَى ، وَزَكَاةَ الْإِلْهَاءِ إِغَاثَةَ الْمَاهُوفِ ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَقْبِلٌ عَلَيْكَ بِالزِّيَادَةِ إِنْ شُكِرْتَ ، وَأَوَّلُ التَّغْيِيرِ إِنْ كُفِّرْتَ .

وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأنني أدعوك الى ازدياد نعمتك وأنت تأبى، فقال له يحيى: أفعل وكرامة، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن آستأذن المأمون للعتابي، فأذن له .

وقيل له : لو تزوجت، فقال : إني وجدت مكابدة العقّة أيسر على من الاحتيال لمصلحة العيال .

قال دُعيل : ما حسدتُ أحدا قطّ على شعركما حسدتُ العتّابيّ على قوله :

هَيْبَةُ الْإِخْوَانِ فَاطِعَةٌ * لِأَنّى الْحَاجَاتِ عَنْ طَلَبَةٍ

فإذا ما هِبتَ ذا أَمَلٍ * مات ما أَمَلْتَ من سببِهِ

كان العتّابي جالسا ذات يوم ينظر في كتاب، فتر به بعض جيرانه، فقال : أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتّابيّ قوله :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَقَفُوا * ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْأَدَابِ وَالْحِكَمِ

قالوا وليس بهم إلا نَفَاسُهُ^(١) * أَنَافِعُ ذَا مِنْ الْإِقْتَارِ وَالْعُدْمِ

وليس يدرون ما الحِظُّ الَّذِي حُرُمُوا - لحاهم الله - مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ فَهَمٍ

ومن قوله أيضا :

لئن كانت الدنيا أنا لثُكُّ ثَرَوَةٍ * فأصبحتَ ذا يُسْرٍ وقد كنتَ ذا عُسْرٍ

لقد كشف الإثراءُ منك حَازِيًا * من اللُّؤْمِ كانت تحت سِتْرٍ من الفقر

وقال أيضا :

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مَغْتَرِبًا * حُشِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمَلِي * وَثَنَا إِلَيْكَ عِنَانُهُ شُكْرِي

وجعلتُ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ * وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مَنْتَهَى أَمَلِي

لما سعى منصورُ التَّمَرِيُّ بالعتّابي الى الرشيد أغناط عليه فطلبه، فسّتره جعفر بن يحيى

عنه مدّة وجعل يستعطفه عليه حتى آستل ما في نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زِلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَرِّحًا * قَدْ ضَاقَ عَنِّي فَسِيحُ الْأَرْضِ مِنْ حِيلِي
وَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِطُفْئِكَ لِي * حَتَّى آخِثَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي
عَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُصْعَبٍ كَلْثُومُ بْنُ عَمْرِو الْعَتَابِيِّ فِي عِلَّةٍ
أَعْتَلَّهَا ، فَقَالَ النَّاسُ : هَذِهِ خَطَرَةٌ خَطَرَتْ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْعَتَابِيُّ ، فَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
طَاهِرٍ :

قَالُوا الزَّيَارَةُ خَطَرٌ خَطَرْتُ * وَبِحَارٍ يَرْكُ لَيْسَ بِالْخَطَرِ
أَبْطَلُ مَقَالَتِهِمْ بَنَانِيَّةً * تَسْتَنْفِدُ الْمَعْرُوفَ مِنْ شَكْرِي
فَلَمَّا بَلَغَتْ أَبْيَانُهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ ضُحْكَ مِنْ قَوْلِهِ وَرَكِبَ هُوَ وَإِسْحَاقُ فَعَادَاهُ مَرَّةً
ثَانِيَةً .

كَانَتْ لَهُ أَمْرَاءُ مِنْ بَاهِلَةِ ، فَلَمَّا مَضَى إِلَى رَأْسِ عَيْنٍ قَالَتْ لَهُ : هَذَا مِنْصُورُ الثَّرَى :
قَدْ أَخَذَ الْأَمْوَالَ فُخِّلَ نِسَاءً وَبَنَى دَارَهُ وَأَشْتَرَى ضِيَاعًا وَأَنْتَ هَهُنَا كَمَا تَرَى ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :
تَلُومُ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بِأَهْلِيَّةٍ * ذَوَى الْفَقْرِ عَنْهَا كُلَّ طَرَفٍ وَتَالِدَ
رَأَتْ حَوْلَهَا النَّسْوَانِ يَرْفُلْنَ فِي الثَّرَى * مَقْلَدَةً أَعْنَاقُهَا بِالْقَلَائِدِ
أَسْرَكَ أَنَّى تَلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرُ * مِنْ الْعَيْشِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ
وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي * مَخْصَمًا بِالْمُرْهَقَاتِ الْبَوَارِدِ
رَأَيْتُ رَفِيعَاتِ الْأُمُورِ مَشْؤُبَةً * بِمَسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ
دَعْنِي تَجْنَحْنِي مَيْتَقِي مَطْمِئِنَّةً * وَلَمْ اتَّجَسَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ

لَمَّا قَدِمَ الْعَتَابِيُّ مَدِينَةَ السَّلَامِ عَلَى الْمَأْمُونِ أَدِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ
الْمَوْصِلِيُّ ، وَكَانَ الْعَتَابِيُّ شَيْخًا جَلِيلًا نَبِيلًا ، فَسَلَّمَ فَرَدَّ عَلَيْهِ وَأَدَانَاهُ وَقَرَّبَهُ حَتَّى قُرْبٍ مِنْهُ ، فَقَبَّلَ
يَدَهُ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ بِغُلَاسٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَجِيبُهُ بِإِسَانٍ ذَلِكَ طُلُقٌ ،
فَاسْتَظْوَفَ الْمَأْمُونُ ذَلِكَ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِالْمَدَاعِبَةِ وَالْمَزَاحِ ، فَظَنَّ الشَّيْخُ أَنَّهُ أَسْتَحْفَفَ بِهِ ، فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الْإِنْيَاسُ قَبْلَ الْإِبْسَاسِ ، فَاشْتَبَهَ عَلَى الْمَأْمُونِ قَوْلُهُ . فَظَنَرَ إِلَى إِسْحَاقَ . فَسْتَفْهَمَا ،
(١١)

فأومأ اليه وغمره على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، ألف دينار، فأُتي بذلك، فوضع بين يدي العتّابي وأخذوا في الحديث، وغمز المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، فجعل العتّابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إسحاق، فبقى العتّابي متعجبا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أأأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سَلْ، فقال لإسحاق يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمي كُلُّ بَصَلٍ، فتبسّم العتّابي وقال: أما أنتَ فمعروف وأما الاسمُ فمُنكَرٌ، فقال إسحاق: ما أقلُّ إنصافك! أنتَ أن يكونَ اسمي كل بصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابي: لله دَرَكُ! فما أَجَبَكَ، أأأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلّني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفّر عليك ونأمر له بمثله: فقال له إسحاق: أما إذ أقررتَ بهذه فتوهمني تجدني، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي الذي يتناهى إلينا خبره، قال: أنا حيثُ ظننتَ، وأقبل عليه بالحيّة والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما —: أما إذ قد آنفقتما على المودة فانصرفا متتادمين، فانصرف العتّابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الورّاق: رأيت العتّابي يأكل خبزا على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك! أما تستحي؟ فقال لي: أرايتَ لو كنا في دار بها بقر كنت تستحي وتحنشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبه أنفه لم يدخل النار، فما بقي أحد إلا أخرج لسانه يومئذ به نحو أرنبه أنفه ويقدره حتى يبلغها أم لا. فلما تفرّقوا قال لي العتّابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتّابي بين يدي المأمون وقد أسّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فإزال المأمون يُنفضه رويدا رويدا حتى أقله فنَهَضَ.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابي الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطل الله بقاءك وجعله يمتدّ بك الى رضوانه والجنة — فإنك كنت
عندنا روضة من رياض الكرم، تبهج النفوس بها، وتستريح القلوب اليها، وكنا نغفينا
من النجعة^(١) آسئاما لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وأذخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة^(٢)
كانت عندي قطعة من سني يوسف آشتد علينا كلبها، وغابت قسطها، وكذبتنا غيومها،
وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك . وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة
عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد^(٣)، وأنت تغطي عين الحاسد . والله يعلم أني ما أعدك
إلا في حومة^(٤) الأهل . وأعلم أن الكريم اذا أستجيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير،
لم يعرف جوده ولم تظهر همته . وأنا أقول في ذلك :

إذا تكرمت عن بذل القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود

بث النوال ولا تمنعك قلته * فكل ما سدّ فقرا فهو محمود

قيل فشاطره جميع ماله .

(١) النجعة : طلب الكلا في موضعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب

الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة ها : الجاعة والطائفة .

(١)

٣ - دعب

شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يُحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير .

وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل الى على صلوات الله عليه . وقصيدته : «مدارس آيات خلت من تلاوة» من أحسن الشعر وفانح المدايح المقلّدة في أهل البيت عليهم السلام ، وقصد بها أبا على بن موسى الرضا بخراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه ، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم ، فلم يبيعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ؛ فقال لهم : إنما تُراد لله عز وجل وهي محترمة عليكم ، فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفنه ، فأعطوه فردّهم ، فكان من أكفانه .

قال ابراهيم بن المهدي للأُمون قولاً في دعبل يحترسه عليه ؛ فضحك المأمون وقال : إنما تحترضني عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تَقْنَطُوا * وَأَرْضُوا بما كان ولا تَسْخَطُوا
فسوف تُعْطَوْنَ حَنِينَةً * يَلْتَدُّهَا الْأَمْرُ^(٢)دُ وَالْأَشْمَطُ
وَالْمَعْبِدِيَّاتِ^(٣) لِقُودَاكُمْ * لا تدخل الكيس ولا تُربط
وهكذا يرزق قواده . خليفة مُصحفه البربط

(١) هو دعبل بن علي بن رزين من خراة ، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد . وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن ، ولا أفلت منه كبير أو صغير ، فكان الناس يخافونه ويتقونونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاء شديداً واحتمل ذلك منه . توفي سنة ٢٤٦ هـ . وتجد أخباره في الاغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١) .

(٢) يريد أصواتاً منسوبة الى حنين الحيرى المغنى .

(٣) يريد أصواتاً منسوبة الى معد المغنى .

قَدْ حَتَمَ الصَّكَّ بِأَرْزَاقِكُمْ * وَصَحَّحَ الْعِزَّمَ فَلَا تَسْخَطُوا
بَيْعَةَ إِبْرَاهِيمَ مَشْتُومَةً * يُقْتَلُ فِيهَا الْخَلْقُ أَوْ يَقْطَعُوا

فقال له إبراهيم : فقد والله هجأك أنت يا أمير المؤمنين ؛ فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه في هجائه لإيأى لقوله هذا ، وضحك . ثم دخل أبو عباد ، فلما رآه المأمون من بُعد قال لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عباد في الهجاء ويُحجم عن أحد ! فقال له : وكأن أبا عباد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنه حديد جاهل لا يؤمن ، وأنا أحلم وأصفح ، والله ما رأيت أبا عباد مقيلاً إلا أضحكني قول دعبل فيه :

أولى الأمور بضِيعَةٍ وفساد * أمرٌ يدبره أبو عباد
نحرِّقُ على جلسائه فكأنهم * حضروا للملحمة ويوم جِلاذ
يسطو على كتابه يدواته * فضمخ بدم ونضح مِداد
وكانه من دِيرِ هِرَ قِلْ مُقْلَتٌ * حرد يحز سلاسل الأقياد
فاشدُّ أمير المؤمنين وثاقه * فأضح منه بقيّة الحِداد

وكان «بقية» هذا مجنوناً في البيارستان .

قال أبو خالد الخزازى لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد وترت الناس جميعاً ، فأنت دهرلك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كفت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! انى تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالي الشاعر وإن كان مجيداً اذا لم يُخف شره ، ولئن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجوود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه أنتفع بقولك ، فاذا رآك أوجعت عرض غيره وفضحته آتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع آخذ بضِيع الشاعر من المديح المضرع ، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر ويصحب الشطار، فخرج هو ورجل من أشتج فيما بين العشاء والعَمَّة، فجلسا على طريق رجل من الصَّيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله، فلما طلع مقيلا اليهما وثبا اليه بفَرَحاه وأخذا ما في كُبه، فاذا هي ثلاث رُمَّانات في خِرقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانه، وأسترد دعبل وصاحبه وجَدَ أولياء الرجل في طلبهما وجَدَ السلطانُ في ذلك، فطال على دعبل الاستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كنا يوما بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل، فلما رأيناه قلنا: هذا صَيْدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نضع به؟ قلنا: نذبحه، فذبحناه وشوينا. وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا بفخذناه وشربنا يومنا، فلما كان من الغد خرج دعبل فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد—وكان ذلك المسجد يجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتناهبهم الناس—فجلس دعبل على باب المسجد وقال:

أَسْرَ الْمُؤَذِّنَ صَالِحٌ وَضِيؤُهُ * أَسْرَ الْكَيِّ هَقًّا خِلَالِ الْمَاقِطِ

بَعَثُوا عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ * مِنْ بَيْنِ نَافِثَةٍ وَآخِرِ سَامِطِ

يَتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْتَقُوا * خَاقَانُ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ^(١)

نَهَشُوهُ فَأَنْتَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ * وَتَهَشَّمَتْ أَفْقَاؤُهُمْ بِالْحَائِطِ

فكتبها الناس عنه وَمَضُوا؛ فقال لى أبى، وقد رجع الى البيت: ويحكم! ضاقت عليكم المأكَل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته وبعثت به الى دعبل وإلا وقعنا في لسانه؛ ففعلت ذلك. قال أحمد بن أبى كامل: كان دعبل ينشدنى كثيرا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما أستحقه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

(١) قبيلة من همدان، وأصله جل زلوانه فنسوا اليه.

كان دعبيل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرجته وفهمه وأدبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوهُ :
يا بُؤْسَ للفضل لو لم يأت ما عَابَهُ * يستفرغ السَّمُّ من صَمَاءِ قِرْصَابَةٍ
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهلِ المجد عِيَابَهُ
إن عابني لم يعبَ إلا مؤدِّبَهُ * ونفسه عاب لما عاب أذَابَهُ
فكان كالكلب ضَرَاهُ مَكْلَبُهُ * لغيره فعدا فاصطاد كَلَابَهُ
كان دعبيل يقول : ما كانت لأحد قط عندى مِنَّةٌ إلا تَمَنَّيْتُ موته .

كتب دعبيل الى أبي نَهْشَل بن حُميد الطوسي قوله :
إنما العيشُ في مُنادمة الإخِوا * ن لا في الجلوس عند الكعاب
وبصرف كأنها أُنْسُ البر * قِ إذا استعرضت رقيق السحاب
إن تكونوا تركتمُ لَذَّةَ العِد * ش حذارَ العقاب يوم العقاب
فدعوني وما ألدَّ وأهوى * وأدفعوا بى في صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبلا يقول فى كلام جرى «لَيْسَكَ» فانكرته عليه ؛ فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لى رجل إلا رأيته دون وصفه لَيْسَكَ» يريد غيرك .

قال عمرو بن مسعدة : حضرتُ أبا دُلْف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خُرَاعَةَ يا قاسم ؟ فقال : وأى أخى خُرَاعَةَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن تعرف فيهم شاعرا ؟ فقال : أما من أنفُسهم فأبو الشَّيْص ودعبيل وابن أبي الشَّيْص ودادود بن أبى رزِين ، وأما من موالِيهم فظاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبيل ! هات أى شىء عندك فيه ؟ فقال : وأى شىء أقول فى رجل لم يسلَم عليه أهل بيته حتى هُجَاهم ، فقرَن إحسانهم بالإساءة وبذلهم بالمنع وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؛ قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول فى المطَّاب بن عبد الله

أَبْنُ مَالِكٍ ، وَهُوَ أَصْدَقُ النَّاسِ لَهُ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ ، وَقَدْ وَفَدَ إِلَيْهِ إِلَى مِصْرَ فَأَعْطَاهُ الْجَزِيلَ وَوَلَّاهُ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ أَنْ قَالَ فِيهِ :

إِضْرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلَحَاتِ مَتِيدًا * بِلُؤْمٍ مَطْلِبٍ فِينَا وَكُنْ حَكَمًا
تُخْرِجُ نُزَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ * فَلَا تَحْسَ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : قَاتَلَهُ اللَّهُ ! مَا أَغْوَصَهُ وَالْطُفْهَ وَأَدَاهَا ، وَجَعَلَ يَضْحَكُ . ثُمَّ دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ
أَبْنُ طَاهِرٍ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ تَحْفَظُ يَا عَبْدُ اللَّهِ لِدَعْبِلٍ ؟ فَقَالَ : أَحْفَظُ أَيْبَاتًا لَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَالَ : هَاتَهَا وَيْحَكَ ! فَأَنشَدَهُ :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِ الصَّبَابَاتِ * أَيَّامِ أَرْفُلٍ فِي أَثْوَابِ لَذَاتِي
أَيَّامِ غَضْنِي رَطِيبٌ مِنْ لَيَاتِهِ * أَصْبُو إِلَى غَيْرِ جَارَاتٍ وَتُكَّاتِ
دَع عَنْكَ ذِكْرَ زَمَانٍ فَاتٍ مَطْلَبُهُ * وَأَقْذِفْ بِرَحْلِكَ عَنْ مَتْنِ الْجَهَّالَاتِ
وَأَقْصِدْ بِكُلِّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَائِلُهُ * نَحْوِ الْهُدَاةِ بَنَى بَيْتَ الْكَرَامَاتِ

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : إِنَّهُ قَدْ وَجَدَ وَاللَّهِ مَقَالًا فَقَالَ ، وَنَالَ بِبَعِيدِ ذِكْرِهِمْ مَا لَا يَنَالُهُ فِي وَصْفِ غَيْرِهِمْ .
وَمِنْ قَوْلِ دَعْبِلٍ وَفِيهِ غَنَاءٌ :

أَيُّ الشَّبَابِ وَأَيَّةُ سَلَاكَ * لَا أَيْنَ يُطْلَبُ ضَلٌّ مِنْ هَلَاكَ
لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمَ مِنْ رَجُلٍ * ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
يَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ يَوْمُكَ * يَا صَاحِبِي إِذَا دَجَى سِفْكَكَ
لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدًا * قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي أَشْتَرَاكَ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَدْبَرِ : لَقِيتُ دَعْبِلَ بْنَ عَلِيٍّ فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ أَجَسَرُ النَّاسِ عِنْدِي
وَأَقْدَمُهُمْ حَيْثُ تَقُولُ :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ * قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَّفْتُكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طَوْلِ نَحْوِهِ * وَأَسْتَنْقِذُوكَ مِنَ الْحُضِيِّضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيذ * والنائبُ من الأنامِ بمَرصِد
فقال : يا أبا اسحاق ، أنا أحمل خَشَبتي منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصلبني عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت
الشراة والصماليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه وينسار بونه ويبتون به ، وكان اذا لقيهم وضع
طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : ننف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنيان
وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم ، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه
ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه في بعد أسفاره :

حَلَلْتُ مَحَلًّا يَقْصُرُ الْبَرْقُ دُونَهُ ، ويعجز عنه الطيفُ أن يَتَجَسَّمَا

قال البحتري : دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم ؛ وكان يتعصب له .

كان المعتصم يُغض دعبلا لطول لسانه . وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب
الى الجبل ، وقال يهجوهُ :

بكى لِشَتَاتِ الدين مَكْتِيبُ صَبٍّ * وفاض بفرطِ الدمع من عينه غَرَبُ
وقام إمام لم يكن ذا هِدَايَةٍ * فليس له دين وليس له أُب
وما كانت الأنبياءُ تأتي بمثله * يُمَلِّكُ يوما أو تدين له العُربُ
ولكن كما قال الذين تتابعوا * من السلفِ الماضين اذ عَظُمَ الخطبُ
ملوك بني العباس في الكُتُبِ سبعةٌ * ولم تأتِنا عن بامن لهم كُتُبُ
كذلك أهلُ الكهف في الكهفِ سبعةٌ * خِيارٌ اذا عُدُّوا ونامَ منهم كَلْبُ
وإني لأعطي كلَّهم عنك رِفْعَةً * لأنك ذو ذَنْبٍ وليس له ذنبُ
لقد ضاع مُلكُ الناس اذ ساس مُلكَهم * وَصَيْفٌ وَأَشْناسٌ وقد عَظُمَ الكُربُ
وفَضْلُ بن مروان يُسَلِّمُ مُلِمَةً * ظل لها الإسلام ليس له شَعْبُ

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في خير قبرٍ لخيرِ مدفون
لن يجبر الله أمةً فقدت * مثلك إلا بمثل هارون
فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في شرِّ قبرٍ لشرِ مدفون
إِذهب الى النار والعذاب فما * خلَّقتُك إلا من الشياطين
مازلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ * أضرتَ بالمسلمين والدين
وقال في ذلك وفي قيام الوائق :

الحمدُ لله لا صَبْرٌ ولا جَلْدٌ . ولا عزاءٌ إذا أهلُ البَلِّ رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزن له أحد * وأنحرقام لم يفرح به أحد
ولقد أحسن في وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :
ألم يأنٍ للسفر الذين تحمَّلوا . الى وطنٍ قبل المات رجوع
فقلت ولم أملك سوابقَ عبْرَةٍ * نَطَقَنَ بما ضُمت عليه ضلوع
تبيّن فكم دارٍ تفرّق شملُها * وتَمَلَّ شَتِيت عاد وهو جميع
كذاك الليالي صرْفُهن كما ترى لكل أناس جَذْبَةٌ ورَبِيع

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى وهجرأى ومسلى
حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سَرى طيفٌ ليلي حين آن هُبُوبُ . وقضيت شوقا حين كاد يذوب
فلم أرَ مطروقاَ يحلُّ بِرحلةٍ . ولا طارقاَ يقِرُّ المني ويثيب
ومن قوله :

لقد عجبتُ سَلَمَى وذاك عَجِبُ . رأتُ بى سيبا عجلته خُطوبُ
وما شِيتنى كَبْرَةٌ غير أننى . بدهير به رأسُ الفطيم يتسب

وقال في صالح بن عطية الأصبهاني وكان من أقيح الناس وجهها، وخطاب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمد * قول امرئٍ حديدٍ عليك تحام
أنكرت أن تفتقر عنك صديعة * في صالح بن عطية التحام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طوائف الإسلام
إضرب به جيش العدو فإنه * جيش من الطاعون والبرسام

قال أبو تمام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقفرا بأستاذيته ، حتى ورد عليه
بجران بخفاء مسلم ، وكان فيه بخل ، فهجره دعبل وكتب اليه :

أبا محمد كنا عقيدي مودة * هوانا وقلبانا جميعا معا
أحوطك بالغيب الذي أنت حائطي * وأجرع إشفافا من أن تتوجعا
فصيرتني بعد انتكائك منهما * لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا
غششت الهوى حتى تداعت أصوله * بنا وآبتذلت الوصل حتى تقطعا
وأزلت من بين الجوانح والحشى * ذخيرة ود طالما قد تمتعا
فلا تلحني ليس لي فيك مطمع * تخزقت حتى لم أجدر لك مرقعا
فهبك يميني استأكلت فقطعتها * وجشمت قلبي صبره فتشجعا
ثم تهاجرا فالتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنيا ، فكان أول من حرّضه على قول الشعر . فوالله ما بلغه
أن الرشيد مات حتى كافاه على فعله من العطاء السنّي والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول
بأقيح مكافأة ، وقال فيه يهجو من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس حي من الأحياء نعلمه * من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دماهم * كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة * فعل الغزاة بأرض الروم والخرز
أرى أمة معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبني العباس من عذر

أَرْبَعُ يُطَوَّسُ عَلَى الْقَبْرِ الزَّكِيِّ إِذَا * مَا كُنْتَ تَرْبَعُ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ
قَبْرَانِ فِي طَوَسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعِبَرِ
مَا يَنْفَعُ التَّوَجُّسَ مِنْ قَرَبِ الزَّكِيِّ وَلَا * عَلَى الزَّكِيِّ بِقَرَبِ التَّوَجُّسِ مِنْ ضَرَرِ
هِيَهَاتَ، كُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبْتَ * لَهُ يَدَاهُ نَقْدٌ مَا شِئْتَ أَوْ فَذَّرَ

استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتولى للعنصم ناحية من نواحي الشام، فقصدته
إليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب إليه دعبل :

دَلَّيْنِي بِغُرُورٍ وَعَدَكَ فِي * مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ الْفَرَقِ
حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ * شُهِرَ أَنْتِقَاصُكَ شُهْرَةَ الْبَلَقِ
أَنْشَأْتَ تَحْلِفُ أَنْ وَدَّكَ لِي * صَافٍ وَحِبْلِكَ غَيْرَ مَنْحَذِقِ
وَحَسْبَتْنِي فَقَعَا بِقَرْقَرَةٍ * فَوَطِئْتَنِي وَطْأًا عَلَى حَنْقِ
وَنَصَبْتَنِي عَلَمَا عَلَى غَرَضٍ * تَرْمِينِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَدَقِ
وَوَطَنْتَ أَرْضَ اللَّهِ ضَيْقَةً * عَنِّي وَأَرْضَ اللَّهِ لَمْ تَضِقْ
مِنْ غَيْرِ مَا جُرِّمَ سِوَى ثِقَةٍ * مَنِّي بُوْعَدَكَ حِينَ قُلْتَ ثِقِ
وَمُودَّةٍ تَحْنُو عَلَيْكَ بِهَا * نَفْسِي بِلَا مَنٍّ وَلَا مَلَقِ
فَمَتَى سَأَلْتُكَ حَاجَةً أَبَدًا * فَاشْدُدْ بِهَا قُفْلًا عَلَى غَلَقِ
وَقَفَّ الْإِخَاءُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ * هَارٍ فَيَعْبَهُ بَيْعَةُ الْخَلَقِ
وَأَعِدَّ لِي قُفْلًا وَجَامِعَةً * فَاشْدُدْ يَدِيَّ بِهَا إِلَى عُنُقِ
أَعْفِيكَ مِمَّا لَا تَحِبُّ بِهَا * وَأَسْدُدْ عَلَى مَذَاهِبِ الْأَفْقِ
مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْرَضَهَا * وَأَدَّأَنِي بِمَسَالِكِ الطُّرُقِ

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنسده وهو ببغداد :

جِئْتُ بِلَا حُرْمَةٍ وَلَا سَبَبٍ - إِلَيْكَ إِلَّا بِجُرْمَةِ الْأَدَبِ
فَاقْضِ ذِمَّتِي فَإِنِّي رَجُلٌ - غَيْرُ مُبَالِحٍ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجه إليه بَصْرَةٌ فيها ألف درهم ، وكتب إليه :

أعجبتنا فأناك عاجلٌ يرّنا * ولو أنتظرت كثيره لم يقلل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل * ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قُرى السُّوس ، بعث إليه مالك بن طَوْق من ضرب ظهره

بعكاز لها زُجٌ مسموم فمات من غد .

٤ - حسين بن الضحَّاك^(١)

« شاعر ظريف شديد الظُّرف، ربما أقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المحون ، قليلُ الفحش في اللفظ . غير مُتَمَّاك على القول الآثِم والألفاظ المنكَّرة ، لا يتخيَّرها ولا يقصد إليها ، وإنما يعْرِض لها إذا اضطرَّ إليها اضطراباً وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجوَّد إذا فكَّر ، مظفر إذا بحث ، موَفِّق إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرِّصين في غير جفوة ولا غِلظة ، لا يعرف التكلُّف في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيته سهلة مرسلة غنية غزيرة المادة ، لا تكاد تنضُب ، ولا ينالها إعْياء أو كَلال ، وحياته كلها عبر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتي تذكُّ وتنفرك ، وتجعل للحن والأسى إلى قلبك سبيلاً ، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فظلَّ مبتسماً منذ تبتدئ إلى أن تنتهى دون أن تعبس أو تنطب . وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكك لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد . وربما أعترضتك في طريقك سحابة حزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامك . وكان هذا الشاعر من المعمرين ، بلغ المائة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ، وألواناً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظلَّ محتفظاً بشخصيته الواحدة المبتسمة ، تغير الناس وأختلفت الظروف ، وظلَّ هو واحداً

(١) هو مولى باهلة ، ولد في البصرة ونشأ فيها وبادم الخلفاء من بني العباس ، وكان حليفاً فاسداً وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم ولشعره قبول ورويق ، فهو من المثقنين وله معان جديدة في الخركان أبو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبو نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصر لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثير . وهو أول من نادى الأمين وله فيه مدائح كثيرة ، وعمر عراً طويلاً حتى قارب مائة السنة ومات في خلافة المستعين أو المتصرم . ومجد أخباره في الأعاني (ج ٦ ص ١٧٠) وابن حلكان (ج ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتغير. كان خليعاً، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثير المجون مُسْرِفاً فيه، وما أحسب أن أباً نواس سبقه إلى لذة أو برز عليه في مآثم، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون وتهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقاً دون أن تترك فيها أثراً باقياً، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعَبَث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأظهرك على طرف منها.

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكَد، وبعد التلطف وحسن الحيلة؛ وإنما كان متصلاً بالخلفاء اتصالاً شديداً، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي. وكان الخلفاء يبحثون عنه، ويحرسون على عشرته ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلاحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء.»

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبته الناس إلى أبي نواس، وله معان في صفتها أبع فيها، وهاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف.

قال : أنشدت أباً نواس قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي :

بَدَلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ ^(١) * وَمِنْ صَبُوحِ دَرِّ الْإِبِلِ وَالشَّاءِ

فلما انتهيت منها إلى قولي

حتى إذا أسندت في البيت وأحتضرت . عند الصُّبُوحِ بَسَامِينَ أَكْفَاءِ

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَاصِفِهَا * عَنْ مِثْلِ رَقَاقَةٍ فِي جَفْنِ مَرَّهَاءِ ^(٢)

(١) الآء : ثمر شجر واحدة آءة . (٢) المرهء : التي لا تكتمل .

فصُغِقَ صَعْقَةً أَفْزَعَتْنِي وَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَشْقَرَ، فَقُلْتُ : وَيْلَكَ يَا حَسَنَ ، إِنَّكَ أَفْزَعَتْنِي وَاللَّهِ ، فَقَالَ : بَلَى وَاللَّهِ أَنْتَ أَفْزَعَتْنِي وَرُعْتَنِي ، هَذَا مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي كَانَ فِكْرِي لَا بَدَأَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهَا أَوْ أَغْوَصَ عَلَيْهَا وَأَقُولُهَا ، فَسَبَقَتْنِي إِلَيْهِ وَاخْتَلَسَتْ مِنِّي ، وَاسْتَعْلَمَ مَنْ يُرَوِّى إِلَيَّ أَمْ لَكَ ؟ فَكَانَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ ، سَمِعْتُ مِنْ لَا يَعْلَمُ يَرْوِيهَا لَهُ :

لَمَّا قَدِمَ الْمَأْمُونُ مِنْ نَحْرَاسَانَ أَمَرَ بِأَنْ يُسَمَّى لَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ لِيَجَالِسُوهُ وَيَسَامِرُوهُ ، فَذَكَرَ لَهُ جَمَاعَةٌ فِيهِمُ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ ، وَكَانَ مِنْ جُلَسَاءِ نَعْمَدِ الْخُلُوعِ ، فَلَمَّا رَأَى أَسْمَهُ قَالَ : أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ :

هَلَا بَقِيَتْ لَسَدٌ فَاقْتَنَا * أَبَدَا وَكَانَ لِفَيْرِكَ التَّلَفُّ
فَلَقَدْ خَلَقْتَ خَلَائِفًا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُعَوِّزُ بَعْدَكَ الْخَلَفُ

لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، وَاللَّهِ وَلَا يَرَانِي أَبَدًا إِلَّا فِي الطَّرِيقِ ، وَلَمْ يَعَاقِبِ الْحُسَيْنُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ هِجَائِهِ لَهُ وَتَعْرِيزِهِ بِهِ ، وَأَتَحَدَّرُ حُسَيْنٌ إِلَى الْبَصْرَةِ فَأَقَامَ بِهَا طَوِيلَ أَيَّامٍ الْمَأْمُونُ .
قَالَ أَبُو صَالِحٍ بْنُ الرَّشِيدِ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْمَأْمُونِ وَمَعِيَ بَيْتَانُ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الضَّحَّاكِ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَ مِنِّي بَيْتَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْشِدْهُمَا ، فَأَنْشَدْتُهُمَا :

حَمَدْنَا اللَّهَ شُكْرًا إِذْ حَبَّانَا * بِنَصْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ حَقًّا * جَمَعْتَ سَمَاحَةً وَجَمَعْتَ دِينًا

فَقَالَ : لِمَنِ هَذَانِ الْبَيْتَانِ ؟ فَقُلْتُ : لِعَبْدِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ ، قَالَ : قَدْ أَحْسَنَ ، فَقُلْتُ : وَلَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجُودُ مِنْ هَذَا ، فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟ فَأَنْشَدْتُهُ قَوْلَهُ :

أَجْرُنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِئْتُ إِلَى الْوَعْدِ * مَتَى تُنْجِزَ الْوَعْدَ الْمَوْكَدَ بِالْعَهْدِ
أَعِيبُكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ بَدَأَ * تَقَطَّعَ أَنْفَاسٌ عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ
أَيُخْلِ فَرْدُ الْحَسَنِ عَنِّي بَنَائِلَ * قَلِيلٍ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوَى فَرْدِ
رَأَى اللَّهَ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَلَمَّا كَرِهَ وَاللَّهُ أَعْلَمَ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصْمَةٌ * مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ

فَأُطْرُقُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : مَا تَطْلُبُ نَفْسِي لَهُ بِخَيْرٍ بَعْدَ مَا قَالَ فِي أَخِي مُحَمَّدٍ مَا قَالَ .

ومن قوله يرثى محمدا الأمين :

أُطِلَّ حَرَّتَا وَأَبِكِ الإمام محمدا * بحزن وإن خِفَتَ الحسام المهندا
فلا تَمِتِ الأشياءَ بعد محمد * ولا زال شَمَلُ الملك منها مُبَسِّدا
ولا فِرَحَ المأمونُ بالملك بعده * ولا زال في الدنيا طريدا مُشْرِدا

ولحسن في محمدا الأمين مَرَاتٍ كثيرةٌ جيادٌ، وكان كثير التحقق به والموالات له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُلِطَ فكان يُنكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستر وأنه قد وقف على دُعَاة في الأمصار يدعون الى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضَمًّا به وشفقة عليه .

ومن جيد مرثيته إياه قوله :

سألونا أَنْ كَيْفَ نَحْنُ ؟ فقلنا . من هَوَى نَجْمُهُ فكَيْفَ يَكُونُ ؟
نَحْنُ قَوْمٌ أَصَابَنَا حَدَثُ الدَّهْرِ * رَفِظْنَا لِرَيْبِهِ نَسْتَكِينُ
نَمْنَى مِنَ الْأَمِينِ إِيَابَا * لَهْفَ نَفْسِي وَأَيْنَ مِنْهُ الْأَمِينُ

ومن جيد قوله في مرثيته إياه .

أَعَزَّى يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي * معاذ الله والأيدى الجسام
فَهَلَا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا * ودُفِعَ عَنْكَ لِي يَوْمَ الْجَمَامِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مِنْكَ غُنْمًا * أَوْ آسَتْشَفَى بِقُرْبِكَ مِنْ سَقَامِ

وقال أيضا يرثيه :

يا خير أسرته وإن زعموا . إني عليك لمنبت أسف
الله يعلم أن لي كعبدا * حرى عليك ومقلة تكف
وإن شجيت بما رزئت به . إني لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسد فافتنا . أبدا وكان لفيرك التلّف
فلقد خلقت خلائفا سلفوا . واسوف يعوز بعدك الخلف

لا بات رَهْطُكَ بعد هَفْوَتِهِمْ * إني لرهطك بعدها شَنِيفٌ ^(١)
 هَنَكُوا بِجَرْمِكَ الّٰى هُنْتُكَ * حُرِّمَ الرِّسُولُ وَدُونَهَا السُّجُفُ
 وَبَتُّ أَقَارِبُكَ الّٰى خَذَلْتُ * وَجَمِيعُهَا بِالذَّلِّ مَعْتَرِفُ
 لَمْ يَفْعَلُوا بِالشُّطِّ إِذْ حَضَرُوا * مَا تَفْعَلُ الْغَيْرَانَةُ الْإِنْفُ
 تَرَكُوا حَرِيمَ أَبِيهِمْ نَفَلًا * وَالْمُحْصَنَاتُ صَوَارِخٌ هَتَفُ
 أَبَدْتُ مُخْلَخَلَهَا عَلَى دَهَشٍ * أَبْكَارُهُنَّ وَرَنْتُ النَّصْفُ
 سَابَتَ مَعَارِجُهُنَّ وَأَجْتَلَيْتُ ^(٢) * ذَاتُ النَّقَابِ وَنُوزَعِ الشَّفَفِ
 فَكَانَهُنَّ خِلَالِ مُنْتَهَبٍ * دُرٌّ تَكْشِفُ دُونَهُ الصَّدَفُ
 مَلِكٌ تَخْزُونَ مُلْكَهُ قَدَرٌ * فَوَهَى وَصَرَفُ الدَّهْرِ مَخْتَلِفُ
 هِيَاتَ بَعْدِكَ أَنْ يَدُومَ لَنَا * عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَنَا شَرَفُ
 لَا هَيَّيُوا مُحَقَّقًا مَشْرِفَةً * لِلْغَادِرِينَ تَحْتَهَا الْجَدَفُ
 أَقْبَعْدَ عَهْدِ اللَّهِ تَقْتُلُهُ * وَالْقَتْلُ بَعْدَ أَمَانَةٍ سَرَفُ
 فَسَتَعْرِفُونَ غَدًا بِعَاقِبَةٍ * عِزُّ الْإِلَهِ فَأُورِدُوا وَقُفُّوا
 يَأْمَنُ يُخَوِّنُ نَوْمَهُ أَرْقٌ * هَدَّتِ الشَّجُونُ وَقَلْبُهُ لَهْفُ
 قَدْ كُنْتُ لِي أَمَلًا غَنِيْتُ بِهِ * فَمَضَى وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْأَسْفُ
 مَرَجَ النَّظَامِ وَعَادَ مُنْكَرُنَا * عُرْفَا وَأَنْكَرَ بَعْدَكَ الْعُرْفُ
 فَالْشَّمْلُ مَنْتَشَرٌ لِفَقْدِكَ وَال * دُنْيَا سُدَى وَالْبَالُ مَنكَسِفُ

وقال أيضا يرثيه :

إِذَا دُرِّكَ الْأَمِينُ نَعَى الْأَمِينَا * وَإِنْ رَقَدَ الْخَلِيَّ حَمَى الْجُفُونَا
 وَمَا بَرِحْتُ مَنَازِلُ بَيْنَ بَصْرَى * وَكَكَلُوا ذَى تُهَيِّجَ لِي شُجُونَا
 عِرَاصُ الْمَلِكِ خَاوِيَةٌ تَهَادَى * بِهَا الْأَرْوَاحُ تَأْسِجُهَا فَنُونَا

(١) مبغض مشكور . (٢) جمع معبر بالكسر وهو ثوب تعتز به المرأة أى نشأه على رأسها .

تَحْضُونَ عِزَّ سَاكِنِهَا زَمَانٌ * تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَ
 فَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعٍ * وَكُنْتُ بِحَسَنِ أَفْقَتِهِمْ ضَنِينَا
 فَلَمْ أُرْبِعْهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ * وَلَمْ تَرَهُمْ عِيُونُ النَّاطِرِينَ
 فَوَا أَسْفَاً وَإِنْ شَتَّتَ الْأَعَادَى * وَآهٍ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَضَلَّ الْعُرْفَ بِعَدِكَ مُتَّبِعُوهُ * وَرُقِقَهُ عَنْ مَطَايَا الرَّاحِبِينَ
 وَكُنْتُ إِلَى جَنَابِكَ كُلِّ يَوْمٍ * يَرْحُنَ عَلَى السَّعُودِ وَيَقْتَدِينَا
 هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هَوَتْ الْمَعَالَى * لِهَدِّتِهِ وَرَبِيعِ الصَّالِحِينَ
 سَتَنْدُبُ بِعَدِكَ الدُّنْيَا جَوَارَا * وَتَتَدَبُّ بِعَدِكَ الدِّينَ الْمُصَوَّنَا
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةِ كُلِّ شَيْءٍ * وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحَا مَهِينَا
 تَعْقِدُ عِزُّهُ مُتَّصِلٌ بِكَسْرَى ^(١) * وَمِلَّتُهُ وَذَلَّ الْمَسْلُومُنَا

وقال أيضا يرثيه :

أَسْفَاً عَلَيْكَ سَلَاحُ أَقْرَبُ قُرْبَةٍ * مِنِّي وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أَيُّ دِيَابَجَةٍ حُسَيْنٍ * هَيَّجَتْ لَوْعَةً حَزَنِي
 إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الزَّا * هَرَّ عَنْ فَتْرَةِ جَفْنِ
 بِأَبَى شَمْسٍ نَهَارٍ * بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجْنِ
 قَرَّبْتَنِي بِالْمَنَى حَتَّى * سَى إِذَا مَا أَخْلَفْتَنِي
 تَرَكْتَنِي بَيْنَ مَبْعَا * دَ وَخُلِيفٍ وَتَجَرٍّ
 مَا أَرَى فِيَّ مِنَ الصَّبِّ * هَوَةٌ إِلَّا حَسَنَ ظَنِّي
 إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْغَدِ * رَلَمَا تَعْرِفَ مِنِّي
 أَسْتَعِذُ اللَّهَ مِنْ مَاعِرَا - ضَ مِنْ أَعْرَضَ، عَنِّي

لما وَلِيَ المعتمد أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلم آستأذنه في الإنشاد ،
فأذن له ، فأنشده قوله :

هَلَّا سَأَلْتَ تِلْكَ الْمَشْتَاقَ * وَمَنْتَ قَبْلَ فِرَاقِهِ بِتَلَاقِ
إِنْ الرِّقِيبَ لَيْسَ تَرِيبُ تَنْفُسًا * صُعْدًا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِفْلَاقِ
وَلَيْنَ أَرَبْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ * عَبْرِي عَلَيْكَ سَخِينَةَ الْآمَاقِ
نَفْسِي الْفِدَاءَ لِحَاثِفٍ مَرَقِيبٍ جَعَلَ الْوَدَاعَ إِشَارَةً بِعِنَاقِ
إِذَا لَا جَوَابَ لِمُنْفَعٍ مَتَحِيرٍ - إِلَّا الدَّمْعُ تُصَانُ بِالْإِطْرَافِ

حتى انتهى الى قوله :

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبَشِّرٌ بِخِلَافَةٍ خَصَّتْ بِبَهْجَتِهَا أَبَا إِسْحَاقِ
وَأَفْتَهُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةً مِنْ كُلِّ مَشْكَالَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ
أَعْطَتْهُ صَفْقَتَهَا الضَّمَاثِرَ طَاعَةً قَبْلَ الْأَكْفِ بِأَوْكَدِ الْمِيثَاقِ
سَكَنَ الْأَنْأَمَ إِلَى إِمَامٍ سَلَامِيَةٍ عَفَّ الضَّمِيرَ مَهْدُبَ الْأَخْلَاقِ
غَمَى رَعِيَّتَهُ وَدَافَعُ دُونَهَا - وَأَجَارَ مُنَاقِحَهَا مِنَ الْإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فقال له المعتمد : آذنْ مني ، فدنا منه ، فلأَفَّهُ جوهرًا من جوهر كان بين
يديه ، ثم أمره بأن يخرجَه من فمه ، فأخرجه وأمر بأن يُنْظَمَ ويدفع اليه ويخرج الى الناس
وهو في يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مَدَحَ به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أَمِينَ اللَّهِ تَقَى بِاللَّهِ نَعَطَ الصَّبْرِ وَالنُّصْرَةَ
كُلَّ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
إِنَّا النَّاصِرُونَ لِلَّهِ * وَالْكِرَّةَ لَا الْفَرَةَ
وَلُتْرَاقَ الْأَعْدَا * تَكْ بَوْمُ السُّوءِ وَالْذُّبْرَةَ
وَكَأْسَ تَلْفِظِ الْمَوْتِ * كَرِيهَ طَعْمُهَا مُرَّةَ

سَقَوْنَا وَسَقَيْنَاهُمْ * وَلَكِنْ بِهِمِ الْحَرَّةُ

كَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا * عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةُ

ومن قوله في غضب حَظِيَّةَ للوائق من زيارته أخرى في نوبتها :

غَضِبْتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى خِلْسَةً * فَلَهَا الْعُتَى لَدَيْنَا وَالرِّضَا

يَا فَدَّتِكَ النَّفْسُ كَانَتْ هَفْوَةً * فَاغْفِرْهَا وَأَصْفَحْ عَمَّا مَضَى

وَأَتْرَكَ الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَه * وَأَنْسَيْ جَوْرِي إِلَى حَكْمِ الْقَضَا

فَلَقَدْ نَهَيْتَنِي مِنْ رَقْدَتِي * وَعَلَى قَلْبِي كَيْدَانُ الْغَضَا

كان اللوائق يتحطّون جارية له فماتت، فخرع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد

إلى حاله، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلاة في النوم فليت نومي كان طال قليلا

لا تمتنع بلقائها، فقل في هذا شيئا، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الدَّهْرِ عَنَا غَفَلَتْ * وَرَقِيبَ اللَّيْلِ عَنَا رَقْدَا

وَأَقَامَ النَّوْمَ فِي مَدَّتِهِ * كَالَّذِي كَانَ وَكُنَّا أَبْدَا

بَابِي زَوْرٌ تَلَفَّتْ لَهُ * فَتَنَفَّسْتُ إِلَيْهِ الصُّعْدَا

بَيْنَمَا أَضْحَكُ مَسْرُورًا بِهِ * إِذْ تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ كَيْدَا

لما أعيته الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة وكتب إليه :

أَنْتَ طَوْدَى مِنْ بَيْنِ هَذِي الْهَضَابِ * وَشِهَابِي مِنْ دُونِ كُلِّ شِهَابِ

أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحَيَاتِي * وَلِسَانِي وَأَنْتَ ظُفْرِي وَنَابِي

أَتُرَانِي أَنْسَى أَيْدِيكَ إِلَيَّ * ضَ إِذَا أَسَوْدَ نَائِلُ الْأَصْحَابِ

أَيْنَ أَخْلَافُكَ الرِّضْيَةُ حَالَتْ * فِي أَمِّ أَيْنَ رِقَّةُ الْكَتَّابِ؟

أَنَا فِي ذِيَةِ السَّحَابِ وَأَطْمَأْ؟ * إِنَّ هَذَا لَوَصْمَةٌ فِي السَّحَابِ

قُمْ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ عَنِّي * قَوْمَةٌ تَسْتَجِرُّ حُسْنَ الْخَطَابِ

فَلْعَمَلُ الْإِلَهِ يُطْفِئُ عَنِّي * بِكَ نَارًا عَلَى ذَاتِ آلْتِهَابِ

فلم يزل عمرو يُلَطِّبُ للمأمون حتى أوصله إليه وأدّر أَرْزَاقَهُ .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلم، فرد عليه السلام ردًا جافيا، ثم أقبل عليه فقال : أخبرني عنك، هل عرفت يوم قُتِلَ أخى محمد هاشمية قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا، قال : فما معنى قولك :

وَسِرْبَ ظِلَاءٍ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ * هَتَّئِنْ بِدَعْوَى خَيْرِ حَى وَمَيَّتْ
أَرَدُّ يَدَا مَنَى إِذَا مَا ذَكَرْتُهُ * عَلَى كَبَدِ حَرَمَى وَقَلْبِ مُفَتَّتْ
فَلَا بَاتَ لَيْلُ الشَّامَتَيْنِ بِغِبْطَةٍ * وَلَا بَلَغَتْ آمَالُهُمْ مَا تَمَنَّتْ

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني، وسيد فقدته فأقلقني، فإن عاقبت فبحقك، وإن عطفت فبفضلك، فقدمت عينا المأمون وقال : قد عفوت عنك، وأمرت بإدراار رزقك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعي من استخدامك .

ومن قوله :

وَكَا لَوْرِدَةِ الْحَمَاءِ حَيَا بِأَحْمَرٍ * مِنْ الْوَرْدِ يَمْشَى فِي قِرَاطِقِ كَالْوَرْدِ
لَهُ عَبَثَاتٌ عِنْدَ كُلِّ تَحِيَّةٍ * بَعِيْذِهِ تَسْتَدْعِي الْحَلِيمَ إِلَى الْوَجْدِ
تَمَنِّيْتُ أَنْ أُسْقَى بِكَفِّهِ سَرِيَّةٍ * تَذَكَّرْنِي مَا قَدْ نَسِيتُ مِنَ الْعَهْدِ
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ أَتِ فِيهِ لَيْلَةٌ * خَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ حَبِيْبٍ عَلَى وَعْدِ

ومن قوله :

وَإِبْرَاهِيْمَ مُفَحَّمٍ لِعَزَّتِهِ * قُلْتُ لَهُ إِذَا خَلَوْتُ مَكْتَبًا
يُحِبُّ بِاللَّهِ مَنْ يَخْصُصُكَ بِالْ * يَوْداً مَا قَالَ لَا وَلَا نَعْمَا
ثُمَّ تَوَلَّى بِمُقَلَّتِي خَجِلٍ : أَرَادَ رَجْعَ الْجَوَابِ فَاحْتَشَمَا
فَكُنْتُ كَالْمُنْبَغِيِّ بِحِيلَتِهِ . بَرَاءً مِنَ السُّقْمِ فَابْتَدَأَ سَقْمَا

وقال في هوى له :

عَالِمٌ بِحَيِّهِ * مَطَرٍ مِنَ النَّيِّهِ
يُوسُفُ الْجَمَالِ وَفِرَ * عَوْنِ فِي تَعَدِّيهِ

لا وحق ما أنا فيه * له من عطف أرجيه
 ما الحياة نافعة * لى على تأبيه
 النعيم يشغله * والجمال يطفيه
 فهو غير مكترث * للذى ألاقه
 تأيه تزهده * فى رغبى فيه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يرانى * نضب عيني ثمثل بالأمانى
 بأبى من ضميره وضميرى * أبدا بالمغيب ينتجيان
 نحن شخصان إن نظرت وروى * حان اذا ما آخبرت يمترجان
 فاذا ما هممت بالأمر أو همم * بنىء بدأئهم وبدانى
 كان وفقا ما كان منه وهنى * فكأنى حكيتهم وحكائى
 خطرات الجفون منا سواء * وسواء تحرك الأبدان

ومن قوله :

قديت من قال لى على خصره * وغض من جفنه على حوره
 سمع بأشعارك المليح فا * ينفك شاد بها على وتره
 حسبك بعض الذى أذعت ولا * حسب لصب لم يقض من وطره
 وقلت يا مستعير سالفه ال * خشف وحسن الفتور من نظره
 لا تترك الحبيب من طرب * عاود فيك الصبا على كبره

ومن قوله :

سائل بطيخك عن ليلي وعن سهري * ومن سناح أهاسى رعن فذكرى
 لم يتحل قلبى من ذكراك إذ نظرت * عيني اليك على صحموى ولا سكرى
 سقيا ليوم سرورى إذ تازعنى * صفو المدامة بين الأس والخمر

وَفَضَّلَ كَأْسَكَ يَا بُنَيَّ فَأَشْرَبَهُ * جَهْرًا وَتَشْرَبُ كَأْسِي غَيْرَ مُسْتَتِرٍ
وَكَيْفَ أَشْمِلُهُ لَثْمِي وَأَلْزِمُهُ * نَحْرِي وَتَرْفَعُهُ كَفِّي إِلَى بَصْرِي
قَلِيلَتِ مُدَّةُ يَوْمِي إِذْ مَضَى سَلْفَا * كَانَتْ وَمُدَّةُ أَيَّامِي عَلَى قَدَرٍ
حَتَّى إِذَا مَا أَنْطَوْتُ عَنْهَا بِشَاشَتِهِ * صِرْنَا جَمِيعًا كَذَا جَارَيْنِ فِي الْحَفْرِ
وَمِنْ قَوْلِهِ لَهْوَى كَانَ لَهُ :

تَعَزَّيْبِائِسَ عَنْ هَوَايَ فَإِنِّي * إِذَا أَنْصَرَفْتُ نَفْسِي فَهِيَ بَاتٍ عَنْ رَدِّي
إِذَا خُنْتُ بِالْغَيْبِ وَدَى فَاكُم * تُدَلُّونَ إِدْلَالَ الْمَقِيمِ عَلَى الْعَهْدِ
وَلِي مِنْكَ بَدَاجَانَتَيْنِي مَدْمَمًا * وَإِنْ خَلَّتْ أُنَى لَيْسَ لِي مِنْكَ مِنْ بَدٍّ
لَمَّا وَلِيَ الْوَانِقُ الْخِلَافَةَ أَنْشَدَهُ حَسِينُ :

أُكَاتِمُ وَجْدِي فَمَا يَنْكُتُ * بَيْنَ لَوْ شَكُوتُ إِلَيْهِ رَحِمُ
وَإِنِّي عَلَى حَسَنِ ظَنِّي بِهِ * لِأَحْذَرُ إِنْ بُحْتُ أَنْ يَحْتَشِمُ
وَلِي عِنْدَ لِحْظَتِهِ رَوْعَةٌ * تَحَقِّقُ مَا ظَنَّنَهُ الْمُتَّهَمُ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّي لَهُ * مَحَبَّةً وَأَحْسَبُهُ قَدْ عَلِمَ
وَإِنِّي لَمُغْنٍ عَلَى لَوْعَةٍ * مِنَ الشَّوْقِ فِي كِبْدِي تَضْطَرُّمُ
عَشِيَّةً وَدَعَتِ عَنْ مَقَلَةٍ * سَفُوحٌ وَزَفْرَةٌ قَلْبٍ سِدَمُ
فَمَا كَانَ عِنْدَ النَّوَى مُسْعِدٌ * سِوَى الْعَيْنِ تَمْزِجُ دَمْعًا بِدَمِ
سَيَذْكُرُ مِنْ بَانَ أَوْطَانَهُ * وَيَبْكِي الْمَقِيمِينَ مَنْ لَمْ يُقِمِ

كتب إلى الحسن بن رجا في يوم شك، وقد أمر الوانق بالإفطار، فقال :

هَزَزْتُكَ لِلصَّبُوحِ وَقَدْ نَهَا * أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصَّيَامِ
وَعِنْدِي مِنْ قِيَانِ الْمِصْرَ عَشْرٌ * يَطِيبُ بِهِ عَاقِبَةُ الْمَدَامِ
وَمِنْ أَمْثَالِهِ إِذَا أَنْتَشِينَا * تَرَانَا نَجْتِي تَمَرُ الْفَرَامِ
فَكُنْ أَنْتَ الْجَوَابُ فَلَيْسَ تَنِي * أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَذْفِ الْكَلَامِ

فوردت رقعة ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْحَرٍ ووجهه إليه بغلام نظيف الوجه
ومعه ثلاثة غلابة أقران حسان الوجه ، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير ، وختمها
في أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ يَا أَشَدَّ * كَلَّ مِنْ غَضَبِ الْجَيْنِ
فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنَى الرَّوَّ * مَ إِلَى دَارِ حُسَيْنِ
أَشْخِصْ الْكَهْلَ إِلَى مَوْ * لَاكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي
أَرِهِ الْعُنْفَ إِذَا آسَدَ * صَى وَطَالِبِهِ بَدَيْنِ
وَدَعْ اللَّفْظَ وَخَاطِبَهُ * هُ بَغْمِ الْحَاجِبَيْنِ
وَاحْذَرِ الرَّجْعَةَ مِنْ وَجْ * هَكَ فِي خُفَى حُنَيْنِ

فمضى معهم .

ومن قوله لمن أعرض عنه :

تَيَّيْهِ عَلَيْنَا أَنْ رُزِقَتْ مَلَاخَةٌ * فَهَلَّا عَلَيْنَا بَعْضَ نِيهِكَ يَا بَرُّ
لَقَدْ طَالَ مَا كُنَّا مِلَاحًا وَرَبْمَا * صَدَدْنَا وَتَهْنَا ثُمَّ غَيَّرْنَا الدَّهْرُ
وَلَهُ فِي هَوَى مُجِيبٍ عَنْهُ :

ظَنُّ مِنْ لَا كَانَ ظَنُّ * أَمْ بِحَبِيبِي خَمَاهُ
أَرْصَدَ الْبَابَ رَقِيدِ * نَ لَهُ فَاصْتَنَاهُ
فَإِذَا مَا أَشْتَقَ قُرْبِي * وَلَقَائِي مَنَعَاهُ
جَعَلَ اللَّهُ رَقِيدِ * هُ مِنْ الشُّوءِ فِدَاهُ
وَالَّذِي أَقْرَحَ فِي الشَّ * دَنْ قَائِي وَلَوَاهُ
كُلَّ مُشْتَقٍ إِلَيْهِ * مِنْ الشُّوءِ فِدَاهُ
مَيِّمًا مِنْ حَالَتِ الْأَحْ * دِ رَاسٍ مِنْ دُونِ مَنَاهُ

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه ، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال للمتوكل بعض من حضر عنده : هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ؛ فبلغه ذلك ، فدفع الى أحمد بن حمدون أبياتا قالها وسأله إيصالها ، فأوصلها الى المتوكل ، وهى :

أما فى ثمانين ووفيتها . * عذير وإن أنا لم أعتذر
فكيف وقد جزئها صاعدا * مع الصاعدين يتسع أثر
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة * وألحد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أسراء الإل * له فى الأرض نصب صُروف القدر
فإن يقض لى عملا صالحا * أثاب وإن يقض شراً غفر
فلا تلح فى كبر هذى * فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب * فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإنى نقي كنف مغدق * وعز بنصر أبى المتصر
يأرى الرياح بفضل السما * ح حتى تبدل أو تحسر
له أكد الوحى ميراثه * ومن ذا يخالف وحى السور
وما للحسود وأشباهه * ومن كذب الحق إلا الحجر

فلما أوصلها شيعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛ فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ - محمد بن عبد الملك الزيات^(١)

كان محمد شاعرا مجيدا لا يُقاس به أحد من الكتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقلِّ وصاحب قصار ومقطّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيجيد ، ويأتي بالفصاح فيجيد ؛ وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس الالباء ، وأن يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفا بجمائل ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمة خور في الطبيعة ، وضعف في المنة ، ما رحمت شيئا قط ؛ فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول ، فلما وُضع في الثقل والحديد قال : ارحموني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ؟ هذه نهادتك على نفسك وحكك عليها .

لما ماتت أم ابنه عمرو ثاها بقصيدة منها :

يقول لي الخللان لو زُرت قبرها * فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر
على حين لم أحدث فأجهل قبرها ولم ألغ السن التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب السيء نحره فحرّمه * قد كسب أحسب أي قد ملأت يدي
مالى اذا غبت لم أذكر بصالحه وإن مريصت فطال السقم لم أعد

(١) هو أرحم محمد بن عبد الملك بن أمان بن حمزة واستمر ابن الزيات لأن حمزة (أمان) كان يحمل الزيات من مواضعه الى بغداد ، وكان يديبا شاعرا عالم الحروف واللغة ، والد دوان ، ومجموعة رسائل جيدة ، وكان في أول عمره من حملة الكتّاب ، ودار ورعا لا يحتمل ولا يملأ . ثم بنو الممركل قص عليه وامر بادخاله في ثوب من حديد كان ابن الزيات اسدّه امديد المصا . بن وأدات الدواوين المطالين . ال وقيدته بحصة من رطلا من حديد ، ثم أمر باحراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ويجد ترجمته في الأمل (ح ٢٠ ص ٤٦) وابن حلكان (ح ٢ ص ١٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئب حزين * خدبن صباية وحليف صبر
يقول اذا سأل به بحر * وكيف يكون مهجور بحير

وكان لمحمد يردون أشبه لم ير مثله قرأه وحسنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم

ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأحده منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاء وقد مضى لسيله * عما فودعا الأحـم الأشـه
دب الوشاة فأعدوك وربما * بعد القتي وهو الأحـب الأقرب
لله يوم مات عى طاعيا * وسليت قرك أى علق أسـل
نفس مفرقة أقام فرقتها * ومضى لطيته فريق محـب
فالان اد كـمات أداتك كلها * ودعا العيون اليك لون معـج
وأختبر من سـر الحـدائد حـرها * لك حالصا ومن الحلـى الأعـرب
وعدوت طـان اللـحـام كـأما * فى كل عـصو مـك صـنج يـصـرب
وكان سـرحك إـد عـلاك عـمامـه * وكأما تحت العمامـه كوكـب
ورأى عـلى لك الصـديق حـلاله * وعدا العـدو وصدـره يـتلـهب
أسـالك لا رالـب ادا مـيبـه * مـسى ولا رالـت يـمـبى تـك
أصـمـرت مـك الـياس حـس رأـتـى * وقوى حـالى مـن قـواك تـقـصـب
ورحمت حـس رحمت مـك بحـسره * لله ما فـعل الأـحـم الأـسـه

ولما وب إبراهيم بن المهدي دلى الخلافة أقصر من ماسر التـحـار مالا، فأحد من

عبد الملك أى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : اأدّها اذا حاءى مال، وم يتم أمره،

فاستحى ثم طهر ورضى عنه المأمون، فطامه اليه من أموالهم، فقال : بما أحدهم للمسلمين

وأردت قصاءها من قيتهم، والامر الآن الى عيرى، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة

حاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطى

المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه القصيدة الى المأمون ، خفاف أن يقرأها المأمون
فيتدبر ما قاله ، فيوقع به ، فقال له : خذ منى بعض المال ونجم على بعضه ، ففعل ؛
والقصيدة قوله :

ألم تر أن الشئ للشئ علة * تكون له كالنار تُفدح بالزند
كذلك جربت الأمور وإنما * يدلك ما قد كان قبل على البعد
وظنى إبراهيم أن مكانه * سيبت يوما مثل أيامه النكد
رأيت حسينا حين صار محمدا * بغير أمان في يديه ولا عقد
فلو كان أمضى السيف فيه بضربة * فصيره بالقاع مُنْعِفَ الحَدِّ
إذا لم تكن للجند فيه بقية * فقد كان ما بلغت من خبر الحدد
هم قتلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفا من كهول ومن مُرد
وما نصره عن يد سلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حقد
ولكنه القدر الصراح وخفة الـ * حلوم وُبعد الرأى عن سنن القصد
فذلك يوم كان للناس عبرة * سبق بقاء الوحى فى الحجر الصلد
وما يوم إبراهيم إن طال عمره * بأبعد فى المكروه من يومه عندى
تذكر أمير المؤمنين مقامه * وأيمانه فى الهزل منه وفى الحد
أما الذى أمست عبدا خليفة * له شر إيمان الخليفة والعبد
إذا هنأ أعواد المنابر بأسته * تغنى بلى أو يمىة أو هند
فوالله ما من توبة نعت به * اليك ولا ميل اليك ولا ود
ولكن إخلاص الضمير مقرب * إلى الله زلفى لا تيسد ولا تكدي
أتاك بها كرها اليك بأنفه * على رءمه وأستأثر الله بالحمد
فلا تترك للناس موضع شبهة * فإنك مجزى بحسب الذر تُسدى
فقد غلطوا للناس فى نصب مثله * ومن ليس للنصور بابن ولا المهدي

فكيف بمن قد بايع الناس وأتقن ببيعته الرُكبان غَوَّرا الى نَجْدِ
 ومن سَكَ تسلُّمُ الخلافة سمعه يُنَادِي به بين السَّماطين من بُعْدِ
 وَاى امرئ سَمَّى بها قط نفسه * ففارقها حتى يُغَيَّب في اللُحْدِ
 وتزعم هَذِي النَّابِيتَةِ أَنَّهُ * إمام لها فيما تُسِرُّ وما تُبْدِي
 يقولون سُنِّي وَأَيُّهُ سُنَّةٌ تَنِمُّ بصَلِّ الرأسِ جَوْنِ القَفَا جَعْدِ
 وقد جعلوا رُخْصَ الطعام بعهدِهِ * زعيما له باليَمَن والكَوكِب السَّعْدِ
 اذا ما رأوا يوما غَلَاءَ رَأْيَتِهِم * يَمَحْنُون تَحَنُّنا الى ذلك العَهْدِ
 وإِقْبَالُهُ في العِيدِ يُوجِفُ حَوْلَهُ * وَجِيفَ الحِيَادِ واصطكَك القَنَا الجُرْدِ
 وَرَجَالُهُ يَمَشُونَ بِالْبَيْضِ قَبْلَهُ * وقد تَبَعُوهُ بالقَضِيبِ وبالْبُرْدِ
 فَإِنْ قَلَّتْ قد رامِ الخِلافةَ قَبْلَهُ فلم يُؤْتَ فيما كان حَاولَ مِنْ جَدِّ
 ولم أَجْزِهِ إِذْ خِيبَ اللهُ سَعْيَهُ على خَطَا إِذْ كانَ مِنْهُ على عَمْدِ
 ولم أَرْضَ بعدَ العَفْوِ حتى رَفَعْنَهُ وَلَئِمَّ أَوَّلِي التَّغَمُّدِ والرَّوْدِ
 فليس سَواءً خَارِجِي رَمَى بِهِ إِلَيْكَ سَنَاهُ الزَّايِ والرَّأْيِ قد يَرُدِّي
 تَعَادَتْ لَهُ مِنْ كُلِّ أَوْبِ عِصَابَةٍ مَتَى بَوْرِدُوا لَا يَصِيدُوه عِزَّ الْوَرْدِ
 ومن هُوَ في بَيْتِ الخِلافةِ تَأَتَّى بِهِ رَاكِبًا لَابَاءَ فِي ذِرْوَةِ المَجْدِ
 فَوَلَاكَ مَوْلَاهُ وَجُودُهُ جَانِبُهُ يَهْدِي تَجَمُّعَ النِّبْيِ المَسَاءِ فِي عَمْدِ
 وقد رَأَى مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ نَفْسَ رَأَيْتَ ذِمَّ وَحَدَا بِهِ أَيْمًا بَجَادِ
 يقولون لَا تَتَّبِعْ مِنْ آيِنٍ مِثْلَهُ مَبْهُورٍ عَلَى الزَّوْءِ ذِي مِرَّةٍ جَلَادِ
 فَمَا إِذْ دَانَتْ نَفْسُهُ دُونَ مِثْلِنَا عَلَيْهِ لَيْسَ الحَالُ تَرَى لَوْ أَنَّ يَنْدِي
 على حَبْنِ أَهْلِ المَاسِرِ صَنَقَ أَكْفِيهِ شَرُّ بَنِ مَرْوَمِي الزَّوْدِ بِهِ وَالسَّيْدِ
 فَمَا كَانَ فِيا مِنْ أَبِ الضَّمِّ غَيْرُهُ كَرِيمَ كَنَى ما فِي القَبُولِ وَفِي الرَّدِّ
 وَجَرَّدَ إِبراهيمَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ رَأَيْتُ سِلَاحًا فَوْقَ ذِي مَبْعَةٍ نَهْدِ

وأبلى ومن يبلغ من الأمر جهده . فليس بمذموم وإن كان لم يُجِدْ
فهذه أمور قد يخاف ذوو النهى * مغبتها والله يهديك للتشديد
وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشناس
وكاتبه أحمد بن الخصب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها
لبعض أهل العسكر، وهى :

يا بن الخلائف والأملأ إن سُبُوا * حُرِثَ الخلافةَ عن آبائك الأول
أَجَرَتْ أم رقدت عيناك عن عَجَبٍ . فيه البرية من خوف ومن وهَلْ
وَلَيْتَ أربعةَ أَمَرَ العبادَ معا * وكلُّهم حاطبٌ فى جبل مُحْتَسِلْ
هَذَا سُلَيْمَانُ قد ملكت راحته * مشارق الارض من سهل ومن جبل
ملكته السند فالشجرين من عَدَنَ . الى الجزيرة فالأطراف من مَلَلْ
خلافةٌ قد حواها وحده فُضَّتْ * أحكامه فى دماء القوم والنقل
وابن الخصب الذى ملكت راحته * خلافة الشام والغازين والقفل
فَنِيلٌ مِصرَ فبحر الشام قد جَرَّيَا * بما أراد من الاموال والحُلَلْ
كانهم فى الذى قَسَمَتْ بينهم * بنو الرشيد زمانَ القَسَمِ للدول
حَوَى سُلَيْمَانُ ما كان الأَمِينُ حوى . من الخلافة والتبليغ للأمل
وأحمد بن خصب فى إمارته . كالقاسم بن الرشيد الجامع السبل
أصبحت لا ناصحٌ يأتيك مستترا . ولا علانيةً خوفا من الحِيلْ
سل بيت مالِك أين المال تعرفه . وسل خراجك عن أموالك الجملْ
كم فى حُبُوسك ممن لا ذنوب لهم . أسرى التَّكْذِبِ فى الأفياد والجبلْ
سميت باسم الرشيد المرتضى فيه . تُسمى الأُمُور التى تَنجى من الزَّلَلْ
عِثٌ عِثهم مثل ما عاثت يدها معا . على البرامك بالتهديم للفُلَلْ

فلما قرأ الواثق هذا الشعر غاطه ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصب ،
وأخذ منهما ومن أسبأهما ألفى ألف دينار جعلها فى بيت المال .

٦ - ابن البواب^(١)

لما أتى المأمون بشعر آبن البواب الذي يقول فيه :

أَيَحِلُّ فَرْدُ الْحَسَنِ فَرْدُ صِفَاتِهِ * عَلَى وَقْدِ أَفْرَدْتُهُ بِهِوَى فَرْدِ
رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ ٠ فَلَمَّا كَانَ اللَّهُ أَعْلَمَ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ ٠ مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعْنَى جُودًا وَأَيْكًا لِي مُحَمَّدًا ٠ وَلَا تَذَخَّرَا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمُلْكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرِدًا مُطَّرَّدًا

واحدة بواحدة، ولم يَصْلُهُ شَيْءٌ . ولما سَخِطَ عَلَيْهِ قَالَ قَصِيدَةً يمدحه بها، ودسَّ مَنْ
غَنَّاهُ فِي بَعْضِهَا لَهَا وَجَدَ مِنْهُ نَشَاطًا، فَسَأَلَ : مَنْ قَائِلُهَا، فَأَخْبَرَهُ، فَضَرَبَ عَنْهُ وَرَدَّهُ إِلَى رَسْمِهِ
مِنَ الْخِدْمَةِ، وَهِيَ :

هَلْ لِلْحَبِّ مُعِينٌ * إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لَشَجْوَالٍ * حَزِينٍ إِلَّا الْحَزِينُ
يَا ظَاعِنَا غَابَ عَنَّا ٠ غَدَاةَ بَانَ الْقَطِينُ
أَبْكَى الْعِيُونَ وَكَانَتْ * بِهِ تَفَرَّتِ الْعِيُونَ
يَا أَيُّهَا الْمَأْمُونُ الْ * حَبَارِكُ الْمِيمُونُ
لَقَدْ صَفَّتْ بِكَ دُنْيَا ٠ لِلْمُسْلِمِينَ وَدِينِ
عَالَمِكَ نُورٌ جَلَالٌ ٠ وَنُورُ مُلْكٍ مُسِينِ

(١) هو عبد الله بن عباس بن أحمد بن يحيى، وحسنه جماعة معه زينة لانتاح من يوسف - ونزلوا
عنده بواسطه، فأقامهم سنة بها - فاحصوها وبرلوها طويلا - من امد، ثم انطلقوا من الدولة الحماسية الى الربيع
خدموه، وكان عبد الله بن محمد هذا يخاف انقص من اربع على سنة الخلفاء، وكان صاحب الشعر قليله وراوية لاجار
الحلفاء مالمأأموره .

القولُ منك فعَال * والظنُّ منك يقين
 ما من يديكَ شِمَال * كلنا يديكَ يمين
 كأنما أنت في الجَو * د والتقى هارون
 مَنْ نال من كل فضل * ما ناله المأمون
 تألَّف النَّاسَ منه * فضلاً وجود ولين
 كالبدْر يبدو عليه * سكينته وسكون
 فالرزق من راحتيه * مقسَّم مضمون
 وكل خَصْلة فضل * كانت فمنه تكون

ومما يغنى فيه قوله :

أَفَقَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمَعَذَّبُ كَمْ تَصْبُو؟ * فلا النَّأْيُ عن سَلْمَاكَ يُسَلِّ ولا الْقُرْبُ
 أَقُولُ غَدَاةَ آسْتَخْبِرْتُ مِمَّ عَلَيَّ؟ * من الْحَبِّ كَرْبٌ لَيْسَ يُشْبِهُه كَرْبُ
 إِذَا أَبْصَرْتُكَ الْعَيْنُ مِنْ بَعْدِ غَايَةٍ * فأَدْخَلْتُ شَكَا فَيْكَ أَثْبَتَكَ الْقَلْبُ
 وَلَوْ أَنَّ رَكْبًا يَمُوكَ لَقَادَهُمْ * نَسِيمُكَ حَتَّى يَسْتَدِلَّ بِكَ الرِّكْبُ

أملق ابن البواب حين جَفَّاه الخليفة وَعَلَتْ سِنَّتُهُ عن الخدمة، فَرَحَلَ الى أَبِي دُلْفٍ
 الْقَاسِمِ بْنِ عَيْسَى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما
 نفدت حتى مات، وهي قوله :

طَرَفْتُكَ صَائِدَةً الْقُلُوبِ رَبَابُ * وَنَأَتْ فَلَيْسَ لَهَا إِلَيْكَ مَأْبُ
 وَتَصَرَّمَتْ مِنْهَا الْعُهُودُ وَغُلَقَتْ * من دُونَ نَيْلِ طِلَابِهَا الْأَبْوَابُ
 فَلَا صِدْفَ عَنْ الْهَوَى وَطِلَابِهِ * فَالْحَبُّ فِيهِ بَلِيَّةٌ وَعَذَابُ
 وَأَخْصُ بِالْمَدْحِ الْمَهْدَبِ سَيِّدَا * نَفَحَاتِهِ لِلْمُجْتَدِينَ رِغَابُ
 وَالى أَبِي دُلْفٍ رَحَلْتُ مَطِيَّتِي * قَدْ شَفَّهَا الْإِرْقَالُ وَالْإِتْعَابُ^(١)

تعلو بنا قُلَلُ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهوية وشعاب
 فإذا حلتُ لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتفضت الآرابُ
 مَلِكٌ تأمل عن أبيه وجده * مجَّدًا يقصر دونه الطُّلابُ
 وإذا وزَّنت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعْتُ لفضل قديمه الأحسابُ
 قومَ علوا أَملاكَ كُلِّ قبيلة * فالناسُ كلَّهم له أذنان
 ضربت عليه المكرماتُ قباها * فعلا العمودُ وطالت الأطنابُ
 عَقِمَ النساءُ بمثله وتعطلت * من أن تُضَمَّنَ مثله الأصلابُ

٧ - الخُرَيْمِيُّ^(١)

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائحٌ جَيَّادٌ، ثم رثاه بعد موته، فقيل له: يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مرثيتك وأجود؛ فقال: كُنَّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد.

وهو القائل في عينيه:

أَصْنِي إِلَى قَائِدِي لِيُخْبِرَنِي * إِذَا أَلْقَيْنَا عَمَّنْ يُحْيِينِي
أُرِيدُ أَنْ أُعْدِلَ السَّلَامُ وَأَنْ * أَفْضَلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالذُّونِ
أَسْمَعُ مَا لَا أَرَى فَأَكْزُهُ أَنْ * أَخْطِئُ وَالسَّمْعُ غَيْرُ مَأْمُونِ
لِلَّهِ عَيْنِي الَّتِي جُمِعَتْ بِهَا * لَوْ أَنَّ دَهْرًا بِهَا يُوَاتِينِي
لَوْ كُنْتُ خَيْرْتُ مَا أَخَذْتُ بِهَا * تَعْمِيرَ نُوحٍ فِي مُلْكِ قَارُونِ
حَقٌّ أَخْلَاثِي أَنْ يَعُودُونِي * وَأَنْ يُعْزَّوْا عَنِّي وَيَكُونِي

وهو القائل:

إِذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَبِكَ بَعْضًا * فَإِنَّ الْبَعْضَ عَنْ بَعْضٍ قَرِيبُ
يُمْنِنِي الطَّيِّبُ شِفَاءً عَيْنِي * وَهَلْ غَيْرُ الْإِلَهِ لَهَا طَيِّبُ

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل:

إِنِّ أَمْرُؤٌ مِنْ سِرَاهِ الْعَمَلِ الدَّاسِي * عَرَفَ الْأَعَاجِمَ جَلَدًا طَلَسَ الْمَرِي

وكان مولد ابن حريم أكلدي قال لأبيه: خريم الناعم. وهو خريم بن عمرو بن مرة بن عوف بن سعد بن ديبان. وعنى أبو يعقوب الخريمي بهد ما أسر، وكان يقول في ذلك شعرا، فيه موله:

إِنْ تَكْ عَيْنِي خَبَا نَوْدَهَا * فَكَيْفَ لَهَا نَوْرُ عَيْنِ حَبَا
فَلَمْ يَهْمِ قَلْبِي وَلَهْجَا * أَرَى نَوْرَ عَيْنِي إِلَيْهِ هَبَا
فَأَسْرَجَ فِيهِ لَمَى نَوْدَه * سَرَّاحًا مِنَ الْعِلْمِ شَتَّى الْعَبَا

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يلعب الزمانُ ببغ * دَادَ وتَعَثَّرُ بها عَوَائِرها
إذ هي مثلُ العروسِ بِأَدْنِهَا * مُهَوِّلٌ للفتى وحَاضِرُهَا
جَنَّةُ دُنْيَا وِدَارٌ مَغْبَطَةٌ * قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ وَائِثْرُهَا^(١)
دَرَّتْ حُلُوفُ الدُّنْيَا لِسَاكِنِهَا * وَقَلَّ مَعْسُورُهَا وَعَاسِرُهَا
وَأَفْجَرَجَتْ بِالنَّعِيمِ وَأَنْتَجَعَتْ * فِيهَا بِلْدَاتُهَا حَوَاضِرُهَا
فَالْقَوْمُ مِنْهَا فِي رَوْضَةِ أَنْفٍ * أَشْرَقَ غِيبُ الْقِطَارِ زَاهِرُهَا
مِنْ غَرِّهِ الْعَيْشِ فِي بُلْهَنِيَّةٍ * لَوْ أَنَّ دُنْيَا يَوْمَ عَامِرِهَا
دَارُ مَلُوكٍ رَسَتْ قَوَاعِدُهَا * فِيهَا وَقَرَّتْ بِهَا مَنَازِرُهَا
أَهْلُ الْعِلَا وَالْثَرَى وَأَنْدِيَةِ الْإِل * ففخر إذا عُدَّتْ مَفَاخِرُهَا
أَفْرَاحُ نُعْمَى فِي إِرْثِ مَمْلَكَةٍ * شَدَّ عُرَاهَا لَهَا أَكْبَارُهَا
فَلَمْ يَزَلْ وَالزَّمَانُ ذُو غَيْرٍ * يَقْدَحُ فِي مُلْكِهَا أَصَاغِرُهَا
حَتَّى تَسَاقَتْ كَأَسَا مُنْمَلَةٍ * مِنْ فِتْنَةٍ لَا يُقَالُ عَائِرُهَا
وَأَفْتَرَقَتْ بَعْدَ أَلْفَةٍ شَيْعَا * مَقْطُوعَةً بَيْنَهَا أَوَاصِرُهَا
يَاهِلُ رَأَيْتَ الْأَمْلَاكَ مَا صَنَعَتْ * إِذْ لَمْ يَزَعْهَا بِالنَّصْحِ زَاكِرُهَا
أَوْرَدَ أَمْلَاكُنَا نَفُوسَهُمْ * هُوَّةٌ غَيَّيَتْ مَصَادِرُهَا
مَا صَرَّهَا لَوْ وَقَّتْ بِمَوْتِهَا * وَأَسْتَحْكَمَتْ فِي التَّقَى بَصَائِرُهَا
وَلَمْ تُسَافِكْ دِمَاءَ شِيعَتِهَا * وَتَبْتَعِلَ فِتْيَةٌ تُكَايِرُهَا
وَأَفْتَعَتْهَا الدُّنْيَا الَّتِي جُمِعَتْ * لَهَا وَرَغْبُ النُّفُوسِ ضَائِرُهَا
مَا زَالَ حَوْضُ الْأَمْلَاكِ [...] * مَسْجُورُهَا بِالْهَوَى وَسَاجِرُهَا
تُبْقَى فُضُولُ الدُّنْيَا مُكَاثَرَةً * حَتَّى أُيْحِتَ كَرُّهَا ذَخَائِرُهَا

- يبيع ما جَمَعَ الأَبْوَةُ لَهُ * أبناء لا أُوْبِحَتْ مَتَاجِرُهَا
 يا هَلْ رَأَيْتَ الحَنَانِ زَاهِرَةً * يروق عَيْنَ البَصِيرِ زَاهِرُهَا
 وهل رَأَيْتَ القُصُورَ شَارِعَةً * تُكِنُّ مِثْلَ الدُّمَى مَقَاصِرُهَا
 وهل رَأَيْتَ القُرَى الَّتِي غَرَسَ الـ * أَمْلَاكَ مُحْضَرَةً دَسَاكِرُهَا
 مُحْفُوفَةً بِالْكُرومِ وَالتَّخْلِ وَالـ * تَرْيْحَانِ قَدْ دَمِيتَ مَحَاجِرُهَا ^(١)
 فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ خَلَايَا مِنَ الـ * بِإِنْسَانٍ قَدْ دَمِيتَ مَحَاجِرُهَا ^(١)
 قَفَرًا خَلَاءَ تَعْوَى الكَلَابِ بِهَا * يُنْكِرُ مِنْهَا الرُّسُومَ دَائِرُهَا
 وَأَصْبَحَ البُؤْسُ مَا يَفَارِقُهَا * إِنْقَالًا وَالسُّرُورُهَا جَارُهَا
 بَزْدَ وَرْدٍ وَالبَاسِرِيَّةِ وَالـ * شَطِئِينَ حَيْثُ أَتَيْتَ مَعَابِرُهَا
 وَبِالرَّحَى وَالْحَزِيزُورَانِيَةِ الـ * عُيَا الَّتِي أَشْرَفَتْ قَنَاطِرُهَا
 وَقَصْرَ عَبْدُوِيهِ عِبْرَةً وَهَدَى * لِكُلِّ نَفْسٍ زَكَتْ سَرَائِرُهَا
 فَأَيْنَ حَرَّاسُهَا وَحَارِسُهَا * وَأَيْنَ تَجَبُّورُهَا وَجَابِرُهَا
 وَأَيْنَ خِصْيَانُهَا وَحِشْوَتُهَا * وَأَيْنَ سَكَّانُهَا وَعَامِرُهَا
 أَيْنَ الجَرَادِيَّةِ الصَّقَالِبُ وَالـ * أَحْبَشُ تَعْدُو هَذَا مَشَافِرُهَا
 يَنْصَدِعُ الجُنْدُ عَنْ مَوَاكِبِهَا * تَعْدُو بِهَا سُرَبًا ضَوَامِرُهَا
 بِالسِّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصَّقَالِبِ وَالـ * نَوْبَةَ سَيِّتِهَا بِرَابِرُهَا
 طَيْرًا أَبَايِلَ أَرَسَاتِ عِثَا * يَقْدُمُ سُودَانُهَا أَحَامِرُهَا
 أَيْنَ الظُّبَاءُ الأَبْكَارُ فِي رَوْضَةِ الـ * حَمَلِكُ تَهَادَى بِهَا غَرَائِرُهَا
 أَيْنَ غَضَارَاتُهَا وَلَذَّتْهَا * وَأَيْنَ تَجَبُّورُهَا وَجَابِرُهَا
 بِالمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ ائِمَّانِي وَالـ * يَلْتَجِجُ شَبُوبَةَ تَجَامِرُهَا
 يَرْفُلُنَ فِي الْخَلِّزِ وَالْمَجَاسِدِ وَالـ * حَوْسِرُ مَحْظُومَةٍ مَزَامِرُهَا

(١) كذا في الطبعين في حوادث سنة ١٩١ هـ، مطبوع بلاى وطلع آه ربا .

فَاَيْنَ رَقاصِها وَزَامِرها * يُجِبْنَ حَيْثُ أَتَيْتَ حَنَاجِرها
 تَكَادُ أَسْمَاعُهُمْ تُسَلُّ إِذَا * عَارِضَ عَيْدَانَهَا مَزَاهِرها
 أَمَسَتْ بِخَوْفِ الْحَمَارِ خَالِيَةً * يَسْعَرُهَا بِالْخَمِيمِ سَاعِرها
 كَأَنَّمَا أَصْبَحَتْ بِسَاحَتِهِمْ * عَادُ وَمَسْتَهْمِ صَرَاصِرها
 لَا تَعْلَمُ النَّفْسُ مَا يَبْأُيْتُهَا * مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَوْ يَأْكُرُهَا
 تُضْحِي وَتَمْسِي دَرِيَّةً غَرَضًا * حَيْثُ أَسْتَقَرَّتْ بِهَا شَرِاشِرُهَا
 لِأَسْهَمِ الدَّهْرِ وَهُوَ يَرْشُقُهَا * مَحْنِطُهَا مَرَّةً وَبَاقِرُهَا
 يَابُوسَ بَغْدَادَ دَارِ مَمْلَكَةٍ * دَارَتْ عَلَى أَهْلِهَا دَوَائِرُهَا
 أَهْلُهَا اللَّهُ عَاقِبَهَا * لَمَّا أَحَاطَتْ بِهَا كِبَائِرُهَا
 بِالْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالْحَرِيقِ وَبِالْ * حَرْبِ الَّتِي أَصْبَحَتْ تُسَاوِرُهَا
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْمَعَاصِي بِهَا * كَالْعَاهِرِ السَّوِّءِ
 حَلَّتْ بِبَغْدَادَ وَهِيَ آمِنَةٌ * دَاهِيَةٌ لَمْ تَكُنْ تُحَاذِرُهَا
 طَالَعَهَا السَّوِّءُ مِنْ مَطَالَعِهِ * وَأَدْرَكَتْ أَهْلَهَا جَوَائِرُهَا
 رَقَّ بِهَا الدِّينُ وَأَسْتُخِفَّ بِذِيهِ * فَضْلُ وَعِزِّ النَّسَّائِكِ فَاحِهَا
 وَخَطَمَ الْعَبْدُ أَنْفَ سَيِّدِهِ * بِالزَّغْمِ وَأَسْتَعْبَدَتْ مَخَادِرُهَا
 وَصَارَ رَبُّ الْحَيْرَانَ فَاسَقُوهُمْ * وَأَبْتَرَ أَمْرَ الدَّرُوبِ ذَاغِرُهَا
 مِنْ يَرْ بَغْدَادَ وَالْجُنُودُ بِهَا * قَدْ رَبَّقَتْ حَوْلَهَا عَسَاكِرُهَا
 كُلَّ طَحُونٍ شَبَّاءَ بِاسِلَةٍ * تُسْقِطُ أَحْبَابَهَا زَمَاجِرُهَا
 تُلْقَى بَغْيَ الرَّدَى أَوَانِسُهَا * يُرْهِقُهَا لِقَاءُ طَاهِرُهَا
 وَالشَّيْخُ يَعْدُو حَرَمًا كَثَائِبُهُ * يُقَدِّمُ أَعْجَازَهَا يَعَاوِرُهَا
 وَلِزْهَرٍ بِالْقَوْلِ مَأْسَدَةٍ * مَرْقُومَةٌ صُلْبَةٌ مَكَاسِرُهَا
 كِتَابُ الْمَوْتِ تَحْتَ أَلْوِيَةٍ * أَبْرَحَ مِنْصُورُهَا وَنَاصِرُهَا

يَعْلَمُ أَنَّ الْأَقْدَارَ وَاقِعَةٌ * وَقَعَا عَلَى مَا أَحَبَّ قَادِرُهَا
فَتَلَكَ بِغَدَادٍ مَا يَبِينُ مِنَ الْ * مَذَلَّهُ فِي دُورِهَا عَصَافُهَا
مَحْفُوفَةٌ بِالرَّدَى مِنْطَقَةٌ * بِالصَّفْرِ مَحْصُورَةٌ جَبَابُهَا
وَيَبِينُ شَطَّ الْفُرَاتِ مِنْهُ إِلَى * دِجْلَةٍ حَيْثُ أَتَتْهُ مَعَابِرُهَا
كَهَادِي السُّفْرَاءِ نَافِرُهُ * تَرْكُضُ مِنْ حَوْلِهَا أَشَاقِرُهَا
يُحْرِقُهَا ذَا وَذَاكَ يَهْدِمُهَا * وَيَشْتَفِي بِالنَّهَابِ شَاطِرُهَا
وَالْمَكْرُخُ أَسْوَاقُهَا مَعْطَلَةٌ * يَسْتَنُّ عِيَارُهَا وَعَائِرُهَا
أُخْرِجَتِ الْحَرْبُ مِنْ سَوَاقِطِهَا * آسَادُ غَيْلٍ غُلِبَتْ تُسَاوِرُهَا
مِنَ الْبَوَارِي تَرَأُسُهَا وَمِنْ الْ * يَخُوصُ إِذَا أَسْتَلَّامَتْ مَغَافِرُهَا
تَغْدُو إِلَى الْحَرْبِ فِي جَوَاشِنِهَا * صَوَفُ إِذَا مَا عَدَّتْ أُسَاوِرُهَا
كَتَائِبُ الْهَرِثِ تَحْتَ رَايَتِهِ * سَاعِدُ طَرَارِهَا مُقَامِرُهَا
لَا الرِّزْقُ تَبْغِي وَلَا الْعَطَاءُ وَلَا * يُحْشِرُهَا لِلْقَاءِ حَاشِرُهَا
فِي كُلِّ دَرْبٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ * خَطَارَةٌ يَسْتَلُّ خَاطِرُهَا
بِمَنْلِ هَامِ الرِّجَالِ مِنْ فِلَقِ الْ * صَخَرِيزُودِ الْمَقْلَاعِ بَائِرُهَا
كَأَنَّهَا فَوْقَ هَامِهَا عِدَفٌ * مِنْ الْقَطَا الْكُدْرُ هَاجَ نَافِرُهَا
وَالْفَوْمُ مِنْ تَحْتِهَا لَمْ زَجَلْ * وَهِيَ تَرَامِي بِهَا خَوَاطِرُهَا
بَلْ هَلْ رَأَيْتَ السِّيَوفَ مُضِلَّةً * أَشْهَرَهَا فِي الْأَسْوَاقِ شَاهِرُهَا
وَالْخَيْلَ تَسْتَنُّ فِي أَرْزَقَتِهَا * بِالتَّرْكِ مَسْنُونَةٌ خَنَاجِرُهَا
وَالنَّفْطُ وَالنَّارُ فِي طَرَائِقِهَا * وَهَابِيَا لِلدِّخَانِ عَامِرُهَا
وَالْتَّهَبُ نَعْدُوهُ بِالرِّجَالِ وَقَدْ * أَبَدَتْ خَلَائِلُهَا حَرَارُهَا
مُعْصُومَاتُ وَسْطِ الْأَرْزَقَةِ قَدْ * أَبْرَزَهَا لِلْعَيُونِ سَائِرُهَا
كُلُّ رُقُودٍ الضَّحَى مَحْبَاةً * لَمْ تَبْدُ فِي أَهْلِهَا مُحَاجِرُهَا

بَيْضَةٌ خَذَرُ مَكْنُونَةٍ بَرَزَتْ * للناس منشورةٌ غداؤها
 تعثرُ في ثوبها وتُعْطِلُها * كَبَّةٌ خِيلَ زَيْعَتِ حَوَافِرُهَا
 تسألُ أينَ الطَّرِيقَ والهِمَّةَ * والنارُ من خلفها تبادرها
 لم تَجْتَلِ الشَّمْسُ حَسَنَ بَهْجَتِهَا * حتى آجَلَتْهَا حَرْبُ بُشَايِرِهَا
 يَاهِلُ رَأَيْتَ التَّكْلَى مُؤَلَّوَةً * في الطُّرُقِ تَسْعَى وَالْجَهْدُ بَاهِرُهَا
 في لَأْمٍ نَعَشَ عَلَيْهِ وَاحِدُهَا * في صَدْرِهِ طَعْنَةُ يَسَاوِرِهَا
 فِرْعَاءُ تُقْلِقُ النَّارَ مِنْ يَدِهَا ^(١) * يَهْزَاهُ بِالسَّيْنَانِ شَاوِرُهَا
 تَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ وَتَهْتَفُ بِالْ * شَكْلِ وَعِزِّ الدَّمُوعِ خَاوِرِهَا
 غَرُغِرَ بِالنَّفْسِ ثُمَّ أَسْلَمَهَا * مَطْلُوءَةً لَا يُخَافُ ثَاوِرِهَا
 وَقَدْ رَأَيْتُ الْفَتِيانَ فِي عَرَصَةِ الْ * مَعْرَكِ مَعْفُورَةٍ مَنَاوِرِهَا
 كُلُّ فَتَى مَنَاعٌ حَقِيقَتُهُ -- تَشْقَى بِهِ فِي الْوَعَى مَسَاوِرِهَا
 بَاتَ عَلَيْهِ الْكَلَابُ تَنْهَشُهُ * مَخْضُوبَةً مِنْ دِمِّ أَظَاوِرِهَا
 أَمَا رَأَيْتَ الْخَيُْولَ جَائِلَةً * بِالْقَوْمِ مِنْكَوبَةً دَوَاوِرِهَا
 تَعَثَّرُ بِالْأَوَجِ الْحَسَانِ مِنْ الْ * قَتْلِ وَغَلَّتْ دَمًا أَشَاوِرِهَا
 يَطَّأَنَّ أَكْبَادَ فِتْيَةٍ يُجِدُّ * يَفْلِقُ هَامَاتِهِمْ حَوَاوِرِهَا
 أَمَا رَأَيْتَ النِّسَاءَ تَحْتَ الْحِجَابِ * نِيَقَ تَعَادَى شُعْنًا ضَفَاوِرِهَا
 عَقَائِلُ الْقَوْمِ وَالْعَجَائِزُ وَالْ * عُتْسُ لَمْ تُخْتَبَرْ مَعَاوِرِهَا
 يَحْمِلْنَ قَوَاتٍ مِنَ الطَّاحِينِ عَلَى الْ * أَكْتَفِ مَعْصُوبَةٍ مَعَاوِرِهَا
 وَذَاتُ عَيْشٍ صَنْكَ وَمُقْعَسَةٍ * تَسْدُخُهَا صَخْرَةٌ تُعَاوِرِهَا
 تَسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ سُلِّيتِ * وَأَبْتَرَتْ عَنْ رَأْسِهَا غَفَاوِرِهَا
 يَا لَيْتَ مَا وَالِدُهَا ذُو دَوْبٍ * تُرْجَى وَأُخْرَى تُخْشَى بَوَاوِرِهَا

(١) كذا في هامش السحرة الأوربية من الطاءى . و في نسخة بولاق وأوربا (في صلبها) :

فرعاء يبق الشارمر يدها . وهى روايه طاهر عليها التحريف وصاد المعنى .

هل ترجعن أرضنا كما غيّت * وقد تهاثت بنا مصايرها
 من مبلغ ذا الرياستين رسا * لا تَأْتِي للنصح شاعرها
 بأن خير الولاية قد علم الذ * سأس إذا عُدْتُ مآثرها
 خليفة الله من بريته ال * مأمون سأسها وجابرها
 سمّت إليه آمال أمته * منقادة برّها وفاجرها
 شاموا حيا العدل من تحايّله * وأضحرت بالتقى بصائرُها
 وأخذوا منك سيرة جلّت ال * شك وأخرى صحت معاذرها
 واستجمعت طاعة برفقك لد * مأمون تجديها وغائرُها
 وأنت سمع في العالمين له * ومقلّة ما يكِلْ ناظرُها
 فاشكر لذي العرش فضل نعمته * أوجب فضل المزيّد شاكرُها
 وأحذر فداء لك الرعيّة وال * أجنادُ مأمورها وأمرُها
 لا تردن غمرة بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرُها
 عليك ضحضاحها فلا تلج ال * غمر مُلتجّة زواجرُها
 والقصد إن الطريق ذو شعيب * أشامها وعثها وجائرُها
 أصبحت في أمة أوائلها * قد فارقت هديها أوامرُها
 وأنت سرسورها وسأسها * فهل على الحق أنت قاسرها
 أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرُها
 وأمدد إلى الناس كف مرحمة * تسدّ منهم بها مفاقرُها
 أمكك العدل إذ هممت به * ووافقت مدّه مقادرُها
 وأبصر الناس قصد وجههم * وماكنت أمة أخايرُها
 تُشرع أعناقنا إليك إذا ال * ادادات يوما جت عشائرُها
 كم عندنا من نصيحة لك في الـ * وقربى عزّت زوافرُها

وحرمة قُربت أو اِصرها * منك وأخرى هل أنت ذاكرها
 سعى رجال في العلم مطلبهم * رانحسها باكر وباكرها
 دونك غراء كالوذيلة لا * تفقد في بلدة سوائرها
 لا طمعا قلبها ولا بطرا * لكل نفس نفس تؤامرها
 سيرها الله بالنصيحة وال * خشية فاستدجت مرارها
 جاءتك تحكي لك الأمور كما * ينشر بزّ التجار ناشرها
 حملتها صاحباً أختة * يظل عجباً بها يحاضرها

ومن جيد شعره قوله :

الناس أخلاقهم شتى وإن جيلوا * على تشابه أرواح وأجساد
 للخير والشر أهل وكتلوا بهما * كل له من دواعي نفسه هاد
 منهم خليل صفاء ذو محافظة * أرسى الوفاء أواخيه بأوتاد
 ومشر الغدر تحنى أضالعه * على سريرة غمر غلها باد
 مشاكس خدع جم غوائله * يبدى الصفاء ويخفى ضربة آلهادى
 يأتيك بالبغي في أهل الصفاء ولا * ينفك يسعى بإصلاح لإفساد

ومن جيد شعر الحريرى قوله :

أضحك ضيفي قبل إنزال رحله * ويُنصب عندى والمحل جديب
 وما ألحصب للأضياف أن يكثر القرى * ولكننا وجه الكريم خصب

ومن جيد شعره قوله :

زاد معروفك عندى عظماً * أنه عندك محقور صغير
 وتناسيه كأن لم تأتته * وهو عند الناس مشهور كبير

وهو القائل :

وإن أشد الناس في الحشر حسرة * لمورث مال غيره وهو كاسبه
 كفى سفهاً بالكهل أن يتبع أصبا * وأن باتى الأمر الذى هو عائبه

ويُستجاد له قوله :

ودون الندى في كل قلب ثلّة * لها مصعدٌ وعمرٌ ومنحدرٌ سهل
وودّ الفتى في كل نيل يُنيله * إذا ما أنقضى لو أن نائله جزل
وأعلم عِلماً ليس بالظن أنه * لكل أناس من ضرائبهم شكل
وأنت أخلاء الزمان غناؤهم * قليل إذا الإنسان زلت به النعل
تروّد من الدنيا متاعاً لغيرها * فقد شمرت حذاء وأنصرم الجبل
وهل أنت إلا هامةٌ اليوم أو غد * لكل أناس من طوارقها الثكل

وفي هذا الشعر يقول :

أبا لصغد بأسٍ إذ تعيرني جمل * سفاهاً ومن أخلاق جارتني أبله
فإن تفخرى يا جمل أو تتجمل * فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل
أرى الناس شرّاً في الحياة ولا يرى * لقبر على قبر علاء ولا فضل
وما ضرتني أن لم تلدني يُحارب * ولم تشتمل جرمٌ على ولا عكل

وهو القائل :

ما أحسن الغيرة في حينها * وأقبح الغيرة في كل حين
من لم يزل متبهما عرسه * متأصبا فيها لريب الظنون
أوشك أن يُغريها بالذى * يخاف أن يُبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وضعها * منك إلى عرض صحيح ودين
لا تطلع منك على ريبة * فيتبع المقرون جبل القرين

٨ - عبد الله بن طاهر^(١)

كان بحلّ من علو المتزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنى به عن التقريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحلّ الذي لا يُدفع، وفي السباحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحدٌ.

وكان أديبا ظريفا جيّد الغناء، نسب اليه صاحب الأغاني أصواتا كثيرة أحسن فيها وتقلّها أهل الصنعة عنه، وله شعرائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُلِينَا الحَدَقُ النُّجْ * لُ على أُنَّا ثُلِين الحديدا
طَوْعُ أَيْدِي الطَّبَّاءِ تَقْتَادُنَا الْعِي * بن وتقتاد بالطعان الأسود
تَمْلِك الصَّيْدِ ثُمَّ تَمْلِكُنَا الْيَبِ * خُ المصوناتُ أَعِينًا وخدودا
تَنْقُ سَخَطُنَا الْأَسْوَدُ وَنَخْشِي * سَخَطُ الخِشْفِ حِينَ يُبْدِي الصَّدُودَا
فَقَرَانَا يَوْمَ الْكَرِيمَةِ أَحْرَا * را وفي السِّلْمِ لَلْغَوَانِي عَيْبِدا

أعطاه المأمونُ مَالَ مِصرَ لِسَنَةٍ، نَحْرَاجَهَا وَضِيَاعَهَا، فَوَهَبَهُ كُلَّهُ وَفَرَّقَهُ فِي النَّاسِ وَرَجَعَ صِفْرًا مِنْ ذَلِكَ، فغَاظَ الْمَأْمُونُ فَعَلَهُ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ يَوْمَ مَقْدَمِهِ، فَأَنَشَدَهُ أَبْيَاتًا قَالَهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَهِيَ :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيّدا نبيلًا على الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الالتفات إليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليا على الدينور فلما خرج بابك الخزي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث إلى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المطارق قد انقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام إليه رجل بزاز من حانوته وأنشده :

قد قُطِ النَّاسُ فِي زَمَانِهِمْ * حَتَّى إِذَا جِئْتَ جِئْتَ بِالْدَّرِ

غِيَتَانِ فِي سَاعَةٍ لَسَا قَدَمَا * فَرَحَبَا بِالْأَمِيرِ وَالْمَطَرِ

تول الشام والعراق ومصر . وتوفي سنة ٢٣٠ هـ . ومجّد ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأعاني

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْنَاقُ خَاضِعَةٌ * لِلنَّائِبَاتِ أَيْبًا غَيْرَ مُهْتَضَمٍ
إِلَيْكَ أَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضِ أَقْمُتْ بِهَا * حَوَّلِينَ بَعْدَكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمِ
أَقْفُو مَسَاعِيكَ اللَّائِي خُصِمَتْ بِهَا * حَدَّو الشَّرَّكَ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْأَدَمِ
فَكَانَ قَضَائِي فِيهَا أَنْتَى تَبَسُّعُ * لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْسَامِ وَالنَّعَمِ
وَلَوْ وُكِّلْتُ إِلَى نَفْسِي عَيْنَيْتُ بِهَا * لَكِنْ بَدَأْتُ فَلَمْ أُعْجِزْ وَلَمْ أُؤَلِّمِ

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مَكْرَمَةً نَلَّهَا ، ولا أُحْدِثُهُ حَسَنَ عِنْدَكَ
ذِكْرَهَا ، ولكن هذا شيء إذا عَوَّدْتَهُ نَفْسَكَ افْتَقَرْتُ ، ولم تقدر على لَمَّ شَعْنِكَ وإصلاح
حالك . وزال ما كان في نفسه .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مَصْرَ سَوْغَةِ الْمَأْمُونِ خَرَّاجَهَا ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا
كَلِمًا ثَلَاثَةً آلَافٍ أَلْفِ دِينَارٍ أَوْ نَحْوَهَا ، فَأَتَاهُ مُعَلَّى الطَّائِي وَقَدْ أَعْلَمُوهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ
فِي الْجَوَائِزِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاجِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمِنْبَرِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَنَا مُعَلَّى
الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ جَفَاءٍ وَغِلَظٍ ، فَلَا يَغْلُظُنَّ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَا يَسْتَخْفِنَنَّ
الَّذِي بَلَغَكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مَقْدِرَةٍ * وَأَظْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ الْجُودِ لِلْمَالِ
لَوْ أَصْبَحَ النَّيْلُ يَجْرِي مَائِهِ ذَهَبًا * لَمَّا أَشْرْتَ إِلَى خَزَائِنِ بَيْمِثْقَالِ
تُعْلِي بِمَا فِيهِ رِقِّ الْحَمْدِ تَمْلِكُهُ * وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْاضَ الْحَمْدَ بِالْغَالِي
تَفَكُّ بِالْيُسْرَكَفِّ الْعُسْرَ مِنْ زَمَنِ * إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِقْلَالِ
لَمْ تَحُلْ كَفْكَ مِنْ جُودٍ مُخْتَبِطِ * وَمُرْهَفٍ قَاتِلٍ فِي رَأْسِ قَتَالِ
وَمَا بَثَّنْتَ رَعِيْلَ الْخَيْلِ فِي بَلَدٍ * إِلَّا عَصَفْنَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالِ
إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى بَاٍ مَنَّتَ بِهِ * فَإِنَّ شُكْرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ
مَا زِلْتُ مُقْتَضِبًا أَوْلَا بِجَاهِرَةٍ * مِنْ أَلْسِنٍ خُضْنَ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك عبد الله وسرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمرَاء، أَفَرَضْنِي عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارًا
أَمْسَيْتُ أَمْلِكُهَا، فَأَقْرَضَهُ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ .

كَانَ مُوسَى بْنُ خَاقَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ بِمِصْرَ، وَكَانَ نَدِيمَهُ وَجَلِيسَهُ، وَكَانَ لَهُ مُؤَثِّرًا
مَقْدَّمًا، فَأَصَابَ مِنْهُ مَعْرُوفًا كَثِيرًا وَأَجَازَهُ بِجَوَائِزَ سَلِيَّةٍ هُنَاكَ وَقَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ
فِي بَعْضِ الْأُمُورِ بِخَفَاءَ وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْضٌ مَا لَمْ يَحِبُّهُ، فَرَجَعَ حِينَئِذٍ إِلَى بَغْدَادَ وَقَالَ :

إِنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَانَا * لَا مُبْدَأُ عُرْفًا وَإِحْسَانًا

لِحَسْبُنَا اللَّهُ رَضِينَا بِهِ * ثُمَّ بَعْدَ اللَّهِ مَوْلَانَا

يَعْنِي بِهِ الْمَأْمُونُ، وَغَنَّتْ فِيهِ جَارِيَتُهُ وَسَمِعَهُ الْمَأْمُونُ، فَاسْتَحْسَنَهُ وَوَصَلَهُ وَإِيَّاهَا، فَبَلَغَ
ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ، فَغَاضَهُ ذَلِكَ وَقَالَ : أَجَلُ ! صَنَعْنَا الْمَعْرُوفَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَضَاعَ .

وَلَعَبَدَ اللَّهُ أَلْحَانًا صَاغَهَا، فَفَنَّا مِنْ مَخْتَارِهَا وَصَدُورِهَا وَمَقْدَمِهَا لَحْنَهُ فِي شَعْرِ أُخْتِ
عَاصِيَةٍ فَإِنَّهُ صَوْتُ نَادِرٍ جَيِّدٍ صَحِيحُ الْعَمَلِ مُزْدَوِجِ النِّعَمِ ، بَيْنَ لَيْنٍ وَشِدَّةٍ عَلَى رَسْمِ الْحُدَّاقِ
مِنَ الْقَدَمَاءِ، وَهُوَ :

هَلَّا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمْ * نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي

الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النِّجْلَاءَ يَتْبَعُهَا * مُضَرَّجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادِ

وَمِنْ غَنَائِهِ أَيْضًا :

رَاحَ صَحْبِي وَعَاوَدَ الْقَلْبَ دَاءُ * مِنْ حَبِيبِ طِلَابِهِ لِي عَنَاءُ

حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُلْشَفِي لَشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ

مَنْ تَعَزَّى عَمَّنْ يَحِبُّ فَإِنِّي * لَيْسَ لِي مَا حَيَّتْ عَنْهُ عَزَاءُ

ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه :

لم نُبَيِّكْ لماذا للطَّربِ * يا أبا موسى وترويح اللَّعبِ
 وليترك الخمس في أوقاتها * حرصاً منها على ماء العنب
 وشنيف أنا لا أبكى له * وعلى كَوثر لا أخشى العطب
 لم تكن تعرف ما حد الرضا * لا ولا تعرف ما حد الغضب
 لم تكن تصلح للـك ولم * تُعطك الطاعة بالملك العرب
 أيها الباكي عليه لا بكت * عين من أبكاك إلا للعجب
 لم نبكىك لما عرّضتنا * للجانيق وطورا للسلب
 ولقوم صيرونا أعْبدا * لهم يبدو على الرأس الذنب
 في عذاب وحصار مجْهِد * سدّد الطُّرق فلا وجه طلب
 زعموا أنك حي حاشر * كل من قد قال هذا قد كذب
 ليت من قد قاله في وحدة * من جميع ذاهب حيث ذهب
 أوجب الله علينا قتله * فاذا ما أوجب الأمر وجب
 كان والله علينا فتنة * غَضِبَ الله عليه وكتب

وقال عبد الرحمن بن أبي الهُداهد يرثيه :

يا غَرْبُ جُودى قد بُت من وذمه * فقد فقدنا الغزير من ديمه
 ألوت بدنياك كف نائبة * وصرت مُغْضَى لنا على نِقمه
 أصبح للوت عندنا علم * يضحك سنّ المنون من علمه
 ما استنزلت درة المنون على * أكرم من حلّ في ثرى رِحمه
 خليفة الله في بريته * تقصّر أيدى الملوك عن شيمه

يَفْتَرَّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَمَر * يَنْشَقُّ عَنْ نَوْرِهِ دُجَى ظُلَمِهِ
 زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَانِبِهَا * اذْ أُولَعَ السِّيفُ مِنْ نَجِيعِ دَمِهِ
 مَنْ سَكَتَتْ نَفْسُهُ لِمَصْرَعَةٍ * مِنْ عُثْمِ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رَحِمِهِ
 رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ * حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزَ مَمْلُوكَةٍ * يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
 يَا مَلِكًا لَيْسَ بَعْدَهُ مَلِكٌ * لَخَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أُمِّهِ
 جَادَ وَحَى الَّذِي أَقَمْتَ بِهِ * سَخَّ غَزِيرَ الْوَكَيْفِ مِنْ دِيمِهِ
 لَوْ أَحْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَخِي ثَقَفَةٍ * أَسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدَمِهِ
 أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ سَطَوَتُهُ * إِلَّا مَرَامَ الشُّتَيْمِ فِي أَجْمِهِ
 خَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدَفٌ * أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ
 أَصْبَحَ مُلْكُكَ إِذَا أَثَرْتَ بِهِ * يَقْرَعُ سَنَ الشُّقَاةِ مِنْ نَدَمِهِ
 أَثَرْدُو الْعَرْشِ فِي عِدَاكَ كَمَا * أَثَرُ فِي عَادِهِ وَفِي لِمَارِمِهِ
 لَا يُبْعَدُ اللَّهُ صَيُورَةً تَلَيْتَ * لَخَيْرِ دَائِعِ دَعَاهُ فِي حَرَمِهِ
 مَا كُنْتُ إِلَّا كَلِمُ ذِي حُلُمٍ * أَوْجَحَ بَابَ السُّرُورِ فِي حُلُمِهِ
 حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتَهُ رَقْدَتُهُ * عَادَ إِلَى مَا أَعْتَرَاهُ مِنْ عَدَمِهِ

وقال أيضا يرثيه :

أَقُولُ وَقَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْفِرَارِ * سَقَيْتَ الْغَيْثَ يَاقَصْرَ الْقَرَارِ
 رَمَتِكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ عَيْنٍ * فَصِرْتَ مُلَوَّحًا بِدُخَانِ نَارِ
 ابْنِ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَّوْا * وَأَيْنَ مَزَارِهِمْ بَعْدَ الْمَزَارِ
 وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأَبْنَاهُ مَالِي * أَرَى أَطْلَاهُمْ سُودَ الدِّيَارِ
 كَأَن لَمْ يُؤْتَسَوْا بِأَنْبِيَسَ مُلْكٍ * يَطْوِلُ عَلَى الْمُلُوكِ بِخَيْرِ جَارِ
 إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ عَوْنًا * لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْنَحُ بِالْقِطَارِ

لقد ترك الزمانُ بنى أبيه * وقد غمرتهم سُود البحار
 أضاءوا شمسهم فجرت بنحيس * فصاروا فى الظلام بلا نهار
 وأجلوا عنهم قمرًا منيرا * وداسَتْهمُ خيولُ بنى الشرار
 ولو كانوا لهم كفؤًا ومِثْلًا * إذا ما توجوا تيجانَ عار
 ألا بآن الأمام ووارثاه * لقد ضَرم الحشى منّا بنار
 وقالوا الخلد يبع فقلتُ ذُلًّا * يصير بيائعيه الى صغار
 كذاك الملك يُتبع أوّليه * إذا قُطِع القرار من القرار

وقال مُقدّس بن صيفى يرثيه :

خيلى ما أنتك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعته النحيب
 تدلت من شماريخ المنايا * منايا ما تقوم لها القلوبُ
 خلال مقابر البستان قبر * يُجاور قبره أسدٌ غريب
 لقد عظمت مُصيبته على من * له فى كل مَكْرمة نصيب
 على أمثاله العبرات تُدرى * وثُنتك فى ماتمه الجيوب
 وما أدخرت زُبيدة عنه دما -- تُخصّ به النسيبة والنسيب
 دعوا موسى ابنه لبكاء دهر * على موسى ابنه دخل الحزيب
 رأيتُ مشاهد الخلفاء منه * خلاء ما بساحتها مجيب
 ليهنك أننى كهلٌ عليه * أذوبُ وفى الحشى كبدٌ تدوب
 أُصيبَ به البعيد فخرَ حزنا * وعابن يومه فيه المرّيب
 أنادى من بطون الأرض شخصًا - يحركه النداء فما يُجيب
 لئن نعتِ الحروبُ اليه نفسًا * لقد لجّعت بمصره الحروب

وقال نخزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخير أُمَامٍ قام من خير عُصْرٍ * وأفضل سَامٍ فوق أعوادِ منبر
لوارثِ علم الأولين وفهمهم * وللك المأمون من أم جعفر
كتبْتُ وعيني مُسْتَهْلٌ دموعُها * اليك ابن عمي من جفوني ومَحَجْرِي
وقد مَسَّنِي ضُرٌّ وذلُّ كَابِيَةٍ * وأرقَّ عيني يا ابن عمي تفكرِي
وهمتُ لما لاقيتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنْكَرٍ جدُّ مُنْكَرِ
سأشكو الذي لاقيتُه بعد فقده * اليك شكاةُ المستهام المُقَهَّرِ
وأرجو لما قد مرَّ بي مذ قدَّته * فانت لبتي خير ربٍّ مُعَيَّرِ
أتى طاهرٍ لاطهر الله طاهرا * فما طاهر فيما أتى بِمُطَهَّرِ
فأخرجني مكشوفةَ الوجه حاسرا * وأتَّهَبَ أموالِي وأحرق أدري
يعزُّ علي هارون ما قد لقيته * وما مرَّ بي من ناقص الخلق أعور
فان كان ما أسدى بأمر أمرته * صبرتُ لأمرٍ من قدير مُقَدَّرِ
تذكر أمير المؤمنين قرايتي * فديتُك من ذي حرمة مُتَدَكَّرِ

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربك ربَّ العِزَّةِ الصَّمدِ * ماذا أَصَبْنَا به في صُبْحَةِ الأَحَدِ
وما أَصِيبَ به الإسلامُ قاطبةً * من التَّضَعُّعِ في رُكْنِيهِ والأَوَدِ
من لم يُصَبْ بأمر المؤمنين ولم * يُصْبِحَ بِمَهْلَكَةٍ والهم في صُعدِ
فقد أَصِبتُ به حتى تَبَيَّنَ في * عقلي وديني ودنياي وفي جسدي
يا ليلَةً يَسْتَكِي الإسلامُ مُدَّتْهَا * والعالمون جميعا آخر الأَبَدِ
غَدَرَتِ بالملك الميمونِ طائرُهُ * وبالإمام وبالضَّرْغامةِ الأَسَدِ
سارَتْ اليه المنايا وهي تُرْهِبُهُ * فواجهَنَّهُ بأوغادِ ذوى عَدَدِ
بُسُورِجِينَ وأَغْتَامٍ يقودهم * قُرَيْشُ بالبَيْضِ في قُفُصٍ من الزَّدِ

فصادفوه وجيداً لا مُعِين له * عليهم غائب الأنصار بالمدد
 فجزعوه المنايا غير مُتَمَتِّع * فردا فإياك من مُسْتَسَلِم فرد
 يلقى الوجوه بوجه غير مُبْتَدَل * أبهى وأثنى من القُوْهِية الجُد
 واحمررتا وقريشٌ قد أحاط به * والسيفُ مُرْتَعِد في كف مُرْتَعِد
 فاتحرك بل ما زال متصباً * منكس الرأس لم يبدئ ولم يُعَد
 حتى اذا السيفُ وافى وسطَ مفرقه * أذرتَه عنه يدها فعل مُتَد
 وقام فاعلقتُ كفاه لَبَنه * كضيقِ شرس مستيسل لَبَد
 فاجتره ثم أهوى فاستقل به * للأرض من كف ليث مُحْرَج حرد
 فكاد يقتله لو لم يُكَاثره * وقام منفلاً منه ولم يَكْد
 هذا حديثُ أمير المؤمنين وما * تقصتُ من أمره حرفاً ولم أزد
 لا زلت أُنذبه حتى الممات وإن * أخنى عليه الذي أخنى على لُبَد

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة أبنة علي بن المهدي قالت

الييتين الآتين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مُملَكةً بمحمد :

أبيك لا للنعم والأُنس * بل للعالي والريح والأُنس
 أبكى على هالكٍ جُعْتُ به * أرملني قبل ليلَةَ العرس

هجاء يحيى بن أكرم^(١)

وعندنا في المجلد الأول أن نذكر مثلاً من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكرم، وها هو ذا :

أَرْقَهُ بَرْحُ الْهَوَى وَسَدِمُهُ * وَمَلَّهَ الْحُبُّ فَبَاتَ يَأْلَمُهُ
 طَوْرًا يُعَانِيهِ وَطَوْرًا يَسْتَمُهُ * مِثْلَ الْحَرِيقِ فِي الْحَشَا يُضْرَمُهُ
 فَفَاضَتْ الْعَيْنُ بِدَمْعٍ تَسْجُمُهُ * نَمَتْ عَلَيْهِ كُلُّ شَوْقٍ يَكْتُمُهُ
 وَبَاحَ بِالْحُبِّ الَّذِي يُجْجِمُهُ * وَبَاتَ وَالْقَلْبُ يُسَامِي هِمَّهُ
 مِنْ لِحْيٍ قَدْ تَرَاهُ يَرْحُمُهُ * أَصْبَحَ بِالْبَأْسَاءِ عَارٍ أَنْعَمُهُ
 طَالَ تَصَابِيهِ وَطَالَ سَقَمُهُ * وَبَلَى الْجِسْمَ وَرَقَّتْ أَعْظَمُهُ
 يَشْهَدُنِي اللَّهُ عَلَى مَنْ يَظْلِمُهُ * يَمْنَعُهُ طَعْمُ الْعُكْرِ وَيَحْرِمُهُ
 وَأَهَا لَهُ يَصْرِمُ مَنْ لَا يَصْرِمُهُ * أَصْبَحَ هَذَا الدِّينَ رَثًّا رِمَّهُ
 عَطَّلَهُ الْجَوْرَ وَطَالَ قَدَمُهُ * سَحَّتْ مِنَ الْجَوْرِ عَلَيْهِ دِيَمُهُ
 فَبَادَ مَغْنَى رَبْعِهِ وَأَرْسُمُهُ * إِلَّا بَقَايَا قَوْمِهِ وَجُمُهُ
 أَوْطَنَهُ الْجَوْرَ فَاضْحَى مَعْلَمُهُ * يَرُودُ فِيهِ شَأْؤُهُ وَنَعَمُهُ
 مِنْ يَشْهَدُ الْجَوْرَ فَتَحْنُ نَعْلَمُهُ * أَنْوَكَ قَاضٍ فِي الْبِلَادِ نَعْلَمُهُ
 يَقُولُ حَقًّا لَا تُعَيِّتُ تَرْحُمُهُ * مَدَّ وَلِيَ الْحَكَمِ أُبَيِّحَ حَرَمُهُ
 وَأَتَشَكَّى مِنَ الْقَضَاءِ حُرْمُهُ * وَأَضْطَرَبَتْ أَرْكَانُهُ وَدِعْمُهُ
 وَاللَّهُ يَنْبِيهِ وَنَحْنُ نَهْدِمُهُ * يَا لَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أَكْثَمُهُ
 وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ الْعِرَاقِ قَدَمُهُ * مَلْعُونَةٌ أَخْلَاقُهُ وَشِمِهِ^(٢)

(١) أنظر ما كتبتاه عن يحيى بن أكرم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) .

(٢) حدثنا بعد هذا البيت

أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب العامة .

والله والله لقد حلّ دمه * لو أن للدين عمادا يدعّمه
 يعيدل عنه الميل أو يقوّمه * لكان قد رتب عليه مائمه
 أرجو ويقضى الله لا يسألّه * من وجهه هذا ولكن يقصمه
 * بالسيف إذ حلت عليه نغمه *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء،
فانا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تَقَطَّعَتِ الْأَرْحَامُ بَيْنَ الْعَشَائِرِ * وَأَسْلَمَهُمْ أَهْلُ التَّقَى وَالْبَصَائِرِ
فَذَاكَ أَنْتَقَامُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ بِهِمْ * لَمَّا آجَزَمَوْهُ مِنْ رُكُوبِ الْكِبَائِرِ
فَلَا نَحْنُ أَظْهَرْنَا مِنَ الذَّنْبِ تَوْبَةً * وَلَا نَحْنُ أَصْلَحْنَا فُسَادَ السَّرَائِرِ
وَلَمْ نَسْمَعْ مِنْ وَاعِظٍ وَمَذَكَّرٍ * فَيَنْجَعُ فِينَا وَعْظُ نَاهٍ وَأَمْرِ
فَابِكَ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا تَقَطَّعَتْ * عِرَاهُ وَرَجَى ضَرَّهُ كُلَّ كَافِرٍ
فَأَصْبَحَ بَعْضُ النَّاسِ يَقْتُلُ بَعْضَهُمْ * فَنَ بَيْنَ مَقْهُورٍ عَزِيزٍ وَقَاهِرٍ
وَصَارَ رَئِيسُ الْقَوْمِ يَحْمِلُ نَفْسَهُ * وَصَارَ رَئِيسَا فِيهِمْ كُلُّ شَاطِرٍ
فَلَا فَاجِرَ لِلْبَرِّ يَحْفَظُ حَرَمَهُ * وَلَا يَسْتَطِيعُ الْبَرُّ دَفْعًا لِفَاجِرٍ
تَرَاهُمْ كَأَمْثَالِ الذَّنَابِ رَأَتْ دَمًا * فَأَمَّتْهُ لَا تَلْوَى عَلَى زَجْرٍ زَاجِرٍ
وَأَصْبَحَ فُسَّاقُ الْقَبَائِلِ بَيْنَهُمْ * تَسَلُّ عَلَى أَقْرَانِهَا بِالْخَنَاجِرِ
فَابِكَ لِقَتْلَى مِنْ صَدِيقٍ وَمِنْ أَخٍ * كَرِيمٍ وَمِنْ جَارٍ شَفِيقٍ مُجَاوِرٍ
وَوَالِدَةٍ تَبْكِي بِحَزَنِ عَلَى أَبْنَاهَا * فَيَكِي لَهَا مِنْ رَحْمَةٍ كُلِّ ظَائِرٍ
وَذَاتٍ حَلِيلٍ أَصْبَحَتْ وَهِيَ أَيْمٌ * وَتَبْكِي عَلَيْهِ بِالْدمُوعِ الْبُودَارِ
نَقُولُ لَهُ قَدْ كُنْتَ عِزًّا وَنَاصِرًا * فَعُيِّبَ عَنِ الْيَوْمِ عِزِّي وَبَاصِرِي
وَأَبْكَ لِإِحْرَاقٍ وَهَدْمٍ مَنَازِلَ : وَفَتْلٍ وَلِهَابٍ اللَّهِى وَالذَّخَائِرِ

ولإبراز ربات الخدود حواسرا * نخرجن بلا نُحْمِر ولا بآزر
 تراها حيارى ليس تعرف مذهباً * نوافر أمثالَ الأطباء النوافر
 كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً * وملهى رآته عينٌ لآه وناظر
 بلى هكذا كانت فأذهب حسنُها * وبدد منها الشملَ حكمَ المقادر
 وحل بهم ماحل بالناس قبلهم * فأضحوا أحاديثاً لبَّادٍ وحاضر
 أبغدادُ يا دارَ الملوك ومُحْتَمَى * صروف المنايا مستقر المنابر
 ويا جنة الدنيا ومطلب الغنى * ومستبط الأموال عند الضرائر
 أبينى لنا اين الذين عهدتهم * يحلون فى روض من العيش زاهر
 وأين ملوك فى المواكب تغتدى * تُشَبِّه حسنا بالنجوم الزواهر
 وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لورد أمور مشكلات الأوامر
 أو القائلون الناطقون بحكمة * ورصف كلام من خطيب وشاعر
 وأين مراح للملوك عهدتها ^(١) * مزخرفة فيها صنوف الجواهر
 تُرَش بماء المسك والورد أرضها * يَفُوحُ بها من بعد ريج المجامر
 وروح الندامى فيه كل عشيّة * الى كل فياض كريم العناصر
 وأين قيات تستجيب لنغمها * اذا هو لبّاهَا حنينُ المزامر
 وأين الملوك الغرُّ من آل هاشم * وأشياهم فيها اكتفوا بالمعاذر
 يروحون فى سلطانهم وكأنهم * يروحون فى سلطان بعض العشائر
 يحادل عما نالهم كبرائهم * فنالتهمو بالكُره أيدى الأصاغر
 فأقسم لو أن الملوك تتأصروا * كزَلَّت لها خوفاً رقابُ الجبابر

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكي بغداد ويهجو طاهرا ويعرض به :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ * ألم تكوني زماناً قُتِرَ العينُ
 ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرف * بالصّالحات والمعروف يلقونى
 ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قُربهمُ زينا من الزين
 صاح الزمانُ بهم بالبين فانقضوا * ما ذا الذى جفعتنى لوعة البين
 أستورعُ اللهَ قوماً ما ذكرتهمو * ألا تحدر ماء العين من عيني
 كانوا ففرّقهم دهرٌ وصدعهم * والذهر يصدع ما بين الفريقين
 كم كان لى مُسعدٍ منهم على زمنى * كم كان منهم على المعروف من عون
 لله دُرٌّ زمان كان يجمعنا * أين الزمانُ الذى وتى ومن أين
 يا من يُحترَبُ بغداداً ليعمرها * أهلكَتَ نفسك ما بين الطريقين
 كانت قلوبُ جميع الناسِ واحدة * عينا وليس يكون العين كالدين
 لما استبيتهمُ فرّقهمُ فرقا * والناس طراً جميعاً بين قلوبين

ولبعض فتیان بغداد :

بكيتُ دماً على بغداد لما * فقدتُ غَضارةَ العيش الأنيق
 تبدّلنا هموماً من سرور * ومن سعةٍ تبدّلنا بضيق
 أصابتها من الحساد عينٌ * فأنت أهلها بالمتجنّيق
 فقومٌ أحرّقوا بالنار قسراً * ونائحةٌ تنوح على غريق
 وصاحبةٌ تُنادى وأصباحا * وباكيةٌ لفقدان الشّفيق
 وحوراء المدامع داتٌ دلّ * مضمخةٌ المجاسد بالحلوق
 تَقَرّ من الحريق الى انتهاب * ووالدها يفرّ الى الحريق

وَسَلِيلَةُ الْغَزَالَةِ مُقْلَتِيهَا * مَضَاحِكُهَا كَلَالَةُ الْبُرُوقِ
 حَيَارَى كَالْهَدَايَا مُبْكَرَات * عَلَيْهِنَّ الْقَلَائِدُ فِي الْحُلُوقِ
 يُنَادِينَ الشَّفِيقَ وَلَا شَفِيقٌ * وَقَدْ فَقِدَ الشَّفِيقُ مِنَ الشَّفِيقِ
 وَقَوْمٌ أُخْرِجُوا مِنْ ظِلِّ دُنْيَا * مَتَاعُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ
 وَمُغْتَرِبٌ قَرِيبُ الدَّارِ مُلَقًى * بِلَا رَأْسٍ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 تَوَسَّطَ مَنْ قِتَالَهُمْ جَمِيعَا * فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَى الْفَرِيقِ
 فَلَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيهِ * وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ مِنَ صَدِيقِ
 وَمَهُمَا أَنَسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى * فَإِنِ ذَاكَرَ دَارَ التَّوَقُّيقِ

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة

التي عوّلتا عليها في المراجعة لكّتاب عصر المأمون

نثبت لك هنا الهامّ من مراجع الكّتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات الملفّة التي أشرنا إليها في مواضعها من الكّتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية :

- | | |
|---|--|
| تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط . | تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليدن . |
| تاريخ المشاركة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط . | تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر. |
| تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، مخطوط . | تاريخ مروج الذهب للسعودي ، طبعة مصر وباريس . |
| تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوروبا) . | تاريخ يعقوبي ، طبعة ليدن باشراف المسيو هتسما . |
| تاريخ التشريع الاسلامي للرحوم الحضري بك ، طبعة مصر . | تاريخ أبي الفدا للملك المؤيد ، طبعة الأستانة . |
| تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوروبا . | تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عبد الله محمد بن يوسف ، طبعة أوروبا . |
| تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردي ، طبعة أوروبا . | تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر. |
| البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» . | تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر . |
| الآثار الباقية للبيروني ، طبعة ليسك . | الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، طبعة ليدن . |
| | نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق ادوار بوكوك . |

تراجم الحكماء للقفطى ، طبعة مصر .
طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنبارى ،
طبعة مصر .

وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبعة
مصر .

وفات الوفيات لابن شاكر الكتبي ،
طبعة مصر .

الملل والنحل للشهرستانى ، طبعة مصر .

ألف باء ليوسف البلوى ، طبعة مصر .

مسالك الأيصار لابن فضل الله العمري ،
طبعة دار الكتب .

فتوح البلدان للبلاذرى ، طبعة ليدن .

كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ،
طبعة ليدن .

كتاب البلدان لليقوتى ، طبعة ليدن .

مسالك الممالك للاصطخرى ، طبعة
ليدن .

المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة
ليدن .

أحسن التقاسيم للقدسى ، طبعة ليدن .

المسالك والممالك لابن خرداذبه ، طبعة
ليدن .

الأعلاق النفيسة لابن رسته ، طبعة ليدن .

حسن المحاضرة للسيوطى ، طبعة مصر .

بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى
طبعة بغداد .

مقدمة الياذهوميروس تعريب البستانى
طبعة مصر .

مختصر تاريخ الدول لأبى الفرج الملقب ،
طبعة بيروت .

تاريخ الاستحقاق ، طبعة أوروبا .

فتوح الشام للواقدي ، طبعة مصر .

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، طبعة
مصر .

ولاية مصر وقضاها للكندى ، طبعة
بيروت .

مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى ،
طبعة مصر .

كشف الظنون لحاجى خليفة ، طبعة
الأستانة وليبسك ومصر .

المستطرف للابشيهى ، طبعة بولاق .

معجم البلدان لياقوت الحموى ، طبعة
ليبسك ومصر .

المزهر للسيوطى ، طبعة بولاق .

الأحكام السلطانية للآوردى ، طبعة
أوروبا .

أعلام الناس لآتليدى ، طبعة مصر .

كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة أوروبا .

معجم الأدياء لياقوت الرومى ، طبعة
مصر واشراف مرجايوت .

الفهرست لابن النديم ، طبعة ليبسك .

طبقات الأئم لابن صاعد ، طبعة بيروت .

طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ،
طبعة مصر .

كتاب الكشكول للعالمى ، طبعة مصر .
 سراج الملوك للطوطشى ، طبعة مصر .
 كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، طبعة
 ليدن .
 كتاب الخراج لأبى يوسف ، طبعة
 بولاق .
 تاريخ الوزراء المنسوب للصولى ، طبعة
 بيروت .
 أشهر مشاهير الاسلام ، للرحوم رفيق
 العظم بك ، طبعة مصر .
 كتاب نفح الطيب ، طبعة مصر وأوربا .
 مفاتيح العلوم للخوارزمى ، طبعة مصر .
 مفيد العلوم للخوارزمى ، طبعة مصر .
 كتاب المواهب الفتحية للرحوم
 الشيخ حمزة فتح الله ، طبعة مصر .
 كتاب السيرة لابن هشام ، طبعة مصر .
 مقدمة ابن خلدون ، طبعة مصر .
 خطط الشام للاستاذ محمد كرد على ،
 طبعة دمشق .
 مجموعة مجلة المشرق ، طبعة بيروت .
 مجموعة مجلة المجمع العلمى ، طبعة دمشق .
 مجموعة مجلة الهلال ، طبعة مصر .
 مجموعة مجلة المقتطف ، طبعة مصر .
 بعض فصول ومباحث من المجلة
 الأسبوعية .
 حديث الأرباء للدكتور طه حسين ،
 طبعة مصر .

حضارة الاسلام فى دار السلام بجميل
 مدقور ، طبعة مصر .
 كتاب الأغانى للاصبهانى ، طبعة بولاق
 والساسى .
 الجزء الأول من كتاب الأغانى ، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية .
 نهاية الأرب ، طبع مطبعة دار الكتب
 المصرية والنسخة الفتوغرافية
 بالدار .
 صبح الأعشى ، طبع مطبعة دار الكتب
 المصرية .
 كتاب التاج المنسوب للجاحظ ، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية .
 كتاب الأملى لأبى على القالى ، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية .
 كتاب الكامل للبرد ، طبعة مصر .
 كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، طبعة
 مصر .
 العمدة لابن رشيق ، طبعة مصر .
 كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى ، طبعة
 فردرك شوالى .
 كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ ، طبعة
 ليدن .
 كتاب البخلاء للجاحظ ، طبعة مصر .
 كتاب الحيوان للجاحظ ، (نسخة
 فتوغرافية محفوظة بدار الكتب
 المصرية) .

حلبة الكيت، طبعة بولاق .

خزانة الأدب لابن حجة الحموي، طبعة بولاق .

خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق .

محاضرات الفلسفة لستلانه بالجامعة المصرية .

محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنور كلونينو، طبعة روما .

مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبرى زاده، طبعة حيدر آباد .

محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية .

محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي بالجامعة المصرية .

محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الأمم الإسلامية، طبعة مصر .

محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر .

التمدن الإسلامى للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر .

تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر .

طبقات ابن سعد، طبعة أوروبا .

طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر .

المنثور والمنظوم لابن طيفور .

رسالة بنى أمية للجاحظ، خطية .

منهل الرؤاد فى علم الانتقاد لقسطاكي

الحمصى بك، طبعة مصر .

محاضرات الأستاذ الاسكندرى

المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .

الوسيط للاستاذ الاسكندرى المدرس

بدار العلوم، طبعة مصر .

أدبيات اللغة العربية للاستاذ مصطفى

صادق الرفعى، طبعة مصر .

أدبيات اللغة العربية للرحوم عاطف

بركات بك وزملائه، طبعة مصر .

مهذب الأغاني للرحوم الخضرى بك،

طبعة مصر .

بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف،

طبعة مصر .

الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن .

طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى،

طبعة ليدن ومصر

كتاب الأذكياء لابن الجوزى، طبعة

مصر .

العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر .

العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة

مصر .

لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن .

عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة

دار الكتب وأوربا .

رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد علي ،
طبع مصر .

جمهرة أشعار العرب لأبي زيد ، طبعة
مصر .

المفضليات للضبي ، طبعة مصر .

حماسة البحترى ، طبعة بيروت .

الصناعتين لأبي هلال العسكري ، طبعة
مصر .

الموشى لأبي الطيب ، طبعة أوروبا .

ديوان الحماسة لأبي تمام ، طبعة مصر .

مجانى الأدب وشرحه ، طبعة بيروت .

مختارات البارودى ، طبعة مصر .

حياة الحيوان للدميرى ، طبعة مصر .

عيون التواريخ لابن شاکر الکتبی
(أجزاء منه محفوظة بدارالکتب

المصرية) .

الفرج بعد الشدة للتنوخى ، طبعة مصر .

کتاب الوزراء والکتاب لأبى عبد الله

محمد بن عبدوس الجهمشيارى طبعة

فينا سنة ١٩٢٦

کتاب الاشتفاق لابن دريد الأزدي

طبعه جوتجن سنة ١٨٥٤

الأوراق للصولى ، خطية .

مطبوعات تذکار جيب الانجليزية

وخاصة مؤلفات الأستاذين

مرجليوث وبرون .

زهر الآداب للحصرى ، طبعة مصر .

المشتبه فى أسماء الرجال للذهبي ، طبعة

أوروبا .

الوافى بالوفيات للصفدى (المحفوظ

بدار الکتب المصرية تحت

رقم ١٢١٩) .

أخبار أبى نواس لابن منظور ، طبعة

مصر .

المصادر الافرنجية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.
 Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).
 The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by
 Ameer Ali. (London).
 D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London)
 in "Heroes of the Nations' Series".
 H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs. Omayyades Moawia
 1^{er} et Yasid 1^{er}". (Beyrouth).
 Library of Universal History (N. Y.).
 History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).
 A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).
 A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).
 Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).
 The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).
 Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).
 Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
 Encyclopaedia of Islam. (Luzac).
 Encyclopaedia Britannica. (London).
 La Grande Encyclopédie. Paris.
 The Historians' History of the World by H. S. Williams.
 (New York).
 Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).
 The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by
 Gibbon. (London).
 The History of Philosophy in Islam by J. de Boer translated by
 Jones. (London).
 Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).
 Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Anda-
 lusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).
 Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitu-
 tional Theory by D. B. Macdonald. (London).
 Margoliouth's Works Etc.
 R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.
 Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik.
 (Leipzig).